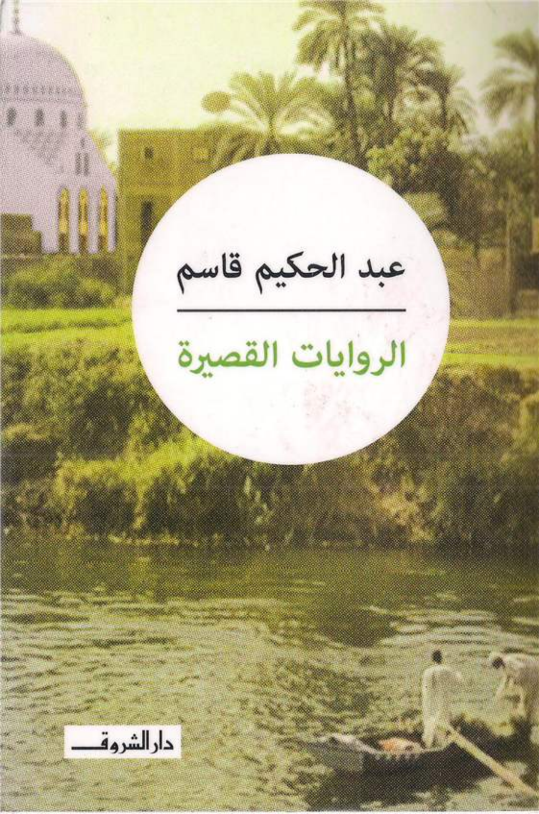

عبد الحكيم قاسم
الروايات القصيرة
دار الشروق

عبد الحكيم قاسم

الروايات القصيرة

دار الشروق

المحتويات

المهدي

ابنتي ايزيس.. ابني أمير.. أرجو أن تعيشا مصرًا
أحسن من تلك التي عاشها أبوكما، وأن تذكراني.

.. كان العم علي أفندي يحكي عن «محلة الجياد» والحاضرون مبهورون، إنها لقرية مدهشة حقًا، الشوارع فيها تحمل أسماءً والدور أرقاما، وحينما تشتد وقدة الحر في القيلولة تدور عربات تجرها بغال حكومية ترش تراب الأرض بالماء، يحكي عم علي أفندي. هو في «محلة الجياد» كاتب في المجلس القروي، وهو حسن الصلة بعمدة البلد، أي عمدة، رجل يحمل رتبة «بك» وهو رأس أسرة تعدادها خمسة وعشرون ألفا من أربعين ألفا هم جملة سكان البلد، أسرة المشرقي.. إيه.. يرن صيتها في كل البلاد، وتخاصمها على العمودية دون أمل أسرة البيومي، وهي أيضًا أسرة مشاكسة شرسة، ولقد كانت الحرب بين الأسرتين سجالا، وكانت القلوب مطوية على الحقد والضغينة، وما كان يمر يوم إلا ويسقط قتيل أو تسم ماشية أو تحرق دار أو يقلع زرع، وكانت أنفاس العنف تزلزل البلد ليل نهار، عنف يرن في المجاورة، عنف لا تستطيع حتى الحكومة كبحه، وما زالت حكاية شونة بنك التسليف تحكى، فإنه حين شحت الأذرة وأعسر المال على الناس هجمت البلد على شونة بنك التسليف، محت أثرها من الأرض محوًا، حتى إن لجنة المعاينة لم تستطع أن تهتدي إلى مكان الشونة أبدا. يحكي عم علي أفندي والناس تسمع وتحوقل في تنهدات عميقة، يشفقون على هذا الأخ الذي طوحت به الوظيفة

بعيدًا عن كن الأهل ودفء القرابة، لكنه يقول: إن هذا مضى، وإن شعبة الإخوان المسلمين في البلد غيرت الأحوال، وحولت القلوب إلى الإسلام، وجعلت من الحقد والغل غيرة على الدين، وألبست الشبان ملابس الجوالة، وبدل الزعيق والشجار والخصام يدوي الآن «الله أكبر ولله الحمد». لكن عبد العزيز يتابع الحديث شاردًا بارد القلب، فالعم يعمل فى هذه البلدة منذ سنين طويلة، وقد سمع عبد العزيز هذه الحكايات بكلماتها طفلا وصبيا، ثم يسمعها شابا، ولقد زار عبد العزيز العم فى محلة الجياد مع أبيه طفلا وزاره وحده صبيا، ويزوره الآن شابا، ولقد عرف كل السِّكك وعاين كل الدور وعرف كل الناس، ولقد كان يتابع هذه الأحاديث طفلا ويكاد قلبه ينشق انبهارا. العم يجسد الأحداث يكاد السامع أن يراها، ولقد فرح عبد العزيز جدًّا أول ما عرف الدور والسكك والناس، لكن الأشياء تفقد حرارتها، تبرد، تموت، تصير ترابًا، والعم يهدأ صوته حتى يكاد يكون تضرعا واسترحاما ويقول:

«أما أنا وإخواني أهل الطريق فمعشر شيمتنا الانكسار، وشعارنا قول الحبيب المصطفى: اللهم أحيني مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرني فى زمرة المساكين».

ويحكي العم أنه بعد أن تقضى صلاة العشاء من يومي الأحد والخميس تنادى الإخوان، أسماهم الله بالخير، إلى بيت الشيخ سيد الحصري، واجتمعوا إلى دلائل الخيرات وبردة الأباصيري، فأخذوا من التلاوة الحظ المقدور، ثم ترحموا وقرءوا الفواتيح في الختام، ثم تآنسوا بحديث ودود تبقى ذبالاته معهم حتى يأوون إلى المضاجع

بين العيال... هنا تستريح قلوب الأقارب على الأخ الذي طوحت به الوظيفة في شتات الغربة، فالأمان بين إخوان الطريقة هو بعض الأمان فى حجر الأهل... وهنا أيضًا يبدأ الحديث في استئلاف قلب عبد العزيز، يصغي، ويزداد اهتمامه توهجا عندما تأتي سيرة الشيخ سيد صانع الحصر.

لقد رآه هنا ورآه فى «محلة الجياد» وهو رجل سكوت، خفيض الصوت يكاد حديثه أن يكون همسًا، لكن كلماته تبقى في النفس وتحط الصمت على فوران الخواطر.

وهو مضعضع العينين، ضعيف البصر لا يكاد يرى، وهو جاف كفرع سنط، معوج القامة مما يحمل لفائف الحصير ويدور بها في البلاد، يعتلها على خاصرته أسفل ظهره، وكفاه خشنتان كمخلبين من كثرة ما يدك السمار في الخيوط في صنعة الحصير.

لقد أولاه عبد العزيز في كل مرة رآه سمعا وقلبا وعقلا.

ولقد قال الشيخ سيد الحصري عن «محلة الجياد»: إنهم قوم مسرفون. وأخذت الكلمة قلب عبد العزيز إلى الصمت العميق... وعن الأسرتين الكبيرتين قال الشيخ سيد الحصري:

«نحن تستغرقنا شئوننا الصغيرة عن الانشغال بقضايا الكبار» ولم يفت عبد العزيز أنفة الاعتزاز في جرس الكلمات... وعن أعمال الشغب في محلة الجياد وقال الشيخ سيد الحصري:

«إن الله قسم الأفعال، وخليق بالعبد أن يختار أقلها جلبة، حتى يكون سلام ولا يؤرق القلوب الفزع».

ويمضي الشيخ سيد مسافرا، وهو إذا يقدم أو يمضي فإنما متسللا دون احتفال.

هكذا تكون زيارة عم علي أفندي امتحانا لتلك الرابطة الأسرية العميقة، فتؤكد نفسها المرة بعد المرة، وتكون الزيارة راحة لقلب عبد العزيز فهو يحب هذا العم، وهو يأتي كل مرة بطرف من سيرة الشيخ سيد، وهو شأن يستغرق النفس ساعة، ويدفعها إلى التفكير.

... كانت ساعة عصرية، الشمس ودودة، والهواء طيب رائق، وماء الترعة يعكس سماءً زرقاء ويبلل ذيول النسمات، والمعلم عوض الله عوض الله صانع الشماسي يحمل خرجه على كتفه ويحمل في يده حقيبة صغيرة وفي يده الأخرى يمسك ابنه حنتس، وخلفه تمشي زوجته فلة، على رأسها صرة، وفي يدها سلة صغيرة وفي يدها الأخرى ابنتها لوزة.

... النسيم على جبين المعلم عوض الله يطري العرق ويخفف التعب، أو يحوله إلى إحساس يشبه ا لسكر بالنبيذ، يمشي في العروق، يصنع المسرة ويحرر النفس من الهم، نعم، فقد كان يثقل على قلب المعلم عوض الله ذلك الحال مع صاحبة البيت الست جبونة، هي سيدة طيبة حيية، ترعى حرمة الناس وكرامة الجوار، لكن الحال تعس في الأيام الأخيرة، وضاق الرزق، ولأشهر طويلة لم يدفع لها إيجار الغرفة التي يسكنها في الطابق الأرضي من البيت الذي تملكه، والسيدة لم تصدر منها عيبة، كانت كل آن تنزل، تطرق الباب عليهم وتقف بعيدًا خجلة:

ـ يا معلم.. يا أبا حنتس!

وهو يعرف، وهو يخرج كل يوم حاملا خرجه ويدور في الشوارع، يصلح الشماسي أو يصنعها ويعود في المساء، لا يجد في جيبه إلا ما يكاد يسد رمق الأسرة، أم حنتس تجهد وسعها وتقتر ما استطاعت لكن لا شيء يتوفر لسداد الإيجار، الخجل والقهر يملآنه، ينكس رأسه لا يجرؤ على رفعها إلى وجه الست جبونة:

ـ يا ست.. ليساعدنا الرب.

الست جبونة لا تزيد، تدور على عقبيها صاعدة السلم:

ـ لا تخجلوا من قدومي لكم.. إنما أريد أن أطمئن عليكم!

يظل يتبع وقع خطواتها على الدرجات حتى يختفي، ثم يأوي إلى ركنه في الغرفة لا يغمض له جفن.

... هذه المرة حينما رآها واقفة خجلة في فتحة الباب قال لها:

ـ يا ست جبونة... أنا ماشي.. وسوف نترك لك هذه الأواني النحاسية وفاءً بالمتأخر علينا من الإيجار.

وشحب وجه أم حنتس حتى صار أبيض، ورفعت إلى المعلم عينين واسعتين وهو أطل عليها بوجه هضيم مكسور، وتوقف الطفلان عن مضغ خبزهما خائفين، وتعلقت النظرات لحظة، قال المعلم:

ـ قومي يا أم حنتس نجمع أشياءنا ونرحل.

وخرجا والنهار بعد طفل، أطلت أم حنتس وراءها تلقى نظرة أخيرة على البيت الذي عاشت فيه طويلا، ومشت في الحارة تتبع المعلم، وقالت لبضع جارات جالسات على أبواب البيوت:

- سعيدة.

ولم تسألها الجارات شيئًا، ربما لم يدركن التغير وراء هذا الخروج، أو ربما لم يعنهن ذلك فى شيء، أو ربما كانت مشقة السؤال أكثر مما يطقن، قلن في خفوت:

- سعيدة.

وحينما أحست فلة أن المدينة تبتعد وراء ظهرها، وأن موكبهم الصغير ضائع على هذا الطريق الريفي وسط شسوع الحقول، أدركها الخوف وسألت هامسة:

- إلى أين يا معلم؟

لا يلتفت لها، يرسل عينيه في الآفاق، لكنهما متواصلان، كأنهما قلبان يسكنان في صدر واحد، يقول لها المعلم عوض الله:

- ضاق الرزق في طنطا يا فلة.. سنخرج إلى الريف.. علنا نصادف فرجا.

صمتت هنيهة شاردة، ثم قالت هامسة كأنما تحدث نفسها:

- لننشد كفرًا مسيحيا يا عوض الله.. فيه كنيسة وراع صالح! حلم كجناح ملاك أبيض طفلي الوجه يلمس شغاف قلبه يتنهد:

- سيرعانا المسيح يا فلة.

وتلفتت فلة حولها ثم رسمت بعجلة صليبا على صدرها، وعوض الله يواصل حديثه الهامس:

- إن عمد الريف وأعيانه لا يتخذون أبدًا هذه القبعات الزرية.. ويجدون في الشماسي وجاهة وظلا!

ثم مضى يسلم جبينه للنسيم، يختلط مذاق التعب المالح في فمه بطعم الدموع المترقرقة وهو يتمتم ببقايا تسابيح «.. ولا تدخلنا في تجربة... ونجنا من الشرير..».

* * *

... طوى علي أفندي دفتره الكبير ونحاه جانبا بعد أن أثبت علف البغال، ثم حرر استمارات الصرف من أصل وثلاث صور، يعمل متأنيا متغنيا بكلمات ممطوطة وابنه عطية يجلس مدليا الساقين على كرسي يتابع أباه ضاحكا، يزعق الأب مناديا:

- أبو عساكر!

ويدخل رجل عجيب الشكل حقا، قميء جدًّا، شديد النحول، هضيم الوجه، ضيق العينين، لكنه طيب ضحوك، وعيناه في الضحك تطمسان نهائيًّا، لكنه يرى بهما في كل الأحوال، يدب، يجد سبيله هنا وهناك في هذا المجلس القروي، وهو واحد من كناسين وعربجية أو كلافين مهزولين صفر منحرفي الخلقة، سقط، بقايا، في هذا البلد الفارغ أهلها. دمثون متملقون وسط قوم يفيضون عدوانية وشراسة، يبصبصون بأذنابهم حول علي أفندي وفي وجه تقريعه الدائم:

- سيدي يا أبا عساكر.. تعال معي أصرف لك الأعلاف من المخزن.. وبالله عليك كف عن قزقزة فول البغال.

- لم يحصل والله يا افندي.

- ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم يا أبا عساكر.. قزقزة فول البغال حرام. أتعرف لماذا هذه البغال صحيحة قوية؟ ذلك بأنها تأكل بقدر.. بالميزان.. أما أنت فإذا ما جلست لطعامك فأنت آت على نصف مشنة

العيش لا محالة.. وعلى المرأة أن تقضي حياتها طحنا وعجنا وخبيزا.. وفي المجلس يا سيدي تملأ حجرك من فول البغال وتقضي النهار تقزقز.

ـ لم يحصل والله يا افندي.

ـ وعليه فأنت أصفر أكرش ممعود.. لا تسمع قول رسول الله: المعدة بيت الداء.. والحمية رأس الدواء؟ لا حمية لديك.. بل صغار نفس وعدوان على علف البغال.

هكذا يمشي علي أفندي في فناء المجلس ماضيا إلى المخزن، طويلا نحيلا يميل طربوشه إلى الخلف عن شعره الأسود الكثيف اللامع، يرتل الكلمات ضاغطا على مخارجها شاردًا لا يصوب بصره لشيء، يصرف الأعلاف لـ«أبي عساكر» ويأخذ يد ابنه ويذهب إلى نيازي أفندي رئيس المجلس، الذي يرفع رأسه من الأوراق فزعا، ثم يتمتم مرتبكا معتذرًا عن اضطرابه، وبعد ابتسامات المجاملة والربت على رأس الطفل النجيب يواصل علي أفندي كلماته المرتلة الممطوطة حاكيا ما حصل في يوم العمل ونيازي أفندي يوقع الاستمارات:

ـ وبهذا يا سيدي الجليل يكون عمل اليوم قد انتهى وإني لأستأذنكم فى الرواح.

ـ في حفظ الله يا علي أفندي.

ـ ألا تكرمنا بأن تتغدى اليوم معنا؟

ـ على رأسي هذه الدعوة الكريمة.. لكن الزوجة والأولاد في طنطا.

ـ لا حظ لنا.. لا نصيب.. ما باليد حيلة.. السلام عليكم.. سلم يا ولد!

وبهذا الطقس ينتهي عمل اليوم، ويقرئ علي أفندي أبا عساكر السلام ويمضي في حارات محلة الجياد تحت شمس الظهر، يقرئ الناس السلام ويسألهم، ويشتري البلح والجوافة ويعود مثقل الساعدين بما اشترى، تسرع إليه زوجته صامتة، تشرع عينيها تتحسس ملامحه المحمومة بالحر والسخط، تحمل عنه الأشياء يناولها الطربوش.

ـ رائحة الملوخية تملأ الدار.. لعلها على أرانب؟

ـ ذبحنا الأسود الصغير.. كان الجبلي الكبير يطرده ويجرحه!

انفجر عطية باكيا.

ـ ذبحتم أرنبي!

أسرعت الأم تطمئنه.

ـ لا يا حبيبي.. أرنبك الأبيض هناك.. اذهب تره بنفسك!

وبعد صلاة العصر يخرج علي أفندي كعادته اليومية إلى ظاهر البلد، ذلك الشارع الكبير، وصفا الصفصاف على جانبيه، في عصر ذلك اليوم وجد على جنب الطريق المعلم عوض الله عوض الله وزوجته فلة والطفلين لوزة وحنتس ولما اقترب منهم عرف من الوجوه أنهم ناس من القبط، وأكد ظنه وشم الصليب على المعاصم، لم يقرئهم السلام، إنما حياهم قائلا:

ـ نهاركم سعيد.

ورد المعلم عوض الله مسرعا مرتبكا:

ـ نهارك سعيد مبارك.

وتلفت علي أفندي. وجد حجرًا كبيرًا جلس عليه وأخذ عطية إلى جنبه وأعد نفسه لحديث طويل طلي في هذه الساعة العصرية.

* * *

... فإن المعلم عوض الله على رأس جماعته الصغيرة ظل يمشي على الطريق الزراعي وقتا طويلا، فالناس من أهل المدينة إذا خرجوا من حبسها الرديء الهواء إلى شسوع الريف أسكرهم انفساح الآفاق وجودة الهواء، وعليه فهو يمشي لا يدركه التعب إلا بعد حين، إذ ذاك يميل على أول قرية تصادفه، يجلس هو وجماعة على مشارفها، يخرج أشياءه ويعكف على صنعته، والطفلان يلعبان بالتراب وفلة ساكنة تنوشها الهواجس، تتأمل يديه الدءوبتين وتناوله الأدوات. وتقرفص حول المعلم بضعة زبائن، واستبشر خيرًا، لكن الريفيين فقراء، وهم يخافون من الوقوع فى حبائل أبناء المدينة، يبتسم المعلم حزينا يائسا، وزوجته ترقبه صامتة، تراه يخفض الثمن مرة ومرة، ويقنع بما يصيب من رزق، أكلوا ما قدمه لهم الريفيون من خبز وخيارات مملحة، وناموا حيث أمسى عليهم المساء وإذا جاء الخفير في الليل قال له:

ـ إنني رجل صناعته الشماسي، أضرب في القرى وراء الرزق.

وقدم له سيجارة، يجلس إليه الخفير، يدخن السيجارة شاكرًا، يتسامران قليلا ثم يمضي لحاله، هكذا قرية بعد أخرى، رويدًا.. رويدًا يتسلل الخوف إلى عظام المعلم عوض الله، ودون كلمة ينتقل

منه الخوف إلى زوجته فلة، ويزيد عمق صمت الأطفال وتحديقهم المتسائل فى الوالدين، فماذا بعد؟ اليوم يدفع اليوم، والرزق كفاف، ماذا بعد؟ تصبح رحابة الآفاق مخيفة، يتلفت الرجل حواليه ويهتف من أعماق قلبه صامتا:

ـ يا يسوع المسيح.. يا بن الله وكأنما تسمع فلة دعاء قلبه الذي لم تهمس به شفتاه، تتمتم هي الأخرى:

ـ يا يسوع.. يا بن الله.

ثم يواصلون السير حتى يروا على البعد محلة الجياد ويعجب هذا الشارع اللطيف المعلم عوض الله، يميل، يحطون، يسند ظهره إلى شجرة. يخرج أشياءه ينشرها، ويبدأ يعكف على صنعته، حتى توشك الشمس أن تغيب ولا يميل عليه زبون واحد، حتى أقبل علي أفندي.

ـ صنعتك الشماسي إذن يا معلم؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ القبط صناع لا يبارون.

ويبتسم المعلم عوض الله حذرا وتلملم فلة ثوبها، يقول عوض الله:

ـ في الكار مسلمون كثيرون وكلهم حسنو الصنعة.

ثم يردف.

ـ وهي أرزاق مقسومة.

يؤمن علي أفندي.

ـ نعم.. نعم.. وأنتم تقيمون في طنطا على ما يبدو؟

ويعجز عوض الله عن كبح فيض قلبه، فهو متعب وجائع.

ـ كنا، ولكن تأخرنا في دفع الإيجار كثيرا.. وصاحبة البيت.. وقاطعه علي أفندي دهشا.

ـ ما اسمها؟

ـ الست جبونة.

ـ قبحها الله.

وذعر عوض الله مما سببه من سوء فهم.

ـ إنها..

يقاطع علي أفندي منفعلا:

ـ لكن أن تلقي بكم في الشارع هكذا.

ثم يهب واقفا في نوبة شهامة:

ـ تعال يا رجل أنت وعيالك إلى داري ضيفا مكرما حتى يصبح الله الصباح!

ويتبادل عوض الله وفلة نظرة يائسة، يتداخلان في نفسيهما، يرفع عوض الله إلى علي أفندي وجها متضرعا:

ـ أعفني بالله عليك، لا نحب أن نثقل عليكم!

لكن همة علي أفندي مجتاحة لا يقف في وجهها شيء.

ـ اجمع يا رجل أشياءك وقم، ما يحصِّل الإنسان من دنياه هذه إلا أن يكرم ضيفا، اجمع أشياءك وقم، قبح الله هذه الجبونة!

ثم يميل على فلة الجامدة الصموت.

ـ وأنت يا سيدتي، قومي، إن الدنيا ما زالت بخير!

ثم يأخذ لوزة وعطية كل طفل في يد ويمضي بهما، ويعجز المعلم عوض الله عن التصدي لإرادة علي أفندي وهو المتعب الجائع، يمشي خلفه حاملا خُرجه، وعلي أفندي في جلبابه الأبيض السابغ يمشي الهوينى يحيي كل الناس ويضاحكهم ويسألهم، حتى ينتهي بموكبه الظافر إلى الدار. يدفع الباب داخلا بالطفلين ووراءه ضيوفه، يزعق مناديا.

ـ يا ولاد.. يا ولاد!

وتخرج إليه زوجته ووراءها البنات دهشات، يقول باشًّا:

ـ لقد أكرمنا الله بضيوف، ناس طيبين، ألقتهم صاحبة البيت المسماة بـ«جبونة» إلى عرض الطريق دون رحمة!

تنظر زوجته للضيوف صامتة ثم تهمس:

ـ أهلا وسهلا.

وتحل لحظة جمود والناس جميعًا واقفون لا يدرون ما يفعلون، ويأخذ علي أفندي المبادرة، يكلم زوجته آمرًا مسيطرًا:

ـ تعرفين تلك الغرفة القصية، عليك بتنظيفها جيدًا، افرشي فيها حصيرًا وضعي فيها حرامًا ومخدات، وضعي فيها مصباحًا حسنا

وقلة ماء ووعاءً للبول من أجل الأطفال.. هل ينبغي أن أعدد كل شيء ليتم عمله؟

قالت الزوجة صاغرة:

ـ سنفعل.

وواصل علي أفندي حديثه الآمر:

ـ وضعي لهم عشاءهم في الغرفة، إنهم قوم على حياء عظيم، ولو أكلوا معنا صرفهم عن الطعام الخجل منا!

وقالت الزوجة:

ـ حاضر.

وما إن أغلق باب الغرفة عليهم حتى أحس عوض الله أنه يسقط في جب، تيبست أعضاؤه من الخوف، وفلة شاحبة جاحظة العينين، إنها تجربة كابوسية، كيف أسلمه اليوم لليوم الذي بعده حتى هذه الساعة العجيبة، كيف جلب بحماقته الشتم على الست جبونة، لقد كانت طيبة وصدوقة ولم تؤذهم، تقول فلة في صوت مرتعش:

ـ ليتنا نخرج من هنا!

ويهمس عوض الله.

ـ كيف؟

لوزة تتضرع:

ـ أنا جوعانة!

تكسر فلة لقمة في صحن وتكب عليها ملوخية، تكاد تقيء أمعاءها من فرط دسامة الطبيخ وعوض الله يقول لها خائفا:

ـ لا بد أن نأكل شيئًا أيضًا.. لا بد أن نأكل!

* * *

... عبد العزيز يعرف الأخ طلعت، رآه للمرة الأولى في الفصل في مدرسة طنطا الثانوية، وربما كان هذا هو الدرس الأول بالنسبة لـ«طلعت» في هذه المدرسة، وكان المدرس شرسا عنيفا، ألقى على طلعت سؤالا، ووقف هذا ليجيب، هائل الطول عريض الكتفين، يتأتئ ولا يفتح الله عليه بشيء، وربما لأن طلعت على هذا القدر من الضخامة استشاط المدرس غضبا وصفعه صفعة هائلة على وجهه، ارتعب عبد العزيز، ينظر لوجه طلعت وبسطة كف المدرس مرسومة حمراء على صدغه، يخيل لـ«عبد العزيز» أن قوة الضربة بعجت وجه طلعت فجعلته مبططا بشكل شاذ وهو يقف هكذا متدلي الفك جاحظ العينين، لكن عبد العزيز عرف فيما بعد أن طلعت خلقته هكذا، رأسه مبططة كأنها قرص قائم بين كتفيه، وعرف كذلك أنه مصاب باعوجاج في الحاجز الأنفي ويتنفس من فمه دائمًا، وربما يغير هذا طعم ريقه أو يجفف حلقه فتراه دائمًا يمصمص فمه بصوت مسموع، ولحم أسنانه يدمي بلا انقطاع ويجعل هذا ابتسامته مقززة، لكنه طيب وفيه شيء من البلاهة، يتلفت مستطلعا تعبيرات وجوه من حوله في تهيب ومداهنة، تعرف عليه عبد العزيز في حلقات الإخوان المسلمين، وعرف أنه من محلة الجياد، فرح بهذا وسأله:

ـ هل تعرف علي أفندي بالمجلس القروي؟

قال طلعت مبتسما:

ـ أعرفه.. اسأله عني.. قل له إن كان يعرف طلعت مشرقي.

سأله عبد العزيز:

ـ هل أنت من أسرة مشرقي؟

ابتسم تلك الابتسامة وهمهم بما يعني الموافقة، وحينما قابل عبد العزيز العم علي أفندي بعد ذلك سأله عن طلعت مشرقي، دهش العم ولوى شفتيه مشمئزًّا.

ـ رزيل منه أن يحاول الانتساب إلى أسرة مشرقي، وما سمي أبوه مشرقيا إلا زلفى إليها، وهو من عائلة أبو هبة الصغيرة الهزيلة، والأب مدرس قليل الشأن في المدرسة الإلزامية.

دهش عبد العزيز جدًّا لهذه الأحوال، لكنه قال في نفسه إنه لا يعيب المرء انتسابه إلى أسرة صغيرة فقيرة، إنما المرء بما قدمت يداه، والأخ طلعت من أنشط الشبان الإخوان بالمدرسة، وقد ارتضاه الجميع مندوبا وزكته الشعبة بعد أن حصل المندوب القديم على التوجيهية وذهب إلى الجامعة، وكان لـ«طلعت» أخ أزهري سمين شاحب يأتي من القاهرة يحمل حافظة أوراق ضخمة ويبدو متعبا زائغ النظرات، ويقابله إخوان طنطا بالأحضان، وحينما يقف خطيبا يتوقد ويتدفق في بيان يذهل الناس عن أنفسهم وطلعت يرقبه من بعيد مبتسما فرحا، هكذا كان، وكان عبد العزيز لا يهمل أبدا أن يرى طلعت فى زياراته لـ«محلة الجياد»، حتى بعد أن التحقا كلاهما بالجامعة وفترت علاقة عبد العزيز بالإخوان حتى انتهت تمامًا، كان يسأل عن طلعت في محلة

الجياد ويراه ذا نشاط كبير وأن اسمه على كل لسان، يجوب البلدة ليل نهار منشغلا بأمور الإخوان.

وقد عرف عبد العزيز فيما بعد أن طلعت الذي يجد لديه دائمًا وقتا للناس رغم مشاغله العديدة قابل علي أفندي الذي كان عائدا ذات مساء من ليلة الحضرة مع إخوان الطريقة في بيت الشيخ سيد الحصري، حيا طلعت عم علي أفندي:

ـ السلام عليكم يا علي أفندي ورحمة الله.

ـ عليك السلام يا أستاذ طلعت ورحمة الله وبركاته وألف مساء الخير.

ـ أود لو تناديني بالأخ فهذا أقرب للقلب.

ـ أنت أخونا وأستاذنا.

ـ أستغفر الله وأشكرك.. نود أن نراك مرة في الشعبة.

ـ الشعبة في قلوبنا جميعا.. لكننا معشر نؤثر الاجتماع حول دلائل الخيرات وبردة الأباصيري.

ـ قرآن الله أولى وأنفع.

ـ كل كلمة طيبة فيها نفس من أنفاس الله يا أخ طلعت.

ـ حتى هلوسة الدراويش؟

ـ هؤلاء خدام أولياء الله وعترة رسوله.

ـ المؤمنون أولياء الله.. لا عبرة بنسب.. ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى.

ـ إنني من أهل بيت غاية شرفهم تمريغ الجباه في أعتاب عترة رسول الله.

ـ هذه وثنية.

ورد عليه علي أفندي متغنيا متمايلا مع الإيقاع:

أمر على الديار ديار ليلى — أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي — ولكن حب من سكن الديارا

ورد طلعت بشكل تعليمي:

ـ يا علي أفندي اقرأ قرآنا.

وأبى عليه علي أفندي هذا الأسلوب التعليمي.

ـ يا أستاذ طلعت إنني أملأ قلبي حبا.

وعاد طلعت مداهنا:

ـ إننا نأمل فيك دائما يا علي أفندي.

ورد علي أفندي متسامحا طيبا.

ـ وأنا والله أحمل لك إعزازا يا أخ طلعت.

ـ أعزك الله.

ـ وبالمناسبة كنت أريد أن أحدثك عن رجل طيب، صانع شماسي مسيحي، كان يقيم في طنطا، وطردته من بيتها مالكة البيت المسيحية، طردته شر طردة وشردته هو وأولاده، وأنا التقطتهم من الطريق وأخذتهم إلى داري، وأحب أن تولى الشعبة أمره اهتماما.

ـ هذا عجيب.

ـ كان أولاده الصغار شاحبين من الجوع.

ـ لا بد من الاهتمام بأمره.. علينا أن نبر بأهل الذمة.. ونستألف قلوبهم للإسلام.

سأمر عليك في المجلس وسنرى ما يكون.

ـ سأتحفك بكوب طيب من الكركديه.

ـ حسن.. فإنني لا أدخن ولا أشرب شايا ولا قهوة.

* * *

... صحا مشرقي بك عمدة محلة الجياد من نومه عند الظهر، عيناه متورمتان ومزاجه منحرف، قالت له فاطمة بنت أبي عساكر الخادمة الجديدة إن الحمام جاهز، لبس قبقابه ومشى يطرقع على بلاط الدور الثاني في المنزل الكبير، جلباب النوم الأبيض الخفيف يبدي عري جسده، ويخلي برودة الصالة تخفف أنفاس هذا الجسد الحارة، دفق الماء الساخن على نفسه مستمتعا، غسل نفسه بالصابون عدة مرات وأعاد كب الماء الدافئ، وتفكر فى البنت فاطمة بنت أبي عساكر، نهداها متكوران رائعان. كانت تخدم عند قاهريين ذوي يسار، وعليه فهي نظيفة من ذلك القشف الريفي، مغسولة من تلك الغبرة الترابية، داعب أعضاءه التناسلية فرحا، واستبشر بأنه سيملأ كفيه من تكور نهديها، وأنه سوف يدخلها في فراشه، وأنهما سوف يلبطان عريانين تحت اللحاف في السرير النحاسي الكبير، أما زوجته عليها اللعنة فهي لصلاتها وتسابيحها، قد نفته من حياتها إلى الدور العلوي منذ سنين، لا

تصعد إليه أبدًا، وتترك أموره للخادمات، كل الأمور. ضحك ممرورا وهو يجفف نفسه. وذهب إلى الشرفة حيث الإفطار يعد على طاولة صغيرة، جلس يغمس القشدة بالعسل على لقم كبيرة طرية وينظر إلى البنت فاطمة وهي تملأ الكوب من القلة الموضوعة على سور الشرفة وتأتيه به وتنصرف، ذراعان طريان ناصعان، زحم معدته أكلا وشرب حتى ارتوى، أتته البنت بكنكة القهوة، رفعت صينية الطعام ومشت، يتأمل تكور ردفها وعلامة سروالها تحت ثوبها الخفيف، ذلك ميسم المدينة الغريب على الجلافة الريفية، أتوا بها ليزوجوها، أي حمار من محلة الحمر هذه جدير بهذه الناعمة اللطيفة؟! رشف آخر ما في فنجانه من قهوة، قام وئيدا، يعرف أنها الآن ترتب غرفة نومه، يمضي في الصالة إلى الغرفة، أنفاسه مسرعة وسعار الشهوة يخرجه عن صوابه، أغلق باب الغرفة وراءه وأقبل على البنت وقفت مكانها ذاهلة، زنقها في السرير بثقل جسده ويداه تجوسان تحت ثوبها في نعومة ظهرها، أزاح الثوب إلى أعلى ومرغ وجهه فى أثدائها، أنزل سروالها وفتح فخذيها عنوة، أخرج ذكره من سرواله، لم يكن منتصبا بما يكفي، حكه في فرجها يائسا دون جدوى، بقوة مفاجئة انفلتت البنت منه وولت هاربة، وقف مذهولا يلهث مليئا بالاحتقار لنفسه، عدل ثوبه وتحرك خارجا، ستحكي البنت للحاجة دون شك، وسوف تقرعه الحاجة وتهينه وسوف يقف أمامها ذليلاً. نزل إلى دوار العمودية، وقف سعداوي الخادم لدخوله، في الراديو صوت مصطفى إسماعيل يرتل: ﴿... فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ...﴾ صاح العمدة ساخطا.

ـ هــــراء!!

وأغلق الراديو بعصبية وهو يتمتم منفعلا:

ـ أي رجل هذا الذي تقضي عليه وكزة؟

وجلس على كرسي كبير متكئا، سعداوي القهوجي يقف ذليلاً خائفًا، نظر إليه العمدة قليلا ثم قال بمرارة.

ـ تقف كالصنم.. يلعن أبوك.. اعمل قهوة.

انطلق الولد كالسهم، والعمدة جمد في مكانه قليلا ثم قام إلى غرفة مكتبه، معتمة رائحتها تراب، مشى في ظلامها إلى الدولاب، أخرج زجاجة كونياك، ملأ غطاءها ثلاث مرات وأفرغه فى جوفه، أعاد الزجاجة إلى الدولاب وعاد إلى كرسيه الكبير، يجلس ساهما، يخلي بين الخمر وبين سككها في جسده، جاءت فاطمة إليه تحمل منديلا مطبقًا.

ـ اتفضل يا سيدي.

رفع بصره إليها، في عينيها حنان، امتلأ إشفاقا على نفسه صاح بها.

ـ روحي في داهية.

وود لو أنها لا تمشي، لكنها انصرفت هادئة، وسعداوي جر طاولة صغيرة ووضع عليها القهوة بجوار العمدة ومشى بسرعة، بدأ العمدة يشرب قهوته، من بعيد قال سعداوي محاذرا.

ـ الأستاذ طلعت أبو هبة وعلي أفندي كاتب المجلس القروي.

قال العمدة ببطء دون أن يرفع عينيه:

ـ يتفضلوا.

ملأ دخولها جو الغرفة الراكد صخبا، أعطاها العمدة من جلوس يدًا رخوة، أحس بالتضاؤل أمام كيانها الفارعين وصخبها الشديد، قال طلعت:

ـ الشعبة تتقدم كل يوم بفضل مساندة العمدة.

غمغم العمدة.

ـ متشكر.

ولوح علي أفندي كأنه يقف على مسرح:

ـ أشهد الله، وأنا الغريب عن هذا البلد، أن أيادي العمدة عليها لا تنكر، هذا حديثنا في المجلس أنا ونيازي أفندي، لا نمل من ترديده! كان العمدة يتسلل بعينه ناحية الباب لعل فاطمة بنت أبي عساكر تظهر مرة أخرى، اكتشف فجأة أن علي أفندي فرغ من كلامه، هز رأسه قائلا:

ـ متشكر.

وتدخل طلعت بسرعة:

ـ يا علي أفندي أنت لست غريبا، أنت واحد منا.

وتدارك العمدة قائلا:

ـ طبعًا.

واصل علي أفندي إلقاءه المسرحي:

ـ هذا والله عشمي، وهذا ما جرأني اليوم على أن أصحب الأستاذ طلعت إليكم راجين عطفكم على رجل مسيحي صانع شماسي ألقته صاحبة البيت التي من دينه في عرض الطريق دون رحمة!

قال العمدة في نفسه: «ها هي الحكاية تجيئني على رجليها وقد كان نقل إليَّ سعداوي نبأها منذ البدء». ثم التفت إلى طلعت الذي تناول الخيط:

ـ ولقد اهتمت الشعبة بالرجل، فالمسلمون مأمورون بالحدب على أهل الذمة وأن يستألفوا قلوبهم للإسلام، وعليه فقد قمنا بحركة شاملة تهدف إلى حض الناس على إصلاح شماسيهم عند الرجل أو شراء شماسي جديدة منه، وتولينا تحديد الأسعار فلا وكس ولا شطط، وإلى جانب هذا حركة شاملة لجمع التبرعات من النقود أو الملابس وإحصائها وتصنيفها وتسليمها له، المهم أن القضية الآن هي شغلنا الشاغل، وهي مثار اهتمام البلدة جميعها.

وتوقف طلعت عن الكلام لاهثا، وعلي أفندي ينظر له معجبا، والعمدة ينظر شاردا وحلت لحظة صمت، وقال العمدة في نفسه: «قبطي صانع شماسي.. رجل من أهل الذمة يراد تأليف قلبه للإسلام.. الشعبة والمجلس القروي والبلدة جميعا.. أي فأر سقط من السقف.. يلهون به حتى ينفث الدم من أنفه.. أو يلبسونه رداء الجوالة ويسوقونه عاري الركبتين.. هاتفا الله أكبر». قطع علي أفندي الصمت.

ـ الشاهد يا حضرة العمدة أن الرجل يقيم عندي، لا أملُّ ضيافته ولو أقام في بيتي دهرًا، إنما أخشى عليه الحرج أن يكربه، وعليه فقد

ارتأينا أنه لو اختص بسكن صغير لكان أفضل، وفكرنا أن دار فكيهة بنت طراوة ربما كانت أكثر الأشياء ملاءمة.

وأكمل طلعت:

- فهي صغيرة ولطيفة.. وهي إلى ذلك قريبة من المسجد والشعبة!

تساءل العمدة بسخرية غير خافية:

ـ المسجد والشعبة؟!

تدارك علي أفندي:

ـ الأستاذ طلعت يعني هذين كمكانين يهوي إليهما الناس.. والصانع يجب أن يكون حيث يكون الجمهور!

وقال طلعت:

ـ هذا ما أردت.

وهذه الدار ماتت عنها صاحبتها وليس لها أقارب وارثون، حرر العمدة محضر جرد تركة وأرسله للمحكمة الشرعية فاعتبرت الدار ملكا للخزانة الأميرية، وعلى يد المحضر بيعت بيعا علنيا لم يدخله غير العمدة فرست عليه كدور كثيرة أخرى بدراهم معدودات. قال العمدة:

ـ يا سعداوي.. قل لـ«مختار» الخفير أن يعطيهم مفتاح دار فكيهة بنت طراوة، وقل للشيخ حسن عامل التليفون أن يحرر باسم علي أفندي عقد إيجار بثلاثين قرشا شهريا، ومخالصة عن إيجار ثلاثة أشهر.

تشكر الاثنان للعمدة وخرجا وهو ينظر في أعقابهما بمقت شديد ويتمتم:

ـ الناس لا تطيق المخالف.. ولو كان واحدًا في أربعين ألفا.. هذا رهيب!

ثم عراه الحزن وهو ينظر إلى فتحة الباب يتمنى لو تظهر فاطمة بنت أبي عساكر.

* * *

... المعلم عوض الله لا ينام الليل، ينتابه شيء كالإغماء وتهجم عليه الكوابيس والأحلام المرعبة، يفتح عينيه مما يشبه الموت ثم يعود يغمضها، ولا يكاد النور يبص من الشباك حتى يقوم، يسحب خرجه، يتلفت حواليه محاذرًا وينكب فورًا على عمله، وتنهض فلة، تجلس في مكان رقادها تلملم ملابسها السوداء تحبكها على أقدامها وعلى رأسها، ترامق زوجها من تحت أجفانها بنظرات مشفقة، إنه يزداد هزالا كل يوم، ويزداد وجهه امتقاعًا وتتسع مقلتا عينيه، تراه فلة الآن، تعرف هزاله تحت جلبابه وفي أكمامه وتضوي كمدًا، والمعلم يخيط القماش في أطراف سلوك الشماسي ولا يرفع عينه تجاه فلة، ولكنه يعرف نظراتها له، تهدهده، يبكي قلبه، عشرة طويلة من يوم أن رآها وهو جالس قدام دار أبيها شماس الكنيسة في كفر سليمان يوسف مركز ميت غمر، كان بعد شابا وكان أبوه قد أقعده المرض، قال له:

ـ لقد أصبحت يا بني حسن البصيرة عارف اليد، وأنا تعبت، احمل الخرج وعلق الشماسي في ذراعك كصانع حق واذهب لزبائني، بذلك تقر عيني!

وعدد له البلاد، من بينها كفر سليمان يوسف، هناك جلس قدام باب الشماس ورآها، ومنذ ذلك اليوم كان يخرج حاملا خرجه من بيتهم بعزبة غالي في ميت غمر وهو لا يرى أمامه غيرها، يدور بالزبائن ويعود وليس في فكره غيرها، منذ سنين طويلة، لا يرفع عينه لها ويعرف أنها تنظر له، لا يحكي لها ويعرف أنها تحمل معه هموم قلبه، وحينما ضاق عليهم الرزق في ميت غمر ودعوا الناس وذهبوا إلى طنطا، ثم عاد الرزق يضيق وعادت الهجرة، لكن ما هم فيه الآن شيء غريب لم يحسب له أبدًا حسابا، وتذكر وجه أبيه على فراش الموت، وتذكر وجه الست جبونة وصوتها الخفيض وملأه القهر، همس:

ـ يا يسوع المسيح.. يا بن الله.. خلصنا.

ويطرق علي أفندي باب الغرفة ويدخل صاخبًا:

ـ صباح الخير يا معلم، هكذا تنحني على عملك قبل أن تصحو الطيور، تلكم هي البركة، هكذا نقول عندنا، لقد صليت الفجر أنا والشيخ سيد الحصري، وشربت القهوة، لو أني أعلم أنك صاح لشربناها معا، لكن البن لم ينفد بعد، وقهاو كثيرة سوف نشربها معًا.

ولم يكن عوض الله يدري ماذا يقول إزاء تدفق علي أفندي، كان يردد (حاضر.. نعم.. آه.. طيب) بشكل آلي دون أن يدرك ظهر المسألة من بطنها، لكن الطفلين تململا على الحصير وانفجرا في البكاء، وبدأت فلة تعنى بهما، وسأل علي أفندي عما بهما، وفلة قالت أن لا شيء، لكنه اقترب بعينه الخبيرة ووجد جسدي الطفلين مليئين بالدمامل وفلة تحاول أن تخفي الأمر، قال لها بصوت عال كأنه على مسرح:

ـ لا تخافي أبدًا، دعيني أجسهما بيدي، أنا معتاد على الأطفال جدًّا،

دارنا في البلد فيها من العيال أكثر مما فيها من الدجاج والبط والخراف والمعيز والعجول، لا يجد الإنسان في فناء الدار موقعا لقدمه من تزاحم هذه الأجناس جميعها، أنا معتاد على الأطفال قبل أن أتزوج وبعد ذلك، لا تخافي، دعيني أرى، ها ها..، عندي لذلك دواء ناجع.

وقام أحضر أنبوبة مرهم ودهن الدمامل جميعها، والعيال ينزون بكاءً لا ينقطع، فجأة يصمتون ويتلفتون، يتلفت عوض الله وفلة، وعلي أفندي، ففي فناء البيت يسمع وقع خطوات قوية وحاسمة كأنها لفرقة من العسكر، يطرق الباب ويدخل الأخ طلعت ومعه رهط من شباب الإخوان المسلمين، جدعان فارعون، غلاظ الأكتاف والرقاب، على جباههم علامة الصلاة مسودة متربة، وفي أيديهم كراسات الإخوان، جلابيبهم نظيفة، وأقدامهم لامعة في المداسات، يتنادون بحضور وترابط وطاعة، وينظرون إلى عوض الله وفلة بدهشة وفرح، يتكلم الأخ طلعت:

ـ دار فكيهة بنت طراوة الآن على أتم الاستعداد بعد أن عمل الإخوان في ذلك أياما طويلة، جاءوا الآن لننقل الأخ عوض الله إليها.

ويقول علي أفندي آسفا:

ـ كان بودي أن يبقى عوض الله معنا أبدًا.

ولا يفهم عوض الله شيئًا ولا يحير جوابا، وينقض الشبان على الأشياء يحتملونها، وبشكل تلقائي ودون تفكير أو فهم يجمع عوض الله عدة شغله يضعها في الخرج، يقول علي أفندي:

ـ هذه الحصير وهذا الفرش وكل ما في هذه الغرفة من آلة إنما هي للأخ عوض الله خالصة.

ولا يدري عوض ما ينبغي أن يقال، يتصدى طلعت:

ـ نشكرك باسم الإخوان المسلمين يا علي أفندي.

ويخرجون حاملين الأشياء وبينهم المعلم على كتفه خرجه، وفلة تحمل الصرة على رأسها وفي يديها طفلاها، علي أفندي ينظر في أعقاب الموكب وعطية يبكي:

ـ إلى أين يأخذون عمي عوض الله يا بابا؟

ويطمئنه علي أفندي:

ـ إلى دار جديدة يا بني.

المعلم عوض الله يحاول أن يساوق خطو الحراس الفارعين، يحاول أن يثبت ولاءه، فلة والطفلان، الوجوه الثلاثة الصفراء المريضة لا ترى من الدنيا إلا هذا الذي يمشي أمامهم الآن يكاد يسقط إعياءً. الأخ طلعت على رأس مجموعة الإخوان الشبان يمشون يدكون الأرض، يجهرون بالسلام في حسم عسكري آمر، ويتلقون ردودًا واضحة وقوية، وعلى أبواب الدور نساء يتراجعن أن يدلقن الماء أمام الأبواب ويتريثن حتى يمر الموكب وهن مشدوهات يرقبن في عجب، ويحكم الرجال قبضاتهم على مقاود البهائم ويرقبون الموكب في إقرار مبتهج صموت، ثمة روح قوية عارمة راضية تنتظم القلوب، وإذا يقرئ الأخ طلعت الناس السلام فإنما هو يختبر هذه الروح ويحصل في الحال على إقرار واضح قوي، يمضي في طريقه بلا تردد.

ـ اتفضلوا.

دخل المعلم الدار، وعاد يقف في الفناء صامتا لا يدري ماذا يفعل، وإلى جواره فلة وفي يديها طفلاهما، وضع الإخوان ما في أيديهم من متاع وتحلقوا في نصف دائرة حول المعلم، قال طلعت مخاطبا عوض الله وفلة.

ـ تلك هي داركم الجديدة، نرجو أن يبارك الله لكم فيها، الآن سوف نمضي ونترككم في حالكم، لكننا قبل أن نمضي نقدم لكم باسم الإخوان المسلمين في محلة الجياد هدية، ألا وهي كتاب الله.. أرجو أن تتقبلوها بقبول حسن.

وقدم طلعت مصحفا منشورا، بسط عوض الله كفيه وتناوله منشورًا كما هو، أشار طلعت بأصبعه على موضع.

ـ نرجو أن تقرأ هذا أول ما تقرأ.

قال عوض الله:

ـ أقرؤه.. أقرؤه.

وتقدم أخ آخر ملهوج منفعل ووضع في طاقة الحائط كتبًا.

ـ وهذه أيضًا مذكرات الداعية الأول لـ«الإخوان المسلمين»، من هنا نعلم للأستاذ الغزالي.. وبضع استمارات محاسبة!

وسلموا منصرفين والمعلم واقف كما هو والمصحف منشور على بسطة كفيه، ومن فرط الإعياء سقط على المصطبة خلفه جالسا، أغمض عينه لثوان، والوجوه الثلاثة ترقبه في صمت، همست فلة:

ـ لنخرج يا معلم.. لنخرج من هنا.

وقال لها:

ـ لقد فات الأوان يا فلة.. فات الأوان.

ثم فتح عينه ونظر في الموضع الذي أشار إليه طلعت في المصحف المنشور على حجره، الكتابة غريبة عليه، يقرأ بعسر ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ . ولم يستطع المعلم أن يقرأ أكثر، ألقى برأسه على الحائط خلفه وانهمرت دموعه وهو يتمتم:

ـ يا يسوع المسيح.. يا بن الله.. تمجد اسمك.

كانت صياغة النص أكثر مما يطيق.. أكثر مما يطيق.

* * *

الطعام عند العم علي أفندي دائمًا طيب، شبع عبد العزيز من البيض المقلي في السمن ومن الفول والآن يغمس لقما كبيرة في العسل الأبيض والقشدة ويمضغها بشهية واستمتاع عظيم، والدار هكذا نظيفة وعليها نداوة الصبح، وهم يجلسون في الفناء على طاولة، أما زوجة العم والبنات فيفترشن الحصير ويجلسن إلى طبلية، وعلى رف في الحائط مذياع، والشيخ مصطفى إسماعيل يرتل قرآن الصبح وينشر جوا احتفاليا، عبد العزيز يأكل بمتعة، وعطية يقول لعم علي أفندي:

ـ الطاولة للرجال والطبلية للنساء، أليس كذلك يا بابا؟

ويرد عم علي أفندي مترنما:

ـ نعم.. نعم.. نعم.

ويواصل عطية:

ـ نحن رجال، أليس كذلك يا بابا؟

يضحك عبد العزيز وتضحك البنات الجالسات على الأرض. يترنم عم علي أفندي:

ـ نعم.. نعم.. نعم.

ـ وأنا أيضًا رجل، أليس كذلك يا بابا؟

ويغرق عبد العزيز في الضحك وكذلك البنات على الأرض، ويقول عم علي أفندي بلهجة مسرحية بينها الزوجة جامدة الوجه:

ـ أنت رجل عظيم يا عطية.

ثم يقول جادا:

ـ سنشرب الشاي ونشرع لشأننا، أمامنا اليوم عمل كثير.

ثم التفت إلى عبد العزيز:

ـ سأعود من طنطا قبل العصر.

قال عبد العزيز:

ـ سأجيء معك.

ـ لا بأس.

مشيا في الحارة حتى دار فكيهة بنت طراوة، دفع عم علي أفندي الباب داخلا وعبد العزيز وراءه ينظر من فوق كتفه، الدار حافلة بشباب الإخوان، المعلم في الوسط ممتقع الوجه شديد النحول جاحظ العينين، أفسح الإخوان للقادمين، سلم علي أفندي مهللا:

ـ السلام عليكم يا شيخ عوض الله يا مهدي.

ورد المعلم زائغ العينين:

ـ عليكم السلام.

أقبل طلعت على عبد العزيز ينبهه من شروده ويسلم عليه، تبادلا مصافحة حارة، لكن عبد العزيز شارد منشغل الفكر يسأل طلعت:

ـ كيف حال الشعبة؟

ويرد طلعت متحمسا:

ـ في خير حال، وأنا الآن الوكيل، وأقوم بعون الله بمعظم النشاط.

قال عبد العزيز:

ـ آه.

وضحكت أسارير طلعت:

ـ اليوم نشهر إسلامه في المحكمة الشرعية.

ـ سمعت الحكاية.

ثم يقول عبد العزيز مترددًا:

ـ لكنه يبدو مريضا، أليس كذلك؟ شديد الشحوب!

وابتسم طلعت:

ـ لقد أضاء الإيمان وجهه.

قال عبد العزيز:

ـ أحقا..؟ إن هذا عجيب.

ومضى الموكب خارجا، لمح عبد العزيز الزوجة واقفة في ركن قصي وكذلك الطفلان، الوجوه الثلاثة شاحبة تحدق في رعب، انقبض قلبه، خرجوا إلى الحارة، ما زالت نداوة الصبح لم يفتك بها ارتفاع الشمس، والموكب يمضي على رأسه المعلم بين طلعت وعم علي أفندي وخلفهم الجميع يقرئون الناس السلام بعزم والناس تصخب بالرد، بعضهم يأخذه الحماس يندفع مسلما على المعلم ثم يهتف:

ـ الله أكبر.

وبعضهم يضمه معانقا ويخبطه على كتفه بقوة، وبعض النساء يقبلن يده ويطلبن منه الدعاء والمعلم يسلم يده مطاوعا ويتمتم بما لا يسمع وعبد العزيز لا يرفع عينه عنه أبدًا، ويبدو أن اليوم سوق، فكل آن يصادفون ناسا يذبحون عجلا أو شاة والذبيحة تنحر وترفس ويتدفق من حلقها الدم، والبعض قد بكر بالذبح وعلق ذبيحته على القصبة والبعض ما زال ينفخ ذبيحته ويضرب جسمها بالعصى، وكل الحلقات حول الذبائح صاخبة زائطة فرحة، والموكب يخلص من البلد وينتظم في الشارع الصاعد إلى المحطة وما زال في أذني عبد العزيز

صخب الناس، والعصي التى تضرب أجساد الذبائح المنفوخة. ركبوا القطار، المعلم بين طلعت وعم علي أفندي، عبد العزيز بعيد لكنه لا يحول بصره عن الرجل، تنبه أنه إلى جوار شاب من الإخوان متوقد الوجه حماسا، نظر إليه بفتور، لقد بدأ الطعام الذي أسرف فى تناوله في الإفطار يكبس على نفسه، وبدأت بطنه تحمض وتزحمه الغازات، كلمه الشاب:

ـ الأخ..؟

ـ عبد العزيز.

ـ أنت من الإخوان طبعا؟

ـ كنت زمنا.

ـ ولماذا كففت؟

ـ ربما ينقصني التوفيق.

ـ الإنسان يسعى إلى الله، ولا يطلب من الله أن يسعى له.

ـ معك حق.

ـ هل قرأت هذا؟

وأشار إلى كتاب مما في يده.

ـ ليس بعد.. وهو عندي من زمن.

ـ هل تملأ استمارت المحاسبة قبل النوم؟

ـ أقول لك الحق.. لا.

ـ هذا عجيب، لا يواتيني النوم إلا إذا نظرت في يومي وقيدت ذنوبي في الاستمارة ثم استغفرت الله عنها، عندئذ يمكنني أن أنام.

ـ أنا علي أي حال لا أنام نوما جيدًا منذ زمن.

ـ عليك أن تتوب وتبدأ من جديد.

سكت عبد العزيز قليلا ثم سأل الأخ الشاب:

ـ هل ساهمت في هداية هذا الرجل إلى الإسلام؟

ـ كلنا شارك في هذا.

ـ هل كان الأمر شاقا؟

ـ إننا لم يغمض لنا جفن منذ حل الرجل ببلدنا وحتى هذا الصبح.

ـ هذا مثير.

ـ سنقيم بالمناسبة الهامة مؤتمرا دينيًا كبيرًا في البلد وسندعو إليه الأخ سعيد وكل الشُّعب المجاورة لنا.

ـ هذا عظيم.

ـ نعم يا أخي، الإسلام يتقدم، وذلك بفضل فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى.

ـ آه.. أما المزقون الحائرون فلا يتقدم بفضلهم شيء.

ـ ما هذا؟ لم أفهم شيئًا؟

ـ هذا خاطر أرجو أن تهمله، الآن نحن في طنطا.

من المحطة تحدر الموكب وسط أعداد من الريفيين بمتاعهم وأولادهم، يسرعون إلى شوارع المدينة القديمة الرثة، قبض عبد العزيز على يد علي أفندي وهو منقبض القلب.

ـ آن لي الآن أن أعود إلى البلد.

ـ يا أخي أنت لم تمض عندي سوى سواد الليل؟!

ـ أعرف ولكن فكرة الرواح تركبني.

ـ سبحان الله!

ـ اعذرني إنني ضائق النفس.

ـ هل أذاك عندي شيء؟

ـ أستغفر الله، عندك أجد راحة أكثر من بيت أبي.

ـ إذن؟

ـ هو تقلب مزاجي في الفترة الأخيرة.

ـ كما تشاء.

ـ أشكرك ولزوجة عمي.

ـ أستغفر الله، احمل سلامي لأعمامك وعماتك.

ـ يصل إن شاء الله، سأسلم على طلعت.

شد طلعت على يده قائلا:

ـ يؤسفني ألا تحضر احتفالنا.

ـ أنا أشد أسفا، ما باليد حيلة.

ثم قال:

ـ أريد أن أسلم على هذا الرجل.

ذهب إلى المعلم، إنه زائغ العينين لا يرى تقريبا، أخذ عبد العزيز يده في يده، دافئة معروقة، تأمل وجهه، أراد أن يقول شيئًا، اختنق واحتبست الكلمات في حلقه، هز اليد برفق ثم تركها رويدًا حتى لا تسقط، لوح لهم جميعًا ومضى في الزحام، لا يبصر تمامًا، لا يعي تمامًا، يترك نفسه تحمله تيارات الناس السائرين، يقول في نفسه: «إن هذا يجب أن يوقف.. إن هذا يجب أن يوقف» ويظل يضرب على غير هدى، يصيح في داخله: «إن عليَّ أن أتدخل وأن أوقف هذا بنفسي..!». ينظر في ساعته، لقد انقضت ثلاث ساعات منذ أن ترك الناس، ولا بد أن الأمر انتهى الآن تمامًا، أغمض عينيه وهز رأسه وهو يتحدث بصوت عال:

ـ ما أبشع أن نصل إلى المعرفة متأخرين، بعد أن تكون الأشياء قد فسدت وشاهت، ما أبشع هذا وما أمرَّ ندمي!!

* * *

... إن صبحي محمد ينتمي إلى أسرة تعسة تعيش في حارة المليجي المتفرعة من شارع طه الحكيم في طنطا، أبوه سكير شرس وإخوته مصابون بلين العظام، وكلهم معوجو السيقان مهشمو الأسنان لهم وجوه رجال هرمين وهم بعد أطفال، والأم سمينة شاحبة خائفة تقضي سحابة يومها تطبخ أو تغسل الثياب، وصبحي بجوارها،

شديد الوسامة أنثوي الوجه، شاحب ممتلئ، له شعر غزير أسود لامع، مدهون ومفروق ومصفف بعناية بالغة، وصبحي وديع خفيض الصوت يساعد أمه طول النهار في عمل البيت، وإذا لم يكن ثمة ما يساعدها فيه جلس إلى دفاتره وكتبه المدرسية لا يسمع له أحد صوتا، وهو في الفصل أيضًا هادئ سكوت، لكن المدرسين يعرفونه شديد الاجتهاد ومنظم في كل أموره، وكان صمته وشروده وشحوبه يجعل التلاميذ في مدرسة طنطا الثانوية على مبعدة منه، وكانت محافظته على ثيابه وشده تأنقه تجعل المسافة التي بينه وبين التلاميذ سياجا من المهابة. لم تكن الأمور الدينية شيئًا معروفا في بيتهم، بل لم يكن يجري لها ذكر على الإطلاق عندهم، وعليه فلم يخطر التدين لـ«صبحي» على بال، لكنه أعجب بجماعة الإخوان في المدرسة لجديتهم وتحابهم، ذهب إلى الأخ عثمان مندوب المدرسة وسأله. وكان هذا شابا وسيما أفلج جعد الشعر نبيل الجبين، قال له الأخ عثمان بهدوء وحنان:

ـ يا أخي، إن الله أنزل كتابًا، ونحن لا نريد إلا أن نحكِّم كتاب الله في أمور دنيانا كما نحكمه في أمور ديننا، يا أخي إن دنيانا ستكون أحسن.

لم يسمع صبحي قبل هذا كلمات أثرت فيه بهذا العمق، لم يبد على وجهه أي انفعال، كان هذا ترفا لم يعتده، لكن حياته وجدت التفسير والقالب والصورة، أخذ كتب الإخوان إلى البيت، وضعها وسط كتبه المدرسية، بدأ يقرؤها بهدوء ودأب، لم يكن يصلي في البيت حتى لا يتسبب في مشكلة من أي نوع، كان يخرج إلى المساجد في الأوقات التي لا تثير انتباه أحد ولا تجلب خلافا ولا حزنا لأمه، وإذا فاتته

بعض الفروض قال في نفسه إن الله يعرف ويغفر، كان يصلي كما قرأ وصف الصلاة في الكتب المدرسية بلا زخرفة أو احتفال. وحينما رأى الأخ سعيد للمرة الأولى يخطب في سرادق هائل في ميدان البلدية بـ«طنطا» فتن به، وسيم يضع على رأسه طاقية باكستانية فهو على علاقة قوية بدولة باكستان الإسلامية، يخطب يملك مشاعر الناس، يشتم تخليهم عن كتاب الله، يصف ذلك بشكل موجع، حتى إذا امتلأ الناس ندما حدثهم عن فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى، رهبان بالليل فرسان بالنهار، إذا قرئ القرآن اقشعرت جلودهم حتى إذا امتلأ الناس إذلالا طمأنهم أن باب التوبة ما زال مفتوحا وحثهم على سرعة الإياب إلى الله، وبعد الخطبة لم يكن صبحي يرى من الدنيا غير وجه الأخ سعيد، ذهب إلى بيته هادئًا ونام، بعد ذلك كان يشترى المجلة الشهرية التي يصدرها الأخ سعيد ويقرأ كل كلمة يكتبها في المجلة أو في غيرها، وحينما ذهب لزيارة أقاربه في القاهرة كان أول ما فعله في الصباح التالي أن ذهب إلى إدارة المجلة في شارع المنيل وطلب مقابلة الأخ الذي كان يسكن في الدور العلوي من نفس المبنى، بعد قليل سمح له بالدخول، كان الأخ سعيد يجلس إلى مكتبه لابسا الروب دي شامبر على جلباب أبيض وعلى وجهه وشعره آثار النوم جلس صبحي صامتا وحينما قال له الأخ سعيد بود (نعم يا أخي) حلت عقدة لسانه، تكلم عن مقالات سعيد التي قرأها وتكلم عن إعجابه الشديد بها، ابتسم له سعيد وآنسه وقال له (بارك الله فيك يا أخي) ثم قال له:

ـ سألقى الإخوان مساء اليوم إن شاء الله في الظاهر وسيسرنا أن نراك هناك يا أخ صبحي.

ومشى صبحي من عنده مطمئنا، وعارفا ما سيكون ربما للمرة الأولى في حياته. وفي اجتماع الظاهر كان الإخوان جالسين على الحصر بعد صلاة العشاء والأخ سعيد واقف بينهم يتكلم والكل منصتون حتى بعد منتصف الليل، وبعد الاجتماع لم يكن الأخ سعيد قد نسي صبحي.

قال له:

ـ أهلا يا أخ صبحي.

وصافحه وربت على كتفه، سلم على الإخوان الذين كانوا على الباب لوداعه ثم لوح لهم ومضى إلى عربته مشيرًا لـ«صبحي» أن يركب وجلس هو إلى عجلة القيادة وانطلقت عربته الصغيرة، يقود بمهارة وثقة ويبتسم وعلى جبينه الأسمر لمحة إرهاق ونبل، طارت العربة إلى مصر الجديدة، شوارع نظيفة واسعة قليلة العابرين حسنة الإضاءة، قاهرة لم يجر بها صبحي قبلا، صعدوا إلى عمارة لها باب زجاجي هائل ومصعد لامع والشقة شاسعة كقصر ورجال شديدو الأناقة يتحدثون بأصوات رائعة وضحكات عذبة، عانقوا سعيدا بحرارة، قال سعيد لواحد منهم:

ـ إنه لحظ أن نراك!

ورد الرجل:

ـ إنني رهن أمر الإخوان!

ثم قال لهم:

ـ هل نكمل حديثنا في مكتبي؟

وقام يتبعه فريق من الموجودين بينهم رجل ملتح شديد المهابة، والذين بقوا آنسوا صبحي وسألوه وقربوا له صينية عليها مكسرات وكعك وقدموا له كوبا من التمر هندي. أكل بشهية فقد كان جائعا وتابع حديثهم باهتمام صامت، بعد ذلك بوقت طويل خرج الأخ سعيد وتصافح الجميع وتعانقوا ونزل صبحي وسعيد مسرعين، وطارت العربة مرة أخرى، كان في الجو ذلك الصمت الذي يسبق الفجر ومن المآذن القاهرية يأتي صوت التوسلات الذليلة التي تسبق الأذان قال سعيد:

ـ لنصل الصبح في مسجد الروضة.

بعد الصلاة قال سعيد لـ«صبحي»:

ـ لا أظنك تعود لأقاربك الآن يا أخ صبحي، تنام عندي يا أخي مكرما.

دخلا إدارة المجلة، سر صبحي أن فيها غرفة نوم، كان يشفق أن يزعج الأخ سعيد من أجله زوجته وعياله. أشار سعيد للسرير:

ـ فراش صغير، حسبنا، نريح جنوبنا ساعة.

وأعطى صبحي جلبابًا أبيض نظيفا، دخلا الفراش، وساد الغرفة صمت، وتحدث سعيد بصوت عميق عن عمر بن الخطاب وقال هامسا:

ـ لو ولى هذا البلد لحمل الناس على الجادة.

ثم صمت قليلا وقال:

ـ حدثني عنك يا صبحي.

ولم يكن صبحي يريد أن يقول شيئًا، كان يجرب لحظة رضا عميق لا يريد أن يؤرقها ولو بترديد أنفاسه، بقي صامتا، قال سعيد متأثرًا:

ـ أنت عظيم يا أخ صبحي.

ثم مال عليه وضمه إلى صدره، استجاب له صبحي مغمضا عينيه، واستراح صدره الطري على صدر سعيد النحيل العضلي، كان كل شيء ساكن قرير، والأخ سعيد قبله في شفتيه قبلة فيها كل الحب والأخوة الإسلامية، وهكذا ناما حتى علا النهار، وبعد ذلك كان صبحي يلتقي بالأخ سعيد كلما سافر إلى القاهرة وكلما جاء سعيد إلى طنطا.

وكانت بينهما معزة عظيمة. وهذا المساء كان ثمة اجتماع حاشد في سرادق هائل في ميدان البلدية بـ«طنطا» استمر بعد منتصف الليل، وبعد ذلك تكأكأ كبار الإخوان حول الأخ سعيد في اجتماع كبير على سطح الشعبة في ميدان الساعة، وقرب الفجر، بدأ الناس ينفضون وبقي حول الأخ سعيد نفر قليل منهم صبحي ومنهم كذلك طلعت الذي جاء من محلة الجياد مع وفد من شباب الشعبة، قال طلعت:

ـ ستكون جماهير الإخوان في انتظارك عندنا غدًا يا أخ سعيد.

قال سعيد:

ـ نعم إن شاء الله.

ابتسم طلعت ابتسامته الدامية.

ـ الشعبة تعلق اهتماما كبيرًا على إشهار إسلام الأخ عوض الله المهدي.

وتعلقت أبصار الجميع بالأخ طلعت انبهارًا، وقال سعيد:

ـ هذا بفضل الله ونشاطك العظيم يا أخ طلعت.

ثم مال على صبحي.

ـ هل رأيت محلة الجياد قبلا يا أخ صبحي.

قال صبحي مخافتا:

ـ لا.

ربت سعيد على كتفه رفيقا به.

ـ تصحبنا إن شاء الله.

وقال طلعت بأريحية:

ـ كلكم ضيوف مكرمون.

* * *

... صلى علي أفندي مغرب اليوم على حصير الصلاة الأبيض المحلى برسوم المشهد المدني والذي أهداه له الشيخ سيد الحصري، لا يستطيع أن يجمع ذهنه على الصلاة، شارد مضطرب النفس ولا يدري لذلك سببا، أنفاس البلد تأتي إليه زاخرة بصخب وعنف لا حدود له، يحتفلون بإشهار إسلام عوض الله المهدي، وفود من شعب الإخوان في البلاد المجاورة يدوي هتافهم: الله أكبر، ويستقبلهم إخوان البلد بنفس الهتاف، يأتي إليه مختلطا بأبواق السيارات وزئير الميكروفون المعد

لخطاب الأخ سعيد في الجمع الحاشد، لم يكن كل هذا يحدث في هذا البلد للمرة الأولى، لكنه اليوم مضطرب النفس ولا يدري لماذا. قام كعادته ليصلي العشاء في المسجد، هناك يلتقي بإخوان الطريق، وبعد الصلاة يذهبون معًا إلى دار الشيخ سيد الحصري، أقرأ زوجته السلام وطلب إلى عطية أن يكون رجل البيت حتى يعود. خرج من الدار إلى الحارة، صخب البلد الآن أكثر وضوحًا ولا أحد يمشي الهوينى، يرطمون الأرض بأقدامهم ويملئون الدنيا ببحات صدورهم، داعب حبات مسبحته هادئًا ومشى متحذرًا في العتامة، عرف في المقبلين عليه طلعت وبعض إخوان آخرين يحيطون بـ«عوض الله المهدي»، وقفوا جميعًا وسلم هو على المعلم أولا.

ـ كيف حالك يا شيخ عوض الله يا مهدي؟

لم يسمع من الرجل ردًّا، ذهل لما عليه حاله، وجه ميت وعينا ذاهل مجنون، نزل عليه كالصاعقة ذلك السؤال «ما الذي جرى..؟». لم يكن بوسعه أن يسيطر على حواره مع طلعت الذي سأله.

ـ إلى أين يا علي أفندي.

أجاب كالحالم وعيناه على وجه المعلم.

ـ إلى المسجد الجامع لصلاة العشاء إن شاء الله.

قال طلعت مندهشًا:

ـ الأخ سعيد يؤم الناس جميعًا في صلاة جامعة في الخلاء بظهر البلد فكيف تشذ عن الجمع؟

وعلي أفندي ما زال شاردًا يتأمل حال المعلم ويقول:

ـ أصلي في المسجد الجامع.. ألقى الإخوان.. ثم نمضي إلى الحضرة.. تلك ليلة جمعة.

هز طلعت رأسه.

ـ كان يسعدنا أن تكون معنا.

سلموا ومضوا وعلي أفندي جامد في مكانه ينظر في ظهورهم، يمسكون المعلم من ساعديه تضطرب خطواته على الأرض، والسؤال يعصر قلب علي أفندي «ما الذي جرى..؟» «ألهذا فر عبد العزيز إلى البلد تاركا ضيافة عمه ولما تكد تبدأ..؟». ومشى بطيئًا يداعب حبات مسبحته ويحذر أن يصدمه المارقون من حواليه، يسأل نفسه «ترى هل أسلم ضيفه..؟». ويزفر عاجزًا عن الفهم «إنما هدى الرجل إلى دين الحق الذي نحن عليه..» لكن الخوف يملأ قلبه، استعاذ بالله من الشيطان، وفي الجامع توضأ مرة أخرى، فلم يكن يدري هل لبث على وضوئه أم فقده في السكة، وبعد الصلاة خرجا هو والشيخ سيد الحصري إلى عتمة الحارة، يتمتم هذا بالتسابيح وعلي أفندي ينصت له ساهما، مروق الأجسام والأصوات وشعل المصابيح يربك الشيخ الكليل البصر يمسك بساعد علي أفندي.

ـ خذ بيدي يا علي أفندي.

ويأخذ علي أفندي بيد الرجل ووراءهما باقي الإخوان والرجل يتمتم:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، كأنه يوم الحشر، هذا ذعر يسقط الفرائض عن المكلفين.

ومشوا هكذا بهذا الإيقاع المتحذر الهامس في مقابل عنف الإيقاع المزلزل في جو البلد حتى وصلوا إلى دار الشيخ سيد الحصري، دار كبيرة الفناء، ربط الحصر وعيدان الثمار قائمة في الأركان، والأرض مفروشة بحصر جديدة تحتاج قبل الدكة الأخيرة أن تداس، والشيخ سيد يقول:

ـ من الخير أن تفرش لحضرة الإخوان، هذا خير لها وأطهر.

جلسوا جميعًا حول طاولة واطئة طويلة نحيلة عليها مصابيح صغيرة، زئير مكبرات الصوت يحمل خطاب الأخ سعيد، لكن الإخوان بدءوا التلاوة، وأغمض علي أفندي عينيه حتى لا تصرفه هواجسه ولا الصخب العالي عن القراءة، وبعد الحضرة قرئت الفواتيح للأولياء، وللإخوان الغائبين من أهل الدارين، ثم تصافح الإخوان، لكن التوتر يشوب كل شيء، قطع علي أفندي الصمت قائلا دون هدف:

ـ يحتفلون بالشيخ عوض الله المهدي.

غمغم الشيخ سيد الحصري:

ـ آه.

وأوقعت هذه الغمغمة علي أفندي في الحيرة، واصل كأنه يستفهم:

ـ كانت هذه والله بشارة طيبة للإسلام.

تمهل الشيخ سيد الحصري قائلا:

ـ هذا الصخب الشديد يثقل على القلب ويطمس البصيرة، لا يستطيع الإنسان أن يرى ما وراءه من الخير.

قال علي أفندي كأنه يهرب من مخاوفه:

ـ إنه جمع يتلى فيه القرآن.

وقال الشيخ سيد الحصري مفعما بالحسم:

ـ لكن هذا الصخب ينفي الحكمة عن القراءة، وهذا العنف فيه مظنة الإكراه.

وقال علي أفندي مشدوها:

ـ الإكراه؟

وقال الشيخ سيد الحصري بصوته الهادئ الذي لم يكن أبدًا هكذا حاسمًا قاطعًا:

ـ نعم يا أخي، أجد في هذا الصخب الإكراه، بل إنني أجده حينما تقرئ أخاك السلام بصوت أعلى مما يكفي لإسماعه ولبيان قصدك له، أجده حينما يلقى الواحد بمودته على ضيفه حتى يوقعه في الحياء ويحوشه عن التأبي، أجده حينما يسرف المخطئ في الاعتذار عن فعله فيُخجِل المتأذي عن إظهار وجعه، أجد الإكراه في هذه المواضع جميعها، في هذه المواضع أجد الإكراه.

قال علي أفندي يائسا:

ـ لم يكره الرجل، اختار الإسلام طواعية.

تهدج صوت الشيخ سيد الحصري وهو يقول:

ـ نعم في هذه المواضع أجد الإكراه، وأجد في الناس ناسا ضعافا يقعون في العذاب.

ثم حل الصمت وأطرق الإخوان ناكسين ومكبر الصوت فوق رءوسهم، وكان الأمر أكثر مما يحتمل علي أفندي، وكان عليه أن يقول شيئًا.

- إن الرجل يا شيخ سيد لم يكره على فاحشة.. لقد عرف طريقه إلى الله.

وصمت الشيخ سيد متحيرًا، ثم قال متردداً:

- طريقه.. لا أدري إن كان طريقه.

ذعر علي أفندي.

- لا تدري.. يا شيخ سيد؟

أجاب الشيخ سيد حاسمًا مرة أخرى:

- نعم لا أدري، إنما أجد سكة العبد للصلاح في رب يعرفه ويرتضيه ويحبه، نعم رب يعرفه ويرتضيه ويحبه.

ارتعد جسم علي أفندي قال لاهثا:

- أو تتعدد الأرباب يا شيخ سيد؟

ورد الشيخ سيد الحصري غير مؤرق ولا منزعج.

- لا إله إلا الله الحق.

وردد التوحيد كل الإخوان وعلى وجوههم حيرة مؤلمة، وألح علي أفندي»:

- إذن؟

هز الشيخ سيد الحصري رأسه بأناة وأجاب خجلا كطفل:

- إنما أنا عبد صانع حصر ضعيف، وأنا لا أدري، فلنقرأ الفاتحة أن ينير الله بصائرنا يا إخوان، فقد تشابهت الأشياء.

وقرئت الفاتحة همسًا، وصوت مكبرات الصوت يركب فوق الهمس الخفيض، وكان على الجمع أن ينفرط، يحمل كل واحد حظه من كآبة المساء، وود علي أفندي لو بقي مع الشيخ سيد الحصري يأتنس به حتى يؤذن الله بالصبح، لكنه عرف أن ذلك لن يكون وعرف أن عليه أن يثوب، يرقد في غرفته وحيدًا، لا يغمض له جفن، يحدق في الظلام ولا يحصل منه فهما، سرت برودة الخوف في عظامه.

* * *

... كان الأخ طلعت قد استأذن أن يأتي بالأخ سعيد ورهط من كبار المسئولين في الإخوان المسلمين للسلام على العمدة، لكن هذا كان أكثر مما يطيق العمدة هذا المساء وعليه فقد أمر أن يقال لـ«طلعت» إن العمدة ليس هنا، وقد دهش سعداوي لهذا، لكن العمدة شدد التنبيه عليه وأمره أن يضع مصباحًا صغيرًا في غرفة المكتب وأغلق على نفسه وجلس على كرسي كبير وثير، أخرج زجاجة الكونياك وصب لنفسه كأسًا وشربها بنهم، جوفه من داخله يحترق، إنه يكره زوجته كراهية عميقة، وقد عاش بهذه الكراهية خمسة وعشرين عاما، هدته هذه الكراهية هدًّا، لماذا صنع بنفسه هذا؟ لماذا لم يطلقها منذ البدء؟ كيف دفعت الأيام بعضها البعض وهو جامد هكذا ينظر؟ والآن يعيش منفيًا في الدور الثاني لا يراها إلا لماما، لا يراها إلا إذا أرادت أن تنهال عليه لوما وتقريعا، يسمع صامتا ثم يصعد إلى غرفة نومه، أو يمضي

إلى غرفة مكتبه، كيف ضاع عمره بهذا الشكل؟! لماذا لا يطلقها الآن؟ لماذا؟ أن يعيش منفيا في الدور الثاني، يتربص بالخادمات في الأركان، وهن يدفعنه، يكففن يديه عن أثدائهن وأردافهن، ثم يجرين يحكين لزوجته، يعرفن أنها السلطة من فوقه، تشتمه وتذله، يؤلمه إلى أعمق أعماقه هكذا أن يذل، لكنه يعود، يعود في دائرة مكرورة من المهانة، الآن هذه فاطمة بنت أبي عساكر، لم تحك الحكاية لزوجته، وهو لا يدري ماذا وراء ذلك، تدور طول النهار حوله، يحاول أن يعرف، يحاول أن يقرأ تعبير وجهها، لا يجد غير تلك الابتسامة المشفقة الصموت في عينيها، يوجعه هذا حتى النخاع لكنه قد هان، هان حتى أصبح شيئًا كسقط المتاع، وصوت الميكروفون داو مروع، لا يستطيع أن يهرب منه، يملأ كأسه مرة أخرى، ماذا يريد هؤلاء؟ لقد أسلم الرجل ماذا يريدون الآن؟ إنهم يهزون البلد هزًّا، هزًّا ينفيه، ينبذه إلى الصمت، بل إنه ينفي وينبذ كل تعقل أو حكمة، هذه السياط التي لا ترحم، هذا الركض الجماعي إلى الهاوية، أحس نهايته، أدركها، بل تيقنها، وهي في نقلة القدم التالية، يشرب حتى تدمع عيناه ويدرك ثقل أطرافه، وتضبب بقع الضوء وكتل الظلام واختلاط هيئات الأشياء، يجتهد حتى يقوم، يتلمس طريقه للباب، يصعد السلم، كل شيء صامت ما عدا ذلك الهول المعلق على سقف البلد، يكره هؤلاء الناس كراهية عميقة، يخشاهم ولا يحب أن يصطدم بهم، إنه قانط ومتعب، يصعد السلم بطيئا حتى يصل إلى الدور الثاني، يجد فاطمة بنت أبي عساكر نازلة، وقف قبالتها صامتا، كانت قد تحررت من هيئة خادمة البيت، الآن تلبس قميصًا خفيفا للنوم، ربما أرقتها مكبرات الصوت فصعدت إلى السطوح تنظر، لكن هذا القميص لا يشبه هذا

البلد الريفي، هي فيه عارية تمامًا، تبدو رقبتها وأكتافها ناصعتين، وشعرها تطلقه على أكتافها، وفي عينيها الضيقتين تلك الابتسامة المشفقة المتعالية، وثدياها صغيران كاملان مشرعا الحلمتين، تنظر إليه لا تنكسف إشعاعات كيانها، لا تتردد ولا تهتز، بل تزداد شموخا وتعاليا وهو يزداد تضاؤلا حتى يكاد ينحني يمرغ جبينه في درجة السلم تحت قدميها، استدار في مكانه، فتح باب السلم المؤدي إلى الغرف، مشى يحس خطوها بلا صوت وراءه، يريد أن يجري لكنه لا يستطيع، يكاد ينكفئ على وجهه، استند على أكرة باب الغرفة، الغرفة معتمة، لكنه وجد نورا يدخل من مصباح في يد فاطمة، وضعته على منضدة جنب السرير ووقفت صامتة والعمدة عاجز عن الحراك، تقدمت إلى الشماعة، أخذت جلباب نومه، أمسكته في يدها ووقفت قبالته، بدأ العمدة يخلع ملابسه كطفل مطيع حتى صار عريانا تماما وهو يقف أمامها خجلا، وهي تنظر لا يرتجف لها جفن، لبس رداء نومه، مشى إلى السرير، ورقد وشد اللحاف على نفسه رغم أن الجو كان حارًّا، أغمض عينيه مرهقا دائخًا من الخمر، أحس بثقل جسمها إلى جانبه على السرير، بقي مغمضا خوفا، أحس يدها تتسلل تحت اللحاف ببطء، تتسلل بين فخذيه المفرجين تتناول ذكره بين أصابعها، مرتخ تمامًا كعرف ديك رومي، تداعبه بمعرفة ونعومة، وجد دموعه تنحدر تحت جفونه المغمضة، تتحدر دافئة مسرعة، تحركت فاطمة، أزاحت اللحاف عنه، صعدت ركبت فوقه، تمددت فوق جسده، يعرف تفاصيل جسمها على جسمه، أخذت وجهه بين كفيها الصغيرين، مسحت دموعه عن عينيه بإبهاميها، نظر لها، تبتسم له كطفل، هكذا، الآن، كان يظن أن الهاوية في نقلة القدم التالية، الآن

يهوي، يهوي، ماذا سوف تفعل به إذن فاطمة بنت أبي عساكر؟ منحه اليأس راحة، الراحة التي يمنحها للإنسان الموت.

* * *

... «أيها الآب، قد أتت الساعة، مجد ابنك، ليمجدك ابنك أيضا» هكذا صرخ المعلم بصوت عظيم لم يسمعه أحد من الذين دخلوا عليه وهو واقف في فناء الدار عاري الرأس، عاري الصدر في ثوب نومه الخلق البسيط، ووجهه محمر بالحمى وعلى جانبى فمه زبد أبيض، عيناه نصف مغمضتين، لا يريان طلعت ومعه رهط من شبان الإخوان المسلمين يدفعون الباب داخلين، إنما خلف جفنيه رؤى صاخبة سوداء حزينة من كنيسة كفر سليمان يوسف مزدحمة بالشعب والأب إندراوس البهيدي يقود القداس وعم رزق الله الشماس يردد وراءه، رأسه مليء باختلاط أصوات الشعب الحزينة الباكية، مجللة كلها بأشرطة سوداء، لا أحد من الذين دخلوا عليه يسمع هذا الصراخ العظيم الذي يرن في داخله ولا يبرح شفتيه إنما يحييه طلعت:

ـ السلام عليكم يا أخ عوض الله يا مهدي.

.. «هى ذي الساعة قد اقتربت، وابن الإنسان يسلم إلى أيدي الطغاة» هكذا بصوت عظيم يرن في داخله ولا يبرح شفتيه يجاوب المعلم بكاء الشعب فى الكنيسة، وزوجته فلة واقفة فى ركن الفناء، قد عصبت رأسها بمنديل أسود وكفاها متحاضنتان على صدرها وعيناها ناكستان وعلى جانبيها لوزة وحنتس، تتعلق نظراتها بقدمي المعلم العاريين. نظر أحد شبان الإخوان إلى طلعت يهمس مرعوبا:

ـ إن الرجل مريض، إنه في الحقيقة يموت.

امتص طلعت لعابه الدامي وتجهم وجهه وبان أشد انبعاجا ورد بصوت حاسم:

ـ لا بد أولا أن يتم الاستعراض الذي تنتظره حشود الإخوان، وبعد ذلك أيها الأخ سوف نعرضه على طبيب.

أخرس الشاب، وتلفت طلعت حواليه يتجاوز الزوجة فلة ويشير إلى ثياب المعلم المعلقة على مسمار في الحائط.

ـ هات هذه الملابس يا أخي.

وتناولها الأخ متردداً ولم يذهب بها ناحية المعلم بل ناولها لـ«طلعت» الذي أخذها ونظر إلى أخوين ينتدبهما لمساعدته وتقدم الثلاثة وأحاطوا بالمحموم الذي أسلمهم جسده دون أى معارضة وهو يرتعد ارتعاداً خفيفا، وشفتاه تتحركان بذلك الصراخ العظيم الذي يرتد إلى داخله ولا يسمعه من الذين حوله أحد، وخلف أجفانه المشاهد الحزينة من كنيسة كفر سليمان يوسف، والأب إندراوس البهيدي يقود القداس وعم رزق الله شماس الكنيسة يجاويه وسط بكاء الشعب في بهو الكنيسة المجلل بالسواد وصور القديسين، قال طلعت بحسم:

ـ لا بد من لف العمامة على رأسه.

ويرن الصوت العظيم: «وضفر العسكر إكليلا من شوك ووضعوه على رأسه وألبسوه ثوب أرجوان».. وطلعت يحكم العمامة على رأسه وينظر له ضاحكًا.

ـ أنت الآن عظيم يا أخ عوض الله يا مهدي.

ولم يجاوب الابتسامة أحد من الإخوان، ومصمص طلعت شفتيه

ونظر ناحية فلة لكنه عدل ولم ينتدبها بل تجاوزها إلى أحد الإخوان آمرًا:

ـ ادخل هذه الغرفة وانظر أين ترك مداسه.

وجيء بالمداس ووضع في قدمي المعلم، وأمسك طلعت ساعده الأيمن ونظر إلى أخ آخر أقبل أمسك بالمعلم من ساعده الأيسر والمحموم لا يعي تمامًا، يمتلئ رأسه بصخب المشهد الكنسي وعلامات الحداد، لا ينقطع صراخه ولا يسمعه أحد «... ثم إن الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع ومضوا به» وهو في يدهم جسد مسلوب، ودون أن ينظروا ناحية فلة مضوا به خارجين، يكادون يحملونه من ساعديه حملا، وقدماه يرتطمان بالأرض. وعلى باب الدار كان زحام من أطفال وصبيان ونساء، حينما أطل عليهم انطلق منهم زياط وزغاريد وصراخ وفرح، وفاجأ الضوء الشديد والجلبة وعي المعلم فأفاق قليلا وفتح عينيه وتمهل وصورت له تهاويل الحمى أن هؤلاء الناس هم جمهور الشعب الباكي في كنيسة كفر سليمان يوسف، أضاء وجهه بالفرح والحمى، ابتسم لهم ورفع يده قائلاً:

ـ السلام لكم.

وجن الناس فرحا وسيطرت عليهم في التو فكرة أنه ولي من أولياء الله الصالحين، وانكبوا عليه يحاولون تقبيل يده أو ثوبه وتلمس دعوة صالحة منه وابتسامته الحالمة المحمومة لا يؤرقها الصراخ المجنون، واضطر شباب الإخوان أن يتحلقوا حوله حلقة لا يمكن اختراقها ومضوا به إلى دار الشعبة.

* * *

.. على سلم الشعبة كان حشد من كبار شخصيات الإخوان المسلمين يتوسطهم الأخ سعيد قصيرا نحيلا مكينا وعلى رأسه تلك الطاقية الباكستانية يقف متوترا مستوفزا عيناه مفعمتان ذكاءً وثقة بنفسه وإلى جواره يقف الأخ صبحي ممتلئا مصفف الشعر أنثوي التكوين شاحب الوجه شارد النظرات، ويحيط بهما جمع من إخوان شعبة طنطا والشعب المجاورة لـ«محلة الجياد»، كل الناس على جباههم علامة الصلاة السمراء المتربة. ومعظمهم لهم لحى كثة ويجمع بينهم تشابه إثنولوجي عميق، وعلى ملامح وجوههم جهامة وقسوة وصرامة. أغلبهم يرتدون حللا، والبعض يلبس معاطف على جلاليب، بعضهم معمم وبعضهم عاري الرأس، ثمة ملامح عامة من العنف والخور والجنون. يصعد طلعت السلالم بسرعة ويصافح الأخ سعيد ضاحكا ثم يصافح الباقين الذين يصافحونه ويقبلونه ثم يقف ويشير لهم إلى المعلم الذي لم يصعد وراءه إنما وقف أسفل السلم شامخ الأنف مشرع الوجه إلى الأمام، وفي لحظة أدرك الأخ سعيد أن الرجل ذاهل لمرض أو لغيره وأنه لن يصعد لهم فنزل له بسرعة وأحرج تصرف سعيد باقي الشخصيات الإخوانية عن جمودهم فتبعوا سعيد مهرولين إلى أسفل، وأعطاهم المعلم يدًا طرية محمومة وهو يتمتم والزبد على جانبي شفتيه صافحوه جميعًا وعادوا إلى مواقعهم، في هذه اللحظة صعد شاب في ملابس الجوالة على رقبته منديل، وعلى كتفيه شرائط تميزه؛ فهو قائد الجوالة في محلة الجياد، صافح الإخوان، ثم وقف إلى جوارهم وأعطى إشارة البدء فانطلق الميكروفون عاليًا:

ـ جوالة الإخوان المسلمين إلى الأمام سر.

وانطلقت الطبول في إيقاعات عسكرية، وتحركت سيقان ريفية مقشفة في سراويلات قصيرة وجوارب قصيرة مهلهلة وأحذية من كل نوع وشكل، تحركت على إيقاع الطبول في خطو مضطرب مسكين، أولاد ريفيون وجوههم تحمل آثار سوء التغذية وشعورهم مقصوصة بطريقة ريفية خشنة وعليهم ثياب الجوالة الكاكية، ثم بعد هذه الصفوف حملة بيارق الإخوان وشعاراتهم ثم قارعو الطبول، ثم عربة جيب يجلس فيها بعض الإخوان ومعهم مكبرات صوت يذيعون منها شعارات الإخوان وهتافاتهم، ثم بعد ذلك فرق من جوالة الشعب الزائرة، ثم يأتي بعد ذلك المعلم على فرس العمدة البيضاء يمسك بعنانها أحد الإخوان من الناحيتين يسنده أخوان آخران، وجماهير الفلاحين فقدت صوابها كلية تجاهد حتى تقتحم السور البشري الذي أقامه شباب الإخوان الأشداء حول المعلم لتمسه، والرجل ذاهل مشرع الوجه إلى الأمام تحت الشمس الحارقة، وعلى جانبي شفتيه ذلك الزبد الأبيض. وبهذا النظام بدأ الموكب يدور بالبلد مثيرا جوا من الغبار ومستهدفا أن يكمل دورته منتهيا إلى مسجد البلد حيث تقام اليوم الجمعة صلاة جامعة.

... نزل العمدة درجات السلم محاذرا، لا يريد أن تحدث قدماه صوتا، ولا حتى أن يرتفع صوت تنفسه. يرهف سمعه تماما يحاول أن يحدس أين وصل الآن ذلك الموكب من دورته ومتى ينتهي إلى هدفه، تعصر قلبه قبضة خوف غامض، يتمنى ألا تغيب فاطمة عن عينه لحظة، لكن هيهات، ما تكاد تدير ظهرها مبتعدة حتى يمرضه الشوق إليها، لا يريد أن يكف لحظة عن الإحساس بمتعة الخضوع لها والانحناء لنزواتها وتقلباتها، يعصر الخوف قلبه وهذا الصخب

يكاد إيقاعه يقلقل البلد من جذورها، لا يجد سعداوي في الدوار، يحنق، يكاد يبكي من الوحدة كطفل، يدخل غرفة المكتب ويأتي لنفسه بالزجاجة ويبدأ يشرب كئوسها كثيرة متتابعة حتى يبل ظمأه وتهدأ بلابله، يحس الموكب مقتربا، يتصور أنهم بطبولهم آتين للقبض عليه، وأنهم بطبولهم هذه يطردونه إلى ناحية لا يستطيع منها فكاكا ثم يمسكون به، يغمض عينيه ويلقي برأسه على مسند الكرسي الكبير، دمعة صغيرة تملأ جفنيه، يكاد في إغماضه يرى الموكب في وقدة الشمس وسحابة الغبار، يكاد يعرف الوجوه واحدًا واحدًا والناس رجلا رجلا، يقول لنفسه بصوت هامس:

ـ أي حريق ضخم أو وباء هائل أو مقتلة عظيمة أو زلزال مدمر ينبغي أن يكون حتى يقف هؤلاء الناس وينظرون حواليهم؟ يجمعون صامتين ما تخلف عن الهول، ثم يبدءون من جديد، أقل صخبا، أكثر حزنا وبساطة وحكمة.

تحدرت دموعه سخية والموكب يقترب منه. نادى العمدة من مجلسه.

ـ يا سعداوي.. يا سعداوي.

لم يجبه سوى الصمت، ركبه الخوف، قام مذعورًا، نظر من شيش الشباك كان الموكب بإزائه، رأى وجه المعلم المحموم وفمه المزبد، عاد بسرعة ألقى بنفسه على كرسيه وبدأ ينشج ويضحك.

ـ هل يزفونني هكذا؟ مقلوبًا على حمار؟ أنا وفاطمة؟ وزوجتي الحاجة قدام الزفة، تمسك بمكبر الصوت وتجلجل بعاري؟

ابتلع دموعه، فتح عينه، وقال بصوت واضح هادئ:

ـ عندئذ سأكون هادئًا شامخًا مثل هذا القبطي.

وعاد يشرب الكئوس التي لا ترويه.

* * *

... فرغ علي أفندي من وضوئه، جفف وجهه بالمنشفة البيضاء وألقاها على كتف ابنته الواقفة أمامه في خضوع، تنصرف صامتة بالإبريق والمنشفة ثم تعود ترفع الطست وهو قائم يصلي سنة الوضوء، الزوجة والعيال يعرفون هذه الجهامة من الأب فلا يجرؤ واحد على بنت شفة، وعطية لا بد في حجر أمه يرامق أباه في حذر، يأخذ علي أفندي مسبحته ويخرج من الدار صامتا، يعرف الموكب في الناحية الأخرى من البلد، يمشي في حواري ساكنة إلا من بضع نسوة هنا وهناك يحكين عن كرامات وليِّ الله عوض الله المهدي، يظل هكذا ماشيا حتى دار الشيخ سيد الحصري، يدفع الباب يقرئ السلام الرجل الجالس على حصيرة الصلاة، يفسح الرجل له مطرحًا ويجلسان. يقول علي أفندي:

ـ لقد قربت الصلاة يا شيخ سيد، ألا نتوكل على الله ونقوم إلى المسجد الجامع؟

ويصمت الشيخ سيد، يرفع وجهه الكليل البصر إلى علي أفندي، وصوت الضجة يملأ جو المكان، كأنه متجسد بينهما فلا يستطيعان بالكلام التواصل ولا يكادان أن يرى أحدهما الآخر، يتنهد الشيخ سيد الحصري ويقول حزينًا:

ـ اليوم لا تصلي البلد، تقيم مندبة هائلة لسبب لا يعلمه إلا الله.

ويقول علي أفندي حزينًا:

ـ آه.

يعلو صوت الشيخ سيد حاسما قاطعا:

ـ هذه الضجة تنفي عن الصلاة حكمة العبادة، وما أنا بالذي يشارك فيها.

ويتألم علي أفندي:

ـ لا إله إلا الله.

يهب الشيخ سيد واقفا عازما مصمما:

ـ سأخرج.. سأنشد بلدًا آخر يصلي أهله هذه الجمعة.

ويتبعه علي أفندي صامتا، يمشيان في حارات خالية، يستمعان إلى ثمالات أحاديث النساء، يتنهد علي أفندي:

ـ إنني يا شيخ سيد واقع في العذاب، إنني يا شيخ سيد قد أسلمت ضيفي، ولو أنني صليت الدهر فلن يغفر الله لي ذنبي.

قال الشيخ سيد الحصري بصوت باك:

ـ نعم.. نعم.. لقد أسلمنا الرجل، كلنا فعل هذا يا علي أفندي!

توجع علي أفندي:

ـ آه.

وواصل الشيخ سيد الحصري:

ـ أسلمنا لهم الرجل، والآن لا قبل لنا بهياجهم العظيم!

ومشيا ساكنين منكسرين ينشدان بلدًا آخر يصليان فيه.

... الموكب يقترب من الجامع، يزداد الصراخ من مكبرات الصوت انفعالا، تزداد قرعات الطبول عنفا، يزداد وقع أقدام الجوالة في الأحذية الرثة حماسا، والناس المحيطون بالمعلم يزدادون كثافة وجنونا، وعاصفة الغبار تزداد كثافة والشمس تدق مسامير محماة بالنار في جبين المعلم، يترنح على الفرس، وإذا ينزلوه عند باب المسجد ينكفئ على وجهه فاقد الوعي تمامًا، وكالنار في الهشيم تنطلق في الناس حرقة «لقد مات المهدي» والناس حوله يجلسون على الأرض يهزونه ويربتون على صدغيه دون جدوى، وحلقة الأجساد الحامية للمعلم تكاد تصَّدع، لكن فجأة يجدون فلة قد تسللت من وسط هذه الجموع وألقت بنفسها على المهدي، أخذته على صدرها، وفي لحظة كأنما غرق هدير الجماهير في بئر ليس له قاع، صمت يطن بعمق والناس ترى فلة تأخذ المعلم إلى صدرها وتصلي بحرقة:

ـ باسم الرب يسوع المسيح.

وترسم على صدرها علامة الصليب.

عبد الحكيم قاسم
برلين الغربية
٢٤ / ٩ / ١٩٧٧

طرف من خبر الآخرة

المــوت

باب كبير له عقد عال جهم بسيط الزخرف، في جدار عميق الصمت من كتل الحجر الأبيض عليها غبرة القدم. المصراع من غليظ الخشب المحزم بصفائح الحديد، المدقوق فيها مسامير كبيرة الرءوس. الرحلة إلى هنا محتومة، والنية تولد في لحظة صمت مبهمة، لها أصداء ربما تفوت السمع، لكنها تصيب القلب. تظل تنفر على جلده المشدود حتى يكون خوف آت من مشاهد معروفة ومن مشاهد غير معروفة، من تجارب مذكورة وأخرى قبل التذكر، وعليه فهو خوف لا يمكن الفرار منه، ولا يمكن اقتسامه مع الآخرين، فهم خائفون حتى لا يرى بعضهم بعضا. إنما ينبغي أن يرحل الواحد بخوفه كما يرحل المجروح بجرحه يطلب له الطب حيث يكون للخوف طب.

والرحلة إلى هنا تمضي في حارة ضيقة يتقارب فيها الصفان المتقابلان من واجهات الدور، يحصران بينهما وهج الشمس، والغبار، وسخونة خانقة، وحياة أمام أبواب البيوت وسخة، كسيحة، متخبطة، توشك أن تكون ذاهلة عن غايتها، ماضية في غير سياق، لا تقف لتسترد أنفاسها، أو لتتأمل ذاتها. وفي الدور النساء منذورات للقعود والثياب

السود والبكاء، وقهر خانق يدافعنه بحقد أسود وغل مسموم، والرجال قعود في الباحة على رأس الحارة، يصك الأرض تحتهم دبيب النساء في قيعان الدور. هل تروض الذعر الكلمات الحكيمة والمواعظ الحسنة؟ هل تفك الطلاسم المضروبة على القلوب المشتاقة لريق الأنوثة وريق الرجولة؟ أي قدر لا يدفع أخذ بخناق قلوب الرجال وقلوب النساء؟

تبدأ الرحلة من الباحة، وتمضي في الحارة، على إيقاع كلمات العذاب في مواويل الصبر، ومشاهد الفجيعة في حكايات المقدر والمكتوب. حتى إذا ما انتهت الرحلة إلى هذا الباب فهو غفل بين كل الأبواب الأخرى. فإذا ما تأمله الواحد قليلا وجده مختلفا في كل شيء. تكوين شديد الوطء على القلب يلجئ المتأمل إلى الصمت. ويكون أسى يوشك أن يدفع الدمع إلى المآقي. لكن الباب ـ بالرغم من ذلك ـ فيه طيبة وقرابة إلى الوجدان. لا يعرف الواحد من أي تفصيلة في ذلك التكوين الصارم تنبع تلك الطيبة وتنهمر. ربما من هذه المطرقة، التي هي على هيئة كف أنثوي رقيق جميل من الحديد، ممسك بكرة صغيرة تهوي على سندان ناتئ من جسم مصراع الباب. تشكيل أنيق وسط إطار الجهامة والجلال.

يتأمل الحفيد ذلك التشكيل حتى تولد في قلبه بسمة تعزي، تمنحه العزم. يدفع الباب، ينفتح بسهولة كانت مأمولة، وإن لم تكن متوقعة. لكن الصغير صامت وشارد. إذا أعاد إغلاق الباب وجد خلفه باحة صغيرة شديدة النظافة، عميقة الصمت ومعتمة. الجدران مدهوكة بالطين دهاكة محكمة ملساء، والسقف من حصر الغاب وفلق جذوع

النخل. على اليمين باب غرفة مفتوح. على العتبة مداس الجد، بلغة نظيفة حائلة اللون من جلد الماعز. الفردتان متجاورتان في خطين متوازيين تمامًا. أرض الغرفة مفروشة كلها بحصير أصفر بياضه من القدم. الجد جالس في الصدر. الغرفة خالية من الأثاث. الجدران شاهقة بلا شبابيك. مدهوكة بالطين، ملساء ونظيفة. السقف من حصر الغاب وفلق جذوع النخل وفيه فتحة يشع منها في الغرفة ضوء باهت خفيض.

الجد شديد النحول. جلبابه الأسود الكشميري الثمين معلق على كتفين مدببين، تحته صدار ناصع من القطن له أزرار صدفية. وجه الجد مخيف. له عين مطموسة بالبياض كأنها زلطة، أو حبة عقد رخيص. العين الأخرى محمرة، مخبوصة، شائهة الجفون. الفك الأسفل محطوم معوج، وعليه فالجد لا يتكلم بسهولة، وهو يتجنب الكلام غالبا. لكنه تحت عمامته الناصعة الجليلة، له جبين نبيل يملأ قلب الحفيد بالحب. أمام الجد حامل من الخشب المشغول، مفرود عليه دائمًا كتاب كبير يبسط عليه الجد كفيه، أو ما بقي من الكفين. فإنه في الحقيقة قد طاشت كل أصابع يديه. لكن ما بقي منهما عليه وسامة، حتى إن الواحد ليتصور أنه هكذا ينبغي أن تكون الأيدي. يجلس الحفيد قبالة الجد لا يقترب منه، والجد لا يتغير سكونه. ويتأمله الحفيد ويسأل نفسه: ما الذى بقي من الجد بعد أن نقص العين واليد واللسان؟ ثم يسأل الحفيد نفسه أيضًا، وبالإلحاح ذاته: ما الذي نقص حقيقة من الجد، إذا كان بعد ما زال إنسانًا حبيبا؟

الجد يقيم هنا، في هذه الدار، وحده. والدار كائنة في وسط البلد

تمامًا، تنتهي إليها كل الحارات. وهي أكبر الدور، ولها ما ليس للدور من مهابة وجلال. ومع ذلك فهي كائنة من الدور. ومن وعي الناس، في منطقة شديدة الغموض والاستغلاق، والرحلة إليها شاقة، وإن سألت عنها تلكأت الإجابة. أو كانت السلامة في الصمت. لكن الواحد يستشف يقينا سائدًا بأن الجد قديم، تنتهي إليه أنساب الأحفاد المنتشرين في دور البلد جميعها، وهو يقين مقلق، لكنه محتوم، لا بد من الصبر عليه واعتياده.

أما هذا الحفيد فهو مشغوف بالجد شغفا مكتوما، لا يبتذله بالبوح أو الثرثرة. لكن الكتمان لا يخفي سره عن العيون القلقة، والأفئدة المتوجسة. إنه علامته المميزة، والناس تحيطه باللحظ المرتاب والخوف. لكن لا فكاك، إذا ما حلت لحظة الصمت، وغلت مراجل الحقد، وانتشرت مساحة الخراب، إذ ذاك تكون الرحلة للجد مقدورة. يدخل الحفيد عليه في غرفته، يجلس قبالته، ويبقى وقتا طويلا صامتا. ثم يبدأ يلعب، أو يغني، أو يتشقلب. يتمتع بأمان عميق وحقيقي، ويكون على سجيته، وعذبا.

الجد تخدمه امرأة ناشفة، ضئيلة، تبقى دائمًا في غرفة صغيرة مظلمة داخلية. والحفيد، على كثرة ما رآها، لم يتحدث معها أبدًا. وهو لا يعرف كيف يدعوها الجد إليه. فهو لا يناديها، إنما يغيم وجهه بسحب من القلق، فإذا هي قادمة. تخلع مداسها على العتبة، تزحف على الحصير حتى مجلس الجد، تقرفص قدامه، وتنظر إلى وجهه. ومن دون أن يقول الجد شيئًا تعرف ما يريد، ودائمًا يكون ذلك كتابا تأتي به، وتفتحه على الصفحة المطلوبة، وتفرده أمام الجد، وتحمل الكتاب

الآخر وتمضي به. كان الحفيد يعجب من تواصل بغير لغة. ويدفعه هذا إلى الظن بأن من الحواس ما هو قبل الحواس، وربما كان أبلغ خطابا وأكمل إنصاتا. ولو أنه أحب الجد حبا عميقا لا يشغله عنه لعب ولا درس، ولو أنه قرأ كتب الجد كلها، وأحاط بما فيها من حكمة وعلوم، ربما كان بينهما هذا التواصل وربما أحس بالجد في الليل وهو نائم بين محبة أمه ومحبة أبيه، ولكان قام على همس النداء الغامض، لبس حذاءه ومشى في الحارة حتى الباب. فتحه ودخل على الجد، قرفص قدامه وعرف ما يريد. عليه إذن إن أراد ذلك الوصال أن يدرب نفسه على حب الجد، وعلى قراءة كتبه قراءة الدرس والحفظ.

لكن ما هي صلة المرأة بالجد؟ إنها قريبته بشكل أو بآخر. لعلها ابنة أحد أعمامه الذين ماتوا في الزمن القديم. لا أحد يقول للحفيد عن قرابة هذه المرأة للجد. ربما لأن ذلك ليس مهما. السكة إلى الجد ليست القرابة، بل الحب والقراءة. كيف لم يدرك الحفيد هذه الحقيقة وهي قريبة إليه تكاد تلامس أنفه؟ القراءة والحب. الحب والقراءة. لكن أهو طريق طويل يستغرق الحياة كلها، ولا تكون ثماره إلا في الهرم؟ ضحك الحفيد إذ تخيل نفسه عجوزًا ناشفا يأتي من الغرفة الداخلية على قلق الجد، يخلع مداسه على العتبة، ويزحف على الحصير حتى يقرفص قدام حامل الكتب. ضحك جدًا، وتشقلب في مكانه من السرور.

وإذا ما رأى أن الجد غارق في القراءة، مشغول بها عما عداها، قام متسللا إلى خزانة الكتب في الغرفة الأخرى. صمت ورائحة تراب وإحساس بالاستحالة يديخ. رفوف الكتب لصق الجدران طالعة

من الأرض حتى السقف. يسقط على الكعوب الجلدية الضوء من كوة السقف. الأرض مفروشة بحصير تتوسطه طبلية واطئة، عليها أوراق مختلفة، ودواة وريشة، وحق مسحوق التجفيف الأبيض. ثم تلك الأسطوانة الكبيرة من النحاس الأصفر.

يتناول الحفيد الكتب مجلدا بعد مجلد. يقلب في الواحد قليلا ثم يتركه ليأخذ غيره. عدته من الحروف والكلمات والتراكيب والإنشاء لا تعينه على القراءة، لكنه مع ذلك يعاود تقليب الصفحات وتأملها. إنها السطور قادمة من حيث لا يعلم أحد، وماضية بلا رجوع تحرث في القلب. أتراها تقدر المقادير وتصنع للدنيا الناموس؟ أم أنها العبرة التي تصنع بعد ذلك الندم؟ إنها على أي الأحوال حسنة التنسيق.

وهو إن لم يقرأ فهو يغرق في تأمل الحروف، ونمط الكتابة القديم. ففي الكتاب يعلمه غير ذلك. فإذا كانت الميم ممدودة زيد عليها ألف. لا يفقه الحفيد علة ذلك. فالميم الممدودة حالة تطبيقها الميم وحدها، ولا يحتاج الكاتب إلا أن يشير إلى ذلك برسم مدة فوق الميم. أما تلك المضاف إليها ألف فهي حالة جديدة، مدارها حرفان متجاوران. يسخط الحفيد على نمط الخط في الكتاب، ويتوله بكتب الجد، حيث الحروف مزينة بأنواع من العلامات لكل دلالته. ويحب كذلك رسوم الكتب. هي لا تشبه الناس، أو الناس بالأحرى، لا تشبهها. والعبرة على أي حال بما في هذه الصور من العلم والحزن.

فإذا ما تعب الحفيد جلس على الحصير إلى الطبلية تمتد يده إلى أسطوانة النحاس. كبيرة ثقيلة. يفتحها ويخرج منها لفافة من الورق. يفردها ويقرأ. تاريخ أسرتهم. هذه الأرض كانت برية ترن في جوانبها

صرخات السباع. ثم جاء رأس هذه الأسرة سيدي قطب الكائن مقامه في المقبرة خارج البلدة. وجاءت معه امرأته كريمة سيدي حسن الدين الكائن مقامه في القرية المجاورة. بنى سيدي قطب وسط هذه البرية دارا، وأنجب عيالا، وزرع أرضا، وملأ الدنيا خيرا وعمارا. يفرح الحفيد كل مرة يقرأ فيها هذه الأخبار، فهو سليل هذا القطب، أو تكرير آخر له. يفك لفائف الورقة ويقرأ.

ثم إنه أنجب فلانا وفلانا. أما فلان فقد تزوج فلانة، وأنجب فلانا وفلانا. وهكذا سطور بلا نهاية، وأسماء بلا عدد. الكل من أسرة قطب، والكل ماتوا، والكل مدفون بمقبرة القرية الآن، يتفكر الحفيد وهو يتأمل الأسماء بخط الجد العجيب، كل اسم في السجل يشي بتصور ما عن شخص ما يحيا ويضرب في الأرض. السجل حياة أخرى نابضة. يعاني الحفيد السؤال الذي يستغلق عليه كل مرة: أين الحقيقة؟ إن عالم الشجرة، من ساق وفروع وأوراق وبراعم ونوارات وثمرات، يقابله عالم آخر مدفون من الجذور التي تتفرع، وتمتد حتى تدق إلى ما سمكه شعره، ويقولون إن العالم المدفون من الشجرة أكبر من العالم الظاهر منها، وإنه شرطه، فأين الحقيقة؟

لا بد أنها شاملة العالمين، وأن كل عالم منهما هو شقها. أسرة قطب حقيقة شقها مدفون وشقها ظاهر. الحياة شق الحقيقة، وشق الحقيقة الأخرى هو الموت. حينئذ انقبض قلب الحفيد مما يعرف عن حياة أسرة قطب. من العقم والخراب في الباحات والحارات، في الدور والحقول، في القلوب والأرواح، على الأيدي وعلى ملامح الوجوه، أتراها تعدو آفة هذه الحياة على عالم الموت؟ داخل الحفيد مما أودى به

إليه الفكر. تطلع إلى وجه الجد من مجلسه على الحصير، رأى سحبا رمادية كئيبة تنعقد على الملامح الجهمة.

ورأى كأنما تميل المرثيات على الإيقاع البطيء لترتيل المرتلين، وعديد الباكين، وكأنما من هنا يصدر الإيقاع المنغوم لكل صلاة، ولكل دعاء، ولكل بكاء كان أو يكون. من هنا يشع ويتوزع على كل دار وعلى كل قلب. في صدر كل رجل سورة، وفي صدر كل امرأة بكائية. يزداد الصمت في قلب الحفيد عمقًا، يترقب أن يشق أجواز الفضاء صراخ ينعي ميتا.

الصلاة والبكاء والقراءة. الكلمات الطيبات في الصدور العارفة الحكيمة. الكلمات السمر في الصفحات الصفراء. السطور القادمة من الزمن الأول. الأناشيد التي ترن في الأفق الأبعد، النابضة في عروق الوقت بلا كلال حتى تتجاوب القلوب بالأصداء، حتى لا يكون عجز وتكون حياة ويكون موت. في هذه اللحظة تجاوبت أجواز الفضاء بصراخ الناعي يعلن النبأ المرتقب.

قال الحفيد في نفسه، سيكون على الجد الآن، أن يكتب اسما جديدا في سجله. لكن كيف يكتب الجد بيديه هاتين؟ أهو يملي على العجوز التي تخدمه وهي تكتب له؟ لا، الخط في السجل هو خط الجد بلا شبهة. وهل يمكن قيد اسم ميت في سجل الموت إلا بمثل هاتين اليدين؟ كان على الحفيد الآن أن يخرج. أخذ مداسه وقام. وإذ رد مصراع الباب الضخم وراءه التفت إليه. المطرقة الجميلة، وسط الجهامة الجليلة، كأنها تدعو المبارح أن يعود مرة أخرى، والحفيد كلما خرج من هذا الباب كان على ثقة أنه سيعود.

الموت يملأ البلد. صراخ النساء يسوط القلوب برعب وجزع. وجوه عليها غبرة. الرجال يحوقلون ذاهلين. النساء مشقوقات الجيوب، مجروحات الخدود، معصوبات الرءوس بالطرح السود. الكل يجري ناحية المأتم. يعرف الحفيد هذا كله، وفي عمره جربه مرات بلا عدد.

يريد أن يزور الآن زوجة الميت. يحبها منذ سنين. وهو منذ سنين معتاد على رؤيتها. لها غرفة على السطوح، صغيرة وحيدة تحت ثقل الشمس، ولو وضع على ظهرها شاهد لأشبهت قبرا. يدفع الباب ويدخل ويغلقه وراءه. بعد أن تعتاد عيناه العتامة يراها في ركن من أركان غرفتها، منشغلة بأمر من أمور معاشها. يقبع قبالتها ويبقى ساكنا. قد يجد شيئا يحكيه لها، وقد لا يجد. لكنها كانت لديها دائمًا حكايات كثيرة. تحكي نضيضة الكلمات، رتيبة المقاطع، باكية الصوت. يفك الطلسم عن الباب إلى عالم وديع رقيق.

تحكي وكأنما لا يعنيها أن يفهم. يتأمل وجهها الأسمر الوسيم، وعينيها البنيتين، وحاجبيها المتوقسين، وأسنانها الناصعة كقطع الصدف. يتأملها ويفهم كلماتها، لا يفلت واحدة منها أبدا. وأحيانًا أدركت هي أنه يفهم. عندئذ أخذت يده بين يديها. ومرة أحس بدفء اليدين حول وجهه. لا ينسى هذه المرة أبدًا، وما زال يجد ذلك الدفء على خديه.

كان يزورها كثيرًا. يدفع الباب ثم يغلقه وراءه، وبعد لحظات من التحديق يراها. في تلك المرة وجدها عارية، جالسة في الطست على كرسي تغتسل. نظر إليها. ترددت قليلا، ثم قالت: لا بأس.. اجلس!. جلس قبالتها وهي واصلت استحمامها. كانت أحيانًا

تكف عن صب الماء حتى لا تطغى كركرته على صوتها وهي تحكي. تظل تقول والقطرات كالدموع منحدرة على جسمها. أحب الحفيد جسمها. الحمام يشيع في سماره وردية يانعة، وهي تحممه باعتناء وحنان. وعندما انتهت جففت نفسها متأنية. قال الحفيد في نفسه إن المرأة كائن نبيل. وهي لاحظت في عينيه محبة، ربما بدأت تحكي من جديد حتى تبلل وجهها بالدموع، جففته وارتدت قميصا خفيفا، وقامت تمشط شعرها.

كان ذلك منذ سنين. وفي هذه السنين كانت المرأة تبعد عنه شيئًا فشيئًا حتى كره حقيقة أنه بمرور الوقت يكبر، وإن لم يفهم لماذا. ولما أدرك أنه ليس لديها تبرير لذلك لم يسألها، وإن أطاعها. لكن زيارته لها استمرت. وهو يتمنى أن يزورها الآن في غرفتها على السطوح. غرفة وحيدة في وقدة الشمس كالقبر، وهي معتمة من داخلها كالقبر. ودائمًا كانت تطن في داخلها ذبابة خضراء من ذبابات المقابر.

مشى الحفيد ناحية صوت التلاوة والنواح. أمام باب دار الميت خلق كثير في صفوف جنب الحيطان، قعودا يرتلون سورة الصمد. في وسط الدار المناحة، وفي المندرة جمع الفقهاء يخيطون الكفن. لكن الحفيد صعد السلم إلى الغرفة على السطوح، حيث الميت مغطى بملاءة بيضاء، وحوله دوائر النساء في الثياب السود حتى الحيطان. على العتبة كومة أحذيتهن. أخلى الحفيد لنفسه مكانا وجلس ساكنا. الندابة ناكسة الرأس، مستورة بطرحتها. صوتها غامض المأتى، فعال في القلب. ما تقف عند مقطع حتى تنطلق النساء صارخات، ومن ثم تعود ثانية إلى سطور البكائية.

حرير ثياب العزاء، ودفء الأجسام المتزاحمة، وسخونة الدموع والخدود الملطومة، البكاء وهزيم سورة الصمد الآتي من الشارع، أهذه الحياة الثرة أخصبها الموت المدثر بالبياض في وسط الغرفة؟ ثمة قرابة بين الزخم في هذه الحياة، في هذه اللحظة، وذلك الذي في الكتب في دار الجد. الترتيل والمناحة، العلم بالموت، صامت مترب هناك، وساخن نابض مبلول هنا. داخ الحفيد مما أودى به إليه الفكر. حن إلى المرأة زوجة الميت جالسة عند رأس الجثة تبكي، وتصرخ، وتولول. لكن الحفيد يجد في أعماق ذلك تلك النغمة الآسرة التي وجدها دائمًا في أحاديثها وحكاياتها. أنصت إليها بكليته. يود لو أنها بكت أبدًا أو تحدثت أبدًا.

لكنه يجب أن يقوم. نزل السلم إلى وسط الدار. مال على الغرفة حيث الفقهاء يخيطون الكفن. الفقهاء هم أكثر المعطوبين من أهل البلد عطبا، وأكثر المعلولين علة. يحملون في أجسامهم من الموت أكثر مما يحملون من الحياة. وعليه ففيهم جسارة، وفي سمتهم جراءة. ربما رسمهم هذا قسسا للمنون يستألفونه بالقراءة، ويتحسسونه بلا خوف، وربما في جذل. هم شيوخ الحفيد في الكتّاب يلتزم إزاءهم بالإنصات وحسن الفهم. خلع نعليه وجلس على الحصير، بجواره السلة التي فيها ما تم شراؤه من جهاز الميت. قماش من الحرير والقطن أبيض وأخضر، حرير ومخمل. ليفة ناعمة، وصابونة نابلسية، وزجاجة عطر. يجوس الحفيد بيده في السلة فتسري في بدنه لذة. الفقهاء يخيطون ويقرءون سورة ياسين. كل حافظ آية، ثم يقرأ التالي له الآية التالية. تتنوع الأصوات وتتلون القراءات في سياق السورة الواحد. وإذا كان الحفيد في الحلقة فقد جاء عليه الدور. قرأ: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً

وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾. فاجأه أن صوته عال، وأن نغمته حسنة. سوف يكررون السورة حتى تتم خياطة الكفن.

قام الحفيد خارجا. مضى في الشارع إلى الخلاء. يبتعد وراءه صوت التلاوة والنواح قال في نفسه إنها كانت رياضة في بستان الموت، كابوسية وملذة. ودَّ لو ضحك وأغرق في الضحك، أو قفز وتشقلب. هذا يكون أحسن ما يكون عند الجد. مشى السكة إلى المقبرة. هناك قبة سيدي قطب. الخطوة تقرب الماشي نحو المقام خطوة. حوله غيطان. الشواهد الطينية في سطور منسقة. هذا سجل مكتوب على هذه الصفحة من الأرض بحجوم القبور وقوائم الشواهد. في كنف سيدي قطب. هنا الأحفاد الموتى مثلما في كنف الجد في القرية الأحفاد الأحياء. على مقام القطب ذات المهابة التي على دار الجد. وقف الحفيد في مكانه. لم يقترب أكثر. أتراه يجلس القطب، الآن، تحت قبته بوجه شائه، ويدين طائشتي الأصابع؟ أتراه يقيد اسم كل وليد؟

دارت عينا الحفيد بين سطور القبور على صفحة الأرض. قلب الحفيد البصر بين القرية والمقبرة. هنا دار الذين ماتوا، وهناك دار الذين لم يموتوا بعد. ومن البيوت هناك تصنع القبور هنا. وذلك الصمت الموحش المسيطر، مصنوع من نسيج تلك الوحشة الضاربة أطنابها في عقول الأحياء، من الخواء في أرواحهم، من ذلك الفزع الذي يحجر العيون في المحاجر، ويشل الأيدي ويأخذ بخناق القلوب حتى لا تكون قادرة على الفرح. ما هو ذلك القدر الفاجع الذي تحاول دفعه الأيدى المشوهة للجد ولسيدي قطب؟ تطير الرياح في شسوع الزمام على رءوس الشواهد وسقوف الدور. تتسلط شمس

الظهر على الحجوم الطينية حتى ما تلقى حيطان الدور وحيطان القبور جنبها ظلا. قريتان توءمان، في البعد القليل بينهما يدور الناس دائخين، محاولين، في صبر، استئناس العماء بسر التلاوة.

الآن يأتي الرسل، رجال شمروا الجلابيب عن السيقان، وحملوا الفئوس على الأكتاف. وتقدموا مهمومين، لكنهم يخطون بلا تردد. تبعهم الحفيد. جلس يراقبهم على ظهر القبر، بين الصبارة والشاهد. هم يحفرون ويحفرون. تفزع الخنافس وديدان الأرض من المفاجأة. لكن الفئوس تعمل بلا تردد، حتى أصبح العمق مقدار قامة رجل. هنا بان الجدار. بدءوا ينزعون منه الطوبات واحدة وراء الأخرى، حتى تدورت الفتحة المؤدية إلى عرصة القبر، تخرج منها الرائحة القوية، والذبابات التي أفزعها الضوء.

هنا جمد الرسل أمام الفتحة المظلمة مبهوتين. إنهم غائصون في الحفرة حتى رءوسهم، يشرئبون متطاولين ويتلفتون بحثا عن اللحّاد. يطل هذا عليهم في مكانهم. خلف ملامحه الغليظة الجهمة ابتسامة يراها الواحد كما يرى المغمض الضوء. يسأل الحفيد نفسه، متفكرا، لماذا اللحّاد قادر - من بين كل الناس - على أن يرافق الذاهب المفارق في رحلته إلى أبعد مما يستطيع الآخرون؟ يلح السؤال على الحفيد، وهو يرمق اللحّاد، ولا يجد إلا الابتسام الغامض خلف الملامح الغليظة.

الآن يخلع اللحّاد مداسه. يضم الفردتين، النعل إلى النعل. يضعهما بأناة على حافة الحفرة. يمد يديه إلى الرسل. يسندونه حتى ينزل مستقرا على القاع. من جلوس يزحف داخلا إلى جوف القبر،

تسبقه قدماه الحافيتان. يناوله الرسل قصعة من تراب جاف. هو الآن يسوي فراشا جافا، ناعما، من أجل الميت القادم.

* * *

فالآن يسمع على البعد هزيم تلاوة جمهور المشيعين. ووقع خطاهم. وفي خلفيته صراخ جماعة النساء يعمق من جلال التلاوة ووقارها. والقبر مفتوح ينصت كما لم تنصت أذن من قبل. ذلك الباب إلى الآخرة. الآن في القبو المظلم يقعي اللحّاد منتظرا. إنها لحظة شديدة الوطء والغرابة. يتصور الحفيد أن جسم القبر فيه نبض وفيه شوق، قلب يظل يخفق حتى يزاح الغطاء عن النعش، وتمتد الأيدي تحمل الجثة تسلمها إلى الفوهة المظلمة.

وإذا تم ذلك حل الصمت، لا يسمع غير صوت الشمس الظهرية تضرب في يوافيخ الرجال، تحت تقاياهم من صوف الغنم الأحمر، وهم شهود ينظرون. ومن الجمع الواجم تسلل فقي حافظ، مشى إلى ما خلف القبر، هنا أقعى في مسكنة يستر رأسه من الشمس بمنديل، كأنما يستر به حديثه إلى ساكن القبر الجديد. وإذ خرج اللحّاد أهيل التراب حتى ردمت الحفرة، رتق الفتق بين الموت والحياة، لحظة من الإدراك والحكمة وزوال الخوف، وإن بقي وجه الأرض يحمل الندبة.

مضى الجميع ناحية القرية، وبقيت المقبرة وحدها في صمت. ما زال الحفيد قابعا على ظهر القبر. الشمس تخبطه على أم رأسه بلا هوادة. يتأمل ظهور الماضين وأقفيتهم. دائخ، وقلبه منقبض. ربما يعلم الراجعون ببقائه هنا، يرمقونه بحذر، ويرتابون به. هو يحلم،

أم يهرف من الحمى؟ أم أن ما يراه حق؟ وهذه هي تلك اليد الأنثوية ممسكة بكرة صغيرة من الحديد على باب الجد. أضربته الشمس أم ما يراه حق؟ يحس عتامة غرفة الجد ورطوبتها، ويرى الجد. يجلس قبالته ممتلئ القلب والعينين بالدموع.

الرحلة إليه اليوم لم تكن شاقة، ولم تأت من أعماق الدور تلك الأصوات المسمومة بالضغينة والبغضاء. النساء اجتمعن، القلب على القلب، الحزن على الحزن، القهر على القهر، لابسات الأسود، مجروحات الخدود، يبكين على الميت بدموع ساخنة. ثم قامت زوجة الميت. جاءت لتجلس قدام قبر زوجها تؤنسه في ليلة وحدته الأولى. إنها رقيقة وعذبة. ترى الحفيد، تأخذ وجهه بين يديها، يحس سخونتها. تسيل دموعه على أصابعها.

القبـر

جوف مظلم رطب عطن، تطن فيه الذبابات، ويسمع القلب دبيب الهوام الغامض في الجحور والشقوق. اللحّاد جالس القرفصاء في الظلمة. من مجلسه يتحرك بحذر. أنفاسه رتيبة، وكفاه تتحسسان الأرض من حوله حتى يصطدما بعظام ما زالت تعلق بها فلذات لحم، وبقايا كفن. يزيح اللحّاد العظام في رفق ليفسح مكانا للميت الجديد. يزيحها في رفق وتؤدة، إنها عظام رجل عرفه وجاوره العمر كله. كانت بينهما المودة. وكان بينهما الخصام، ثم مات، وهو الذي لحده بيده. وحينما علم بميت اليوم عرف أنه

سيدفن في هذا القبر، وأنه سيكون لازما أن ينحي الجار القديم قليلا ليفسح مكانا للميت الجديد. وعليه فقد قال اللحّاد في نفسه: نعم، سنراه اليوم بعد غيبة طويلة. الواحد في الحقيقة يشتاق للناس، طابت صحبتهم. أم كانت نكدة.

يزيح العظام برفق. كأنما يشم ريح الجار القديم. ويجد إقباله عليه من بعيد. يطلب له الرحمة.

يضحك اللحّاد ضحكا خافتا وهو في جوف القبر يقول وهو يكلم الجثة مواسيا: الآن يأتيك رجل أنيس ليرقد إلى جوارك. سيحكي لك طرفا من خبر الدنيا، أقلها سيفرحك، أعرف، وأكثرها سيغضبك، فأنت رجل قليل الصبر على حماقات الناس. ضحك مرة أخرى ضحكا واهنا. سوّى بكفيه مكانا للميت الجديد. قال يكلم نفسه: لا ينبغي أن نترك تحت جنبه حصوة تظل تؤلمه إلى يوم القيامة.

استدار اللحّاد في مجلسه، واستلم الجثة من الفوهة، يحملها على يديه حتى يريحها ممددة في المكان الذي سواه بيديه. القدمان ناحية القبلة والكفان على الصدر. فك خياطة الكفن، نعم، على الفور سوف تنتفخ البطن وتتورم الأعضاء، فإذا ضغطها الكفن يكون عذاب يجب أن يرحم الميت منه. ها هو ذا مات هو الآخر. بموته تنقص من دنيا رفاقه قطعة، يستوي أن كانت بارة أو كانت شقية، النقص في الحالين مؤلم. نعم، والواحد يظل يقدم العزاء ويستلم العزاء، ويمشي في الجنازات، ويلحد الموتى حتى يكون مشوار إلى القبر لا يعقبه عناء الرجوع. جلس القرفصاء عند قدمي الميت وقرأ. بعد انتهاء القراءة بقي هنيهة صامتا، ثم قال في نفسه: لا محيص عن الخروج.

يسد اللحّاد فوهة القبر بالطوب، طوبة بعد طوبة. يزداد جوف القبر كل مرة عتامة، وتتلاشى منه رويدًا رويدًا تلك اللمعة الواهنة، ويكون ظلام تام. عندئذ ينبض في الميت وعي غامض متحسس لما حوله. يأتيه صوت الملقن: «يا عبد الله، يا بن أمة الله، توفّاك الله». وذلك إذن هو الموت. مضى صوت الملقن: «يا عبد الله، ذهبت عنك الدنيا، وأنت الآن في برزخ من برازخ الآخرة». عينا الميت كتلتان من خبص بلا حياة، لا تتحركان، ولا تنفتح عنهما الأجفان، لكنه يرى، يرى برزخه الذي هو من برازخ الآخرة.

القبر والقبو المتقوس فوقه. الطوبات الرطبة، وما تراكم عليها من طبقات سوداء شحمية. ما بين الطوبات من جحور الحشرات والهوام، تفجؤها رائحة الميت الجديد فتمضي تقلب فيما حولها أدوات استشعارها، وتتأهب لرحلة الاستكشاف الواعدة بالشبع. ثم إنه رأى جوف القبر يعبق بالذبابات العمياء ترهف السمع، وتمضي على هدى أذنيها.. الأرض حواليه تراب رطب مدهن، فيه حصوات وبقايا عظام. عن يمينه ويساره الموتى الذين سبقوه. قماش الأكفان اسودَّ وتهتك عن جماجم وهياكل عظمية لا تزال عليها لطخ من لحم متعفن أو جاف. عرف الناس. أي اجتماع هذا يسوده الصمت والدهشة. غاب صوت الملقن، وهو لم ينشغل بغيابه طويلا.

شغلته آلام بدأت في بطنه، وصدره، ورأسه، وساعديه، ورجليه. آلام في كل خلية وعرق من كيانه، استشرى الألم حتى أصبح عذابا يرى بصماته على جثته الممددة. انتفخت الجثة حتى لتكاد تنضو عنها لفائف الكفن. تورم الوجه واسود لونه، طمست العينان واختلطت

الملامح. تعفن اللسان والشفتان. نزفت المخارج وعبق القبر برائحة بشعة. هاجت ذبابات القبر دهشة. الجسم يترمم. ينهدم ذلك النظام البديع للخلايا التي فقدت الحياة في اللحم والدهن والغدد، في القلب والمخ والكبد والرئتين. تتهرأ العروق وحبال الأعصاب وضفائر العضل. خرجت ديدان دقيقة من شرانق كأسنان الإبر، وأقبلت تنهش في رميم الأحشاء.

ذلك هو الموت إذن. ألم فادح، وهو لا يستطيع أن يصرخ، ولا هو بمستطيع أن يتقلب أو يقوم، لكنه يرى. يرى وجهه الذي يحمل قناع الموت البشع. ومن وراء هذا يرى وجهه وعليه وضاءة وفيه وسامة نورانية. لمحة كتلك التي تشرق في وجه عالم حافظ عارف بما يسأل عنه، يرى قلق السائل وتوزع نفسه، فيطل عليه بوجه فيه وسامة المعرفة. عرف الميت هذه اللمحة من الوسامة وفتن بها. الآن يراها في وجهه فلا يدهش ولا يفرح، بل يساوره يقين عميق بأنها هي الأصل، وأن غيرها كان عارضا.

ذلك هو الموت إذن، ألم ساحق حاصله تحرر الكيان من عنصر الجسد، وبه يتحقق التحرر من النقص، ذلك الذي شرطه الجسد، والذي هو شرط وارد على الجسد. سقط الشرط والمشروط، فانتفى القبح، وتألقت القدرة على الرؤيا. رؤيا ليست هي الرؤية المتحققة من سقوط النظر على المنظور كاشفا ما يواجهه منه، بل هي إدراك المرئي كله: ظاهره وباطنه، في حركته وسكونه إذا تجريان حسب قوانين وجوده، بلا حفز ولا تثبيط. رؤيا تزداد صفاء ودقة وشمولا كلما اقتربت من الكمال براءة الكيان من مادة الجسم.

حينئذ حضره العمر كله على ظهر الدنيا، كل الأشياء، ما تحول منها وما زال باقيا، كل الأوقات، ما انصرم منها والذي ما زال بعد حاضرا. كل الناس، من مات منهم ومن لم يزل بعد على قيد الحياة. حضور مطلق منفي عنه القسر أو الابتسار أو الإخلال بالأنساق، حضور لا يثير دهشة، ولا يصنع فرحا، ولا يؤجج شماتة ولا ندما ولا حفيظة، بل يكون معرفة.

رأى ليل قريتهم منورا بنجوم زواهر، متقببا على بيوت ضمت في حناياها هجوع الخلق وسكن الأشياء. ورأى أمه راقدة في الغرفة جنب جدته في بيت خاله. في ساعة من الساعات التي أرقها فيها الفكر. زوجها اختلف مع أخيها، والخلاف تطور إلى نزاع أصبح عداوة لدودة وصدعا يستحيل رأبه. ولما كان عرف الناس يفرض على الأخت أن تلزم جانب أخيها في خلافه مع زوجها، ظالما كان أو مظلوما، فقد فعلت، وتركت إلى دار أخيها زوجا في بطنها منه جنين، وأيامها معه أحسن أيام عمرها.

كانت الأم عطوفة الوجه ناعمة اليدين. كانت في العشرين من عمرها حينما تزوجها الأب الذي كان في الرابعة عشرة من عمره. وقد أمكن الأم أن ترضي في رجلها الصغير مشاعر رجولته المبكرة، بأن كانت له أمام الناس زوجة مطيعة توقره، وفيما بينهما كانت له أما رحيمة وأختا بارة، وفي الليل أمتعته بنفسها، وأعطته نعومة جسمها وعطش روحها. والناس شهدوا للزيجة بالنجاح. والحول حال على الزوجة، ثالث مرة، وفي بطنها من زوجها جنين. ثم كان الخلاف. جرت الحبلى بين دار زوجها ودار أخيها، مصروعة بالخوف واليأس،

تريد أن تضم الجانبين قبل أن يبتعدا بلا أمل في الاقتراب، لكن لا محالة.

في ذلك الوقت كان الميت نطفة تتخلق في بطن أمه، وهي راقدة جنب الجدة، في الغرفة، في بيت الخال. يرى الجسد المطروح. يرى هموم القلب وأرق الروح وعجز العقل. يرى الدم في العروق، وإفراز الغدد، وأخلاط العصارات، ونظام الأعصاب. الخوف والحزن يسري في الكيان المحطوم على الفراش حتى تضطرب وتتشوه فيه كل نشاطاته الحيوية.

في الوقت ذاته كان الخال يرقد في غرفته جنب زوجته، تحرق كبده كراهيته لزوج أخته وابن عمه. يهون عليه أن يموت ولا تكون أخته متعة لعدوه هذا في الليل. وخادمة في النهار. وفي الوقت ذاته كان الأب يرقد في غرفته وحيدا، إلى جواره فراش زوجته الخالي، ينظر إليه ويتمزق ألما، لكن الموت أهون لديه من أن يعتذر لابن عمه، ويطيب خاطره، حتى يأذن هذا بعودة الزوجة بحملها لدار زوجها. يشمله الليل ويشمل الجدة التي تتعذب بعذاب ابنتها، ولا تعرف سبيلا لشيء. كلهم ينتظر مولودا يسري إلى جسمه التلف من جسم أمه، حتى يولد معلولا علة تبقى تشوه قدر حياته حتى يموت.

الآن يعرف الميت أن خاله كان يحبه، وأنه كان يتمنى أن يتخذه ولدا، فهو لم يعقب سوى بنت واحدة انعدم رجاؤه في خلف غيرها. لكن الخال كان يرى شبه ابن الأخت بأبيه، ويعرف أنه صائر له على أي حال. يعرف هذا فيعميه الغضب. ويعصف بأخته وبابن أخته. ينام الطفل جنب أمه في الليل، يرى عينيها اللتين ماتت فيهما كل

فرحة، وجسمها الذي يذبل كل يوم. يرى حالها فيكره خاله كراهية مرة، وينتظر يوما يأخذهما فيه الأب إليه. لكن الخال يطلق الأخت من زوجها بأمر القاضي. وفي اللحظة ذاتها التي سمعت فيها الأم نطق الحكم بطلاقها، نشبت جرثومة السل في رئتها. وفي عام كانت قد انهارت أمام جيوش الميكروب التي نشبت في رئتيها وماتت.

ماتت الأم، لكن الطفل يحمل في جسمه ما كانت عليه من العجز والرعب. بل إنه يحمل في جسمه أباه وخاله وجدته، ما هم عليه من التمزق، وما يعصف بهم من مشاعر، وما يكبلهم من عجز، يحمل الطفل ميراثه الأليم، ويضرب في جنبات دار خاله. حتى سأله القاضي بعد ذلك بأعوام إن كان يعرف أباه ويحب أن يعيش في كنفه. أجاب صارخا نعم. وجرى فألقى بنفسه في حضن أبيه. أخذه الأب إليه. أحبه كل الحب. أخذه معه حيث راح في النهار. وأوسع له في فراشه في الليل، يوسده ذراعه ويبقى ساهرا يرعاه، وهو فرحان بأبيه وبخروجه من دار خاله. الآن يعرف أن الخال كان يقضي الليل فريسة للحزن.

ماتت أخته وأمه، وخرج ابن أخته، وبقيت له ابنة معلولة، وزوجة لا يسعه أن يضع في رحمها خلفا آخر.

يحس الابن أرق أبيه في الليالي تشوب سعادته المخاوف. يخاف على حبها ولا يعرف مأتى أرق أبيه. الآن يعرف بأن الأب الذي هو دون الثلاثين كان يرغب في الزواج. ولقد فعل. يرى الميت الآن نفسه وقد نام جنب أبيه على سرير العرس الكبير من النحاس الأصفر. ومن خلال نسج الكلة الشفيف يرى جنب السرير دكة عليها حشية ووسائد، وعلى الأرض بساط، وفي أقصى الغرفة خزانة بمرآة كبيرة.

لكنه في الصباح وجد نفسه نائمًا على الدكة، بينما أخذت زوجة الأب مكانه على السرير. في تلك اللحظة نشبت في صدره لها كراهية بقيت فيه أبدًا.

الآن يراها راقدة على الدكة جنب السرير يجافي النوم عينيها، ترقب في خوف تلك اللحظة التي يدعوها فيها زوجها إليه. إنها لم تحب الرجل أبدًا، أبا كان أو أخا أو بعلا. كلهم أهانها. وما كانت لتتزوج لولا أن قسرت. وهي إذ لم يسعها أن تنجو من مذلة الزواج بجسمها. نجت بروحها، وأسلمت لزوجها جسدا باردًا خاليًا من الاستجابة، كأنه لا يخصها.

ثم أرسله أبوه إلى المدرسة في عاصمة الإقليم. سكن مع باقي الأعمام في غرفة علوية في بيت قديم. كان السلم النازل إلى فناء البيت مظلمًا في رائعة الظهر. وفي الفناء الذي ينتهي إليه السلم بئر لجلب الماء ومرحاض. والفناء مظلم رطب عطن مبلول دائمًا. كان يصدق ما يقال من أن الفناء معمور بالجن الكفرة. الآن يعرف أن الظلام، والرطوبة، والعفن، والروائح الكريهة، وأنفاس البناء القديم، وتقلص ترائبه، كل ذلك كان بجوف الفراغ، ويجعل له على الدماغ وقعًا شديدًا. ولما كان هو واهن بنية المخ والعصب، فقد كان فعل ذلك كله عليه عجيبا يعرف ذلك الآن، ويعرف أنه لم يسلم من هذه التجربة عمره.

وفي المدرسة كان المعلم رهيبا. وكان هو قرويا هيابا مرتبكا، فأصبح فريسة لعصا معلمه لما يعرف أو لما لا يعرف من الأسباب، حتى قرر أن يفر. مشى إلى القرية عشرة أميال على قدميه، يحفزه الشوق إلى أن يلقي بنفسه في حضن أبيه. لكن الأب اسود وجهه من

الحزن حينما رأى عودة ابنه الخائبة، وأمر بإعادته فورًا. وفر الولد مرة أخرى إلى القرية من بطش المعلم، وعفاريت البيت، وأيضًا ليبحث عن حنان أبيه المفقود. لكن هذا الحنان من تكرار الخيبة والفرار، فقد إلى الأبد، وظل الولد يبحث عنه بلا جدوى إلى الأبد.

لم يبق أمامه، وقد فشل في المدرسة، إلا أن يعمل في الحقل. ولا سبيل إلى أن يفهم الأب أنه لم يكن يستطيع أن ينجح. يمضي الابن سارحا إلى الحقل كل صباح وفي ظهره عينا أبيه المغمضتان كراهية وحزنا، بهما يستقبل ابنه عندما يعود في المساء. وهو لا يعرف فرارًا إلا إلى هذا الأب. يفزع إليه مما يعانيه من ألم. يصطدم بصمته الكظيم، إصراره الذي لم يتزحزح، على ألا يغفر للابن فشله في المدرسة.

في الحقل كان يقابل ابنة خاله كثيرًا. يراها الآن طويلة، ناحلة، ناصعة البياض، أثيثة الشعر. تبتسم له وتحضه على أن يزور خاله المريض. يتصور أن هذا تعبير عن شغفها به، وهو شغف يمقته في النساء. رفض بإصرار دعوتها له ليعود أباها. الآن يعرف أنها لم تكن تحبه. إنما كانت تحمل سفارة من الأب. وكلما أمعن هو في رفض هذه السفارة ازداد بغضها له، وهي ترى أباها يقترب من الموت كل يوم، مشتاقا لابن أخت يجحد خئولته.

يرى أماسي تلك الأيام في المقهى مع أصحابه من أبناء القرية. كلهم كانوا مشغوفين بابنة حارة الفقراء. كانت هذه الفتاة خارقة الجمال في عرف الناس على ظهر الدنيا. وكانت حسنة الحديث، لبقة العبارة. يزعم كل شاب أنها كلفة به. الآن يعرف. يراها وحيدة في قلب الليل، يقظانة، والكل حولها مغرق في النوم. تحلم بالزواج من

ابن رجل ميسور من أهل القرية ينقلها من حارة الفقراء إلى ظهر البلد، حيث يكون لها دار وبهائم وعيال.

لكن واحدًا من الشبان لم يعرف حلمها أو يهتم به. وكل يحاول أن ينالها. وقد كسبها هو. ورمز ذلك أنها أسلمته جسدها. يرى الآن رفاق الأماسي في المقهى. أظهروا له الإعجاب، وأخفوا احتقارهم الشديد له. فقد وصل إليها بما وعدها بالزواج. ثم بدأ يتنكر لها. تحققت البنت أنه لم يكن جادا في وعده. وإذ بدأت تحس بجنينها غادرت القرية في الليل إلى غير رجعة.

وبعد فرار البنية عاش بإحساسات مضطربة من الفخر والخزي. يعود بالبهائم من الحقل عند الغروب، ليبدأ عسفه المسائي بزوجة أبيه. يهينها بالشتائم إلى أقصى ما يحتمل الإنسان. وهي تنافح عن نفسها بكل ما فيها من عزم. يأتي الأب يكفهما، لكنه ـ وهو الأب الكبير ـ لا يأخذ جانب أحدهما، ولا يعنيه حقًّا أن يقطع دابر تنازعهما. يرى الابن الآن أن الأب كان يخفي بذلك الترفع إحساسه المرير بالهزيمة أمام جسد زوجته الجميل المفعم أمام هيامه بالبرود، وعدم الاستجابة.

عرف الأب أرملة في القرية واتخذها خليلة. كان هذا أشد ما تعرضت له زوجة الأب من الإهانة. بكت كثيرًا، وتألمت كثيرًا. وهو فرح بهذا شماتة فيها. يرى الآن ذلك الثالوث البشع، الزوج والزوجة والعشيقة، وكلهم كان بائسا تعسا. الأب يبحث عمن ترضي رجولته، والأرملة تريد الخروج من وحدتها القاتلة بعد موت زوجها. والزوجة تتعسها الإهانة، وتخاف على بيتها وأولادها. وقد

وجه لها في محنتها أقصى ما يمكن من إهانة، بالتذاذ وتشف، وأصبح يود الأرملة نكاية بزوجة أبيه، وإيغالا في إيذائها.

قرر الأب تزويجه من ابنة الأرملة، دهش للقرار، فلم يكن قد التفت للبنية قبل ذلك أبدًا. كان واضحًا أن الأب يبحث عن مبرر للتردد على دار الأرملة، دون إثارة الأقاويل. بدأ يراقب الخطيبة في سروحها ورواحها. ومرة رآها راقدة على الترعة، في ظل شجرة آمنة في هدأة القيلولة من العابرين، متخففة إلا من قميص. كان جسدها بديعا. لكنها لم تحرك فيه شهوة، بل اشمئزازا عميقا يعرفه الآن، ويعرف أنه بقي معه إلى آخر أيامه معها.

ذات اليوم قابل ابنة خاله، وحدثها عن رغبته في زيارة أبيها، وأنه سوف يخطبها منه. وتقول البنت إن ذلك أصبح مستحيلا، فقد خطبت لآخر. ساعتها تصور أنها حزنت لخطوبته المتأخرة، الآن يعرف أنه حضرتها صورة أبيها الذي يحتضر في الدار دون أن يرى ابن أخته. وأنها أبغضته كما لم تبغض أحدًا في الدنيا، لأنه ضن على خاله المريض بالزيارة، وأنه يخطبها دون أن يفكر قبل ذلك في إرضائها بزيارة خاله حتى كرامة لها. لكنه لم يعرف ساعتها كل ذلك، وبقي يحمل في قلبه حب ابنة خاله حتى آخر يوم من أيام حياته، بعد أن أرغمه أبوه على زواج ابنة الأرملة.

يراه الآن ليلة دخوله بها. أمها والقابلة فرجا له بين فخذيها ليدب أصبعه في فرجها يزيل بكارتها. لقد صرخت صراخًا هائلاً ظنه ساعتها، غنجا ودلالا، لكنه يعرف الآن أن أصبعه آلمها ألما فظيعًا، وأنها كرهته في تلك اللحظة كراهية بقيت إلى يوم موته. كان يشمئز

من شهوتها العارمة. كان يظن بها الظنون. الآن يعرف أنها لم يكن في حياتها رجل غيره، ولم تكلف إلا بالولد الصغير، تحكي له ويحكي لها ساعات. وهو يقضي الساعات الطوال حزينا على ابنة خاله التي قرر ألا يراها أبدًا، وحافظ على قراره حتى مات.. الآن يعرف أنها كانت تحب زوجها، وأنها كانت سعيدة بأولادها.

لكن صورتها محبوسة في بيت زوج لا تحبه، مفطورة من محبتها له، هذه الصورة كانت ملء روحه ليلة دخوله بزوجته. وبعد أن خرجت الأم والقابلة بالمنديل الملطخ بالدم، وتكومت الزوجة على الفراش تعيسة مكسورة، خرج هو من الدار إلى المقهى. ذهل الصحاب من عريس يترك عروسه ليلة العرس. أعجبوا بالقدرة على ضبط النفس، والتعالي على المرأة، وهو استمتع بالإعجاب صامتا. الآن يعرف أن زوجته ظلت تعاني مما لحقها من عار سنين طويلة.

عاش مع زوجته في شقاق وكراهية مريرة، وهو يتقدم في السن إلى الهرم. قرر أن يستقل عن أبيه بدار ومعاش وأرض وبهيمة. يعرف الآن أن أباه ارتعب من هذا القرار، تزلزل خوفا على تدهور زراعته بخروج ابنه من كنفه، لكنه ظل صامتا لا يقول شيئًا. يومها كان يعرف أن خروجه قد يحطم أباه العجوز. عرف هذا وأصر عليه حتى يرغم العجوز على الاعتراف به، برجولته وبضرورة وجوده، لكن الأب لم يفعل. ظل ينهار يوما بعد يوم حتى مات، دون أن تخبو تلك الكراهية في عينيه إذا ما رأى ابنه قادما.

وبعد أن مات الأب أحس أنه ينقص وينقرض من داخله، وأن جسده يذوب. انتشرت القوباء في جلده. تدهورت وظائف أمعائه

وكليته ومخه. تعلق بابنته الوحيدة تعلقا شديدا. بدأت تراوده حالة من الانجذاب إلى التدين. يبقى في المسجد ساعات طويلة مغرقا في الصلاة، مهملا زراعته وداره ومعاشه. يتردد في الأماسي على حضرات الدراويش. يقرأ حتى يغيب، ويذكر حتى تنتابه حالة تشبه الصرع، فيأكل من تراب الأرض. يهوي من يوم إلى يوم حتى قرار القبر.

الآن عرف ما لم يكن يعرف، وأحاط بكل شيء علما. وهو لم يفرح بما عرف، ولا أعطته إحاطته إحساسا بالتفوق. لم ينقم على ما كان، ولا سره شيء، ولا أحزنه فقده. إنه عرف فقط. وعليه فهو غير الذي كان لا يعرف، الذي كان معذبا بحرد الحب، معذبا بحرد الكراهية مخبوطا بالذعر. عاش عمره خائفا خوفا شاملا من خطر محدق محيط لا يعرف كنهه، لكنه يحسه يقترب ويتهدد، يخنق كيانه في كل ناحية يحاول فيها هذا الكيان أن يتحقق. الآن استؤنست المخاوف، وهجعت، وأصبحت قرارًا واطمئنانًا عميقًا عمق الموت. إنه الموت.

لقد جاء إلى الدنيا بتكوين شائه عاجز. ولم تكن الدنيا بقادرة على أن تمرض هذا الكيان وتعنى به. وتجنبه أن يصاب بالضرر، وتجنبه أن يصيب بالضرر. بل إنها زادت نقصه حدة. وعليه فقد بقي دائرًا بين عنف الحب وعنف الكراهية، وهما عاطفتان جوهرهما واحد هو الخوف. فهما في الحق انفعال واحد جارف يختلف اتجاهه، لكنه لا يكون أبدًا غيرية، أو أثرة، أو مراعاة.

الآن يعرف فينفي عن كيانه العذاب. بل إن هذا الكيان يصبح جزءًا من كل أشمل، تتساوى معرفته بكل جزء من أجزائه، ويتوزع علمه على كل دقائقه بالتساوي. معرفة لا يشوبها ظل الخفاء، أو الجهل، أو القصور، تلك الظلال التي هي مأوى التساؤلات والتشكك

والارتياب والحيرة، التي تولد القلق واللهفة والخوف، فهي معرفة ليست حاصلة من النظر الذي هو مغالبة العجز، بل من زوال العجز وحصول الموت.

* * *

الآن تلاشت من بدنه كل صورة من صور الحياة، حتى النُّوية في خلية في نسيج في عضو من الأعضاء، أو حشا من الأحشاء. وبذلك ذهبت الآلام. وأصبح الصفاء كاملا. وكأنما قوس القبو المنكفئ على القبر يعلو قليلا قليلا، وتتسع من جوانبه آفاقه. يتم هذا ببطء وبلا تردد، حتى تبتعد جدران القبر لتشمل مقبرة القرية كلها. الآن هو صعيد واحد محشود فيه كل الموتى.

يعرف من رأى من الناس ومن سمع به. امتداد هائل من رقود، كأنها الهدأة قبل الفجر في باحة المولد الحاشد. وثمة حالة الموت والتحلل، وثمة حالة الحضور المتحقق بالموت. وثمة تواصل كتواصل دوائر الضوء من عديد المصابيح. ثم تتسع الآفاق من كل الجوانب. محيط من ضوء فجري يحيط بالدائرة الغسقية.

أولئك الناس الموتى الذين ما رآهم ولا سمع عنهم. الآن تسقط الحدود، وتتسع الآفاق إلى ما لا نهاية له من ضوء فجري لا مثيل لحسنه في فجر يوم صيفي. إذ ذاك يعرف أن هذه الآفاق اللانهائية تحيط بدنيا الأحياء إحاطتها بدنيا الموتى، كما تحيط الحديقة البديعة بدار ذات طابقين: واحد لمن مات، والآخر لمن لم يمت بعد.

الآن ما عادت المعرفة جزءًا مضافا للكيان، بل إن الكيان ذاته تحقق للكيان الأشمل، واحتواءٌ له، فهو في ذاته معرفة، والرؤيا حقيقة

معاينة، والشوق مسرة، والخوف أمان وقرار، والتعلق وصال. فليأت الملكان طالعين من الكون الأشمل، فقد جفت الأقلام وطويت الصحف، والحدثة أصبحت الصورة، والصورة رفعت إلى الكلمة، والكلمة هي السر، مفاتيح الأبواب ومغاليقها، تملك الإنسان حتى يموت، فإذا مات ملك السر. سقطت الأستار وانتفى العماء، وكان النور. وها هما الملكان قادمان.

الملكـــان

كيانان شامخان يفيضان نبلا. منفي عنهما أي نقص خلقي. الوجهان وضيئان. الرأسان عليهما أجمتان من شعر. اللحى سابغة، والابتسام رضي، والثياب بيض، والأذرع تتطوح في سلاسة لا قلقة ولا متوترة. يمشيان حافيين، لكن أقدامهما لا تحمل من الأرض وسخا. إذا حاذيا الميت أقرآه السلام.

الملكان : السلام عليك أيها الميت.

الميت : وعليكما السلام أيها الملكان، كنت أظن أن لغة القبر سريانية.

ذلك بأنهما إذا سلما لم ينطقا حروفا، وهو لم يسمع منهما أصواتا، إنما هي نية ودود، عذبة، أدركها الميت وهي بعد رجفة تشمل روح الملكين، وتحدث في روحه سرورًا يكون هو رده على تحيتهما.

ناكر : لم نعجب أنك لم تظنها اللاتينية مثلا. إنما إعجابنا هو بتنزيه لغة القبر عن اللغة اليومية المعتادة.

نكير : ومن حيث إن اللغة تولد أولا في الوجدان رؤى معبرة عن رغائب أو مخاوف أو غيرة، تنزل إلى الدماغ الحافظة باحثة في محفوظه عما يلائمها من تراكيب اللغة. وغالبا ما تكون تراكيب أقل دفئا ودقة، تعاني مرة أخرى النقص والتشوه عندما تتحول إلى أصوات، وإيماءات، دائرة بين القائل والسامع. لهذا كان الحق أن تكون لغة القبر رؤى الوجدان قبل أن تجرب النقص والتشوه.

الميت : الحديث منفي عنه إذن نقص الجسم.

ناكر : ومنفي عنه أيضًا صفة الحساب والمساءلة عن الإحسان والإساءة.

نكير : لكن من حيث إن كل فعل إنساني يتضمن بالضرورة، في ذاته، الحكمة منه، فالإنسان في حالة تمحيص دائم لأفعاله حتى يدرأ الاختلال بين الفعل وحكمة الفعل. تلك هي المسألة.

الميت : تعني بذلك النظر العقلي.

ناكر : إن العقل أحد إمكانيات الجسد، يرد عليه ما يرد عليها من شرط العجز.

نكير : والعقل الجمعي كذلك يرد عليه ما يرد على الجماعة من أوقات الانحلال، أو حمق القوة والبطش.

الميت : إنكما ترفعان الحكمة فوق العقل إذن.

ناكر : إنني لم أتحدث عن العقل، بل عن عقل الفرد المعين في

الظروف الإنسانية المعينة، أو عقل الجماعة المعينة في ظروفها الإنسانية المعينة.

نكير : ولم يجر الحديث عن الحكمة، بل عن حكمة فعل محدد في ظروف محددة.

الميت : إنه النظر العقلي في نهاية الأمر.

ناكر : بل التأمل، محاولة استكناه الاتجاه الحقيقي لنبض الذات، في حالة تحرره من الخوف أو الطموح أو الشهوة.

نكير : واختيار الفعل أو الامتناع الذي يؤكد وجود الفاعل ولا يحظر ترقيه، ويؤكد وجود الآخرين ولا يحظر ترقيهم.

الميت : الحساب منتف إذن، وعليه فالعذاب منفي بالضرورة.

ناكر : فلا يكون قبض، بل فهم.

نكير : وحتى تكون مستويات علم المشتركين في الحديث متساوية، فقد كان شرط اشتراكك في الحديث موتك.

الميت : إذا تمحض الأمر إلى حديث ثلاثة أنا ثالثهما، فما هدف الحديث؟

ناكر : قياس المسافة بين الفعل وحكمة الفعل.

الميت : وما إذا كانت الأفعال مطابقة للشرع؟

ناكر : إن الشرع أيها الميت من الأمور التي يجب أن نمحصها.

نكير : بهذا تتحول القاعدة من نموذج أعلى من التأمل إلى محل لهذا التأمل.

الميت : إنها تفقد استقرارها إذن، تفقد قوتها الملزمة.

ناكر : وتكسب قوة ملزمة جديدة متحصلة في كون القاعدة حافزة للفطرة، وليست جابَّة لها.

نكير : هذه القوة الملزمة لا تكون آتية من فرض السلطان، بل من رغبة الخلق في الالتزام بالقاعدة. بهذا تتميز الأفعال بفاعلها ومحلها، بالظروف المحيطة بالفعل والفاعل والمحل، لا بنموذج أعلى للسلوك مسلم وملزم.

ناكر : فلا يكون الفعل الأنموذج، بل الإنسان الأنموذج.

الميت : فما هي غاية الحساب إذن؟

ناكر : هذا الإنسان، وإلى أي مدى تحقق؟ وكيف عجز عن أن يتحقق؟

نكير : أي إنه في كل مرة يكون السؤال عن جحود الإنسان لصوت داخله، أو إساءة الإنصات إليه. ذلك الصوت في صورته النقية، وقبل أن تشوبه الشوائب، أو تزيفه الظروف هو ذلك المقدار من الموت الذي تحتويه الحياة.

الميت : الموت، حين يكون استمرارًا للحياة.

ناكر : وعليه فليس ثمة ضبط للوقائع، بل قراءة لها.

الميت : البحث عن الموت تحت أكوام العجز، ورداءة الوقت والناس.

ناكر : والنظر في فداحة الاختلال بين الفعل وحكمته.

نكير : في انتقال الفرد من الإنسان الحق إلى الإنسان الدور أو الوظيفة.

ناكر : وما يكون في ذلك من مسخ للفطرة.

الميت : يكون من أول المهام إذن أن نرى كيف نفهم الفطرة.

ناكر : إنها رغبة كل كائن في البقاء والترقي، بدءا من أكثر صور الحياة بُدائية.

الميت : وهي المزاحمة حتى يكون شرط بقاء الواحد قتل الآخر.

ناكر : الصحيح أن نفترض أن المزاحمة هي الصورة البُدائية الشائهة لهذه الفطرة.

نكير : ثم تتجه الفطرة لتصحيح ذاتها، حتى يكون كمالها في الإنسان الذي يكون شرط بقائه وترقيه بقاء الآخر وترقيه أيضًا.

الميت : حتى ولو كان الآخر صورا أخرى من صور الحياة؟

ناكر : نعم، إن شرط بقاء الإنسان وترقيه هو بقاء صور الحياة الأخرى وترقيها.

نكير : وبُدائية الفطرة عند صور الحياة غير الإنسانية لا يكون مبررا لقتلها وإبادتها.

ناكر : استنكار كل صور القتل والإضرار هو جوهر كل شريعة.

الميت : هكذا تكون الشريعة تعبيرا عن الفطرة.

ناكر : في لحظات باهرة من تاريخ الإنسانية.

نكير : حيث يكون الانطباق تاما بين الشريعة والفطرة.

ناكر : ذلك هو الزمن الذهبي لكل رسالة.

نكير : تحقق الشريعة عبقرية الفكر الإنساني، وتحقق النبوة عبقرية الإنسان الفرد.

الميت : إن ذلك يبدو رائعًا حتى ليغدو مخيفا.

نكير : إنه رائع حقًا حتى ليؤدي إلى إضفاء القداسة على الشريعة، والمعجزة على النبوة، وسط تهليل المؤمنين.

الميت : إن تقديس النصوص والإيمان بالمعجزة هي أمور لازمة.

نكير : الأحرى أن تقول إنها ضرورات أملاها الخوف، الخوف من فوات لحظة الانطباق التام بين الشريعة والفطرة، الخوف من تحرك الزمن بناسه أسرع مما تتحرك الشريعة، لذلك تقف في وجهه هذه الحركة بقدسية النصوص، ونظريات التحريم والعذاب.

الميت : بغير هذا يتحول الكتاب المقدس إلى ديوان من دواوين الشعر.

ناكر : إنه لكذلك في يد عبدة صالحة تقرؤه في الليل.

نكير : والمعجزة تعمل على تغريب شخصية النبي وإحالة عبقريته على أسباب عليا. وعليه فإن كل نبي هو دائمًا آخر الأنبياء.

الميت : إنك لا تريد أن تترى أخبار الأنبياء والرسالات في الصحف والنشرات الإذاعية.

ناكر : لماذا لا؟ ذلك يضمن أن تظل أبواب السماء مفتوحة.

نكير : ويكون ثمة الإنسان المتأمل، ذلك الذي غاب وسط جموع المؤمنين في النظريات الكبرى.

الميت : إن فكرة الجموع وفكرة الضبط فكرتان لا تنفصلان.

ناكر : نعم، وعليه فإن التركيب الهرمي هو الوارد الوحيد.

نكير : في قمته الورعون والكهنة، المنظرون أو الصفوة، المديرون أو الحفظة.

الميت : هنا يكون الجبر ضرورة لتماسك البناء الهرمي.

نكير : نعم، الجبر الذي يصل إلى العسف.

ناكر : إذا لم يكن الإنسان صالحا ليكون لبنة في بناء فليختف الإنسان، وليبق السلوك الأمثل.

نكير : وعليه فإن العسف يتجسد على قمة الهرم، في فكرة أو شيء ليست الإنسان ولا شبيهة به.

الميت : ثم ينقسم حقها على الوكلاء والحفظة.

ناكر : ويتجلى العسف أكثر ما يتجلى في وقوعه على القاعدة من الهرم.

نكير : على الطفل، والمرأة، والعبد والأجير، والعاصي، بهذا الترتيب.

الميت : إن المرأة والطفل يحاطان عادة بكل رعاية.

نكير : ذلك هو تشييئهما حتى يكونا محلا لتحقيق رغبة الأب في القوة، والزوج في الاستمتاع الجنسي.

ناكر : وينبغي أن يكون العسف فادحا سواء أكان جحيما أو طردا من مملكة الرب، أو تعذيبا، أو سجنا، أو نفيا، أو سقوطا في الفقر، أو سقوطا في العار.

الميت : ويكون الفردوس رائعًا سواء أكان جنة أو مملكة الرب، أو رخاء موعودا، أو كان حياة البذخ يحياها الأثرياء والنجوم، وتصورها الصحف، وتعرضها على الناس.

ناكر : ويكون الحلم، مع الفردوس والعسف، متمما للثالوث.

نكير : والحلم في كل رسالة، هو وقت ليس ككل الأوقات، وناسه ليسوا ككل الناس، وقت مضى ولن يعود، أو هو وقت ينبغي أن يجهد الناس ليحققوه. وهو في الحالين بعيد ومرهق، ويتضمن في ذاته استحالة تحققه.

الميت : إنه إما حقيقة تاريخية، أو حقيقة علمية.

ناكر : إنه في الحالين غير متحقق تحققا كاملا، لا تاريخيا ولا علميا.

نكير : وتكفر الرسالات كل محاولة للتشكك في تاريخية الوقت الحلم أو علمانيته، حتى تبقى له ضبابيته.

الميت : إن الحلم بهذا الشكل لا يكون ملهما، بل قوة مثبطة.

ناكر : نعم. من حيث تمزق الإنسان بين الوجوب وصعوبة الوجوب حتى الاستحالة.

نكير : والإنسان الممزق بين وجوب تحقيق الحلم، وصعوبة تحقيقه حتى الاستحالة، هو النموذج الصالح للبقاء في قاعدة الهرم.

الميت : شرط الصعود إذن هو الإنكار.

نكير : الإنكار هو فهم شيء، وإدراك تناقضه وإنكاره، وهو ليس شرط الصعود في الهرم، بل الوقوف خارجه.

ناكر : إنه النفاق، الحالة الثالثة بين الإيمان والإنكار هي شريطة الصعود في الهرم، إنه النفاق.

نكير : بذلك تكون السلطة في يد أكثر الجماعة علما بشريعتها، وأكثرهم ازدراء لهذه الشريعة، في يد من يحولونها من فكر إلى كتاب مقدس.

الميت : أي إلى سلطة قهر.

ناكر : ولكي يكون لبشري هذه القدرة، فإنه ينبغي أن يعد لذلك إعدادًا خاصا، يجعل في وسعه ممارسة العنف على نفسه، حتى يقتل فطرته الطبيعية.

نكير : وتقيم الجماعة مؤسسات المعابد، والمدارس، وغيرها، لقسر الجسم والروح، وتحويلها إلى وعاء للمثل والقيم.

ناكر : ومن حيث إن الفطرة تكون أنقى ما تكون عندما تكون الحياة في طفولتها ونضارتها، عندما تكون الحياة في أنبض صورها بالحياة، فإن الحياة في هذه اللحظة بالذات هي هدف التحوير والتشويه.

الميت : الوليد.. الطفل.. الصبي.

نكير : حيث الحياة شديدة الهشاشة، رغم أنها شديدة القوة، وعليه، فتشويهها مأمول.

الميت : فنزعة البقاء والترقي، عند الكائن الحي، تتحول إلى قانون البقاء للأصلح.

ناكر : وليس ذلك سوى تأبيد لمسلك صور بُدائية من صور

الحياة، يصبح تبريرا للقتل في كل صورة من صوره، قتل الأفراد أو الجماعات.

نكير : وعلى ذلك فالإنسان يمارس القتل بطيئًا أو دفعة واحدة، بوعي أو بغير وعي، مستمتعا أو مشمئزا، على نفسه أو على غيره، وحده أو في جماعة، ويكون بها قتل بطلا، ويكون بها قتل نذلا، لكن القتل يبقى ظاهرة مألوفة مثل الريح والسحب، وعادة يومية مثل التدخين والقهوة.

الميت : هنا يكون الموت هو المقابل الوحيد والممكن للقتل.

ناكر : لكنهم يهزءون من عبقرية الموت بالتلاوات، والشواهد، والأضرحة، والنصب.

نكير : يحولونه إلى مؤسسة لتأبيد المثل، وتخليد القيم، مثل المدارس والمعابد والكتب المقدسة.

الميت : حينئذ يكون الركود خانقا. يكون كل إنسان وتكون كل جماعة مضروبة في أنبل خصائصها.

ناكر : هنا ينبغي أن يستخلص كل واحد موته، يأخذه في يده ويدافع عنه.

نكير : تلك هي السمة الأساسية في عصور الشهداء. لكن أخبار هؤلاء كتبت بالحروف الجليلة في الكتب المقدسة. والكتب رفعت في المعابد الشامخة من المرمر والزجاج الملون، وتليت في نغم مؤثر.

ناكر : وحرمت كتب أخرى حاولت أن تعرف الموتى كما كانوا، وأن تحبهم كما كانوا.

نكير : إذا كان ثمة كتاب مقدس، فلا بد أن يكون ثمة بالمقابل كتاب محرم ملعون، والأمر أنه ينبغي أن يكون هناك الكتاب مطلقا، وأن يبجل الكتاب مطلقا.

ناكر : لكن الذي هناك هو المعبد، وهذا في المحل الأول قصر السلطة، أي مقر جهاز القهر.

الميت : شموخ أقام أركانه فن مجرد من جوهره الصديق للإنسان، ليكون عمله ملء قلب هذا الإنسان بالتهيب والخوف حتى الركوع.

ناكر : إن ثقافة الوقت كله وفنه يكونان مسمومين بسم النظر للإنسان من أعلى.

الميت : هنا يكون لا بد من شريعة جديدة ونبوة جديدة.

ناكر : لكن، من حيث إن النبي يكون دائمًا آخر الأنبياء فلا بد أن يأتي من بعده السلاطين والقياصرة.

نكير : هؤلاء يحولون الشريعة إلى نظام للقهر، بعد أن كانت نظاما من أنظمة الفكر. مؤسسة التشريع تمسخ إلى مؤسسة القانون، مؤسسة النبوة تمسخ إلى مؤسسة السلطة.

الميت : المسألة إذن هي في كل مرة إعادة صياغة الفرد ليصبح لبنة في بناء هرمي ما، تقليل حماسته لأن يكون بشريا، وإذكاء حماسته ليكون نمطا حتى تتحول هذه الحماسة إلى استعداد لأن يقتل في فرار مذعور أمام الحياة الحقة. وأمام الموت الحق.

نكير : إنك تنسى الجانب الآخر، وهو الجانب الرائع والمهم في كل رسالة. وتلك هي أنها، أصلا، محاولة لتحرير الإنسان.

ناكر : وعليه فإن قدر الإنسان أن يظل أبدا يلد الأنبياء، وينشئ الشرائع. وطالما الناس أحياء سوف يظهر كل آن، في جانب آخر من جوانب الأرض، نبي له معجزته وكتبه وشريعته. وتبقى حيوية مؤسسة الرسالة وحيوية مؤسسة النبوة، هي حيوية رفض القهر.

الميت : لكن الرسالة تمسخ أن توشك أن تبث.

ناكر : لكي تولد رسالة أخرى.

الميت : في ألف عام، ورغم ذلك لم تتسع المسافة كثيرا بين العبد والأجير. بل ربما كان تحت الثياب الأكثر نعومة كمية أكبر من القهر.

ناكر : حتى تكون النبوة بداية العالم، وليست خاتمة العالم. وحتى تكون الشريعة انطلاقا للفكر، وليست قسرا على الفكر.

الميت : متى، ما دامت المعجزة وجه النبوة الآخر، والناس إذا يخرجون النبي يرون المعجزة، ويخرون سجدا مؤمنين؟ وكيف ما دامت الشريعة رهن كتاب مقدس ملزم بذاته، ناف لغيره، والناس إزاءه إما مؤمن أو كافر؟

نكير : يكون النبي الذي تتحاور معه، لا تتبعه ولا تحيل نبوته على معجزة، بل على عبقرية الإنسان في مغالبة القهر. وتكون

شريعة لا تعلي الكتب بل تعلي الفكر الإنساني، شريعة لا تتوجه إلى مؤمنين بل إلى مفكرين.

الميت : تلك هي القدرة على تغيير العالم بهدف بقاء الإنسان وازدهاره. إن ذلك يبدو سهلا، حتى ليغدو مستحيلا.

نكير : إنه شديد الصعوبة، لكنه قدر الإنسان.

ناكر : أن تكون الرسالة فتحا.

الميت : كيف السبيل؟

ناكر : الناس.

الميت : إنهم هنا منذ الأزل.

ناكر : وسيبقون هنا إلى الأبد.

نكير : يمارسون الموت والحياة.

ناكر : ويدافعون عن الموت والحياة.

الميت : كيف؟

ناكر : ذلك هو مجاز القبر والحساب والملكين.

نكير : وضع مؤسسة الموت في وجه مؤسسة القتل.

ناكر : أن يستأثر كل ميت بموته.

نكير : يستخلصه من يد الكهنة، من الطقوس والتلاوات والمواكب، من الشواهد والنصب والأضرحة.

الميت : كيف؟

ناكر : بأن يملك الواحد حياته.

نكير : تكون لوحة يرسمها لا خطة يجد تفاصيلها في سفر من

الأسفار. عند ذلك يكون القتل هزيمة في كل مرة، ويكون الموت انتصارا في كل مرة، ويكون تحقق الإنسان وترقيه.

الميت : لكن الضجيج عال حتى لا يسمع الواحد صوت داخله.

ناكر : مهما علا الضجيج لا يسعه أن يكتم صوت الداخل، ولا يمكنه أن يقتل الضمير الذي لا تنضب خصوبته وولادته للأنبياء والشرائع.

الميت : إنه بعيد الغور.

نكير : لكنه هناك حيث القبر والحساب والملكان.

الميت : لقد مت وكانت الرؤيا، ما كان وكيف كان.

ناكر : الآن نقيس المسافة بين الفعل وحكمته في كل مرة.

نكير : وكيف استبدلت الحكمة من الفعل بمبرر الفعل، حتى أصبح الإنسان دورًا مهمته إدامة المؤسسات القائمة، وحراستها، عن أن تكون محلا للمناقشة.

ناكر : وفي كل مرة كان هناك الصوت الذي يقول لا، وكان إنكاره موجعا.

نكير : وتلك عظمة الإنسان، والبحث هو عن لحظة تتشوه فيها إنسانية الإنسان وتهان عظمته.

نكير : وتكون حياته قتلا للذات وللآخرين.

الميت : إنني أرى الآن، إنني أرى.

ناكر : تلك هي الكلمة التي ننتظرها لكي نبدأ الحساب.

* * *

وإذا يقول الميت أنا أرى، فإنما يتحصل ذلك، ليس فقط في العلم بالناس والأشياء، بل بها في تغيرها المستمر على الزمن. وإذا كان العلم الأول هو زوال العجز بحصول الموت، فإن الثاني هو اكتساب القوة بتمثل الموت.

وإذا كانت الرؤيا الأولى قد حررته من حرد الحب وحرد الكراهية، وأعطته قرارًا واطمئنانا عميقا عمق الموت، فإن الرؤيا الشاملة جعلته يعرف عرض الحب وعرض الكراهية، ويعرف الخلاص. يعرف قدر العذاب ويعرف نعمة الرحمة، ويعرف من بينهما جسر الموت ورحلة الانعتاق.

ولم يعد الأمر أمر كومات عظام، عليها بقايا أكفان ولطخات أو فلذات من لحم متعفن أو جاف مسود، بل إنها صيغة كان التي هي الأصل في صيغة يكون. ولم يعد الأمر أمر الهوام مقبلة من الجحور أفواجا، ولا الذبابات العمياء طائرة في جو رطب عفن كهفي، متكالبة طنانة، ولا الديدان الدقيقة سمراء الرءوس دءوبة نهاشة. أمر التحول المجيد، مجاز الملحمة الكبرى الممتدة على المساحة بين الخروج وبين الرجوع كرة أخرى إلى حيث كان منه الخروج.

وعليه فلم يعد حوله عالم الموتى، بل العالم مطلقا. لم يعودوا من عرف من الناس ومن سمع عنه، بل الناس مطلقا، الناس الذين هم هو. سقطت عن كل وجه الملامح التي تنسبه إلى إنسان ما في وقت ما، ليكتسب كل وجه ملامح الإنسان في الزمن. الإنسان أبدًا، مات أو بعد لم يمت. تنفتق الحقيقة عن الحقيقة، بلا كلال، دائرة في دولاب الموت والحياة بلا توقف.

وحوله تتسع الآفاق إلى ما لا نهاية له من ضوء فجري لا مثيل لحسنه في فجر يوم صيفي، آفاق تحيط بدنيا هي للناس في الدارين: دار القرار ودار القرار. والأمر فقط أن يروه، أن يفتحوا داخلهم له، حتى يكون كل كيان تحققا للكيان الأشمل، واحتواء له.

وجها الملكين يطلان على الميت. ليس فيهما فقط تلك الوضاءة والوسامة النورانية، التي تتحقق في لمحة تشرق في وجه عالم حافظ عارف بما يسأل عنه، يرى قلق السائل وتوزعه فيطل عليه بوجه فيه وسامة المعرفة، بل فيه إشراقة وجه رسول ظفر بوحي السماء، أو نبي حمل إثم الخطاة على نفسه، فأصبح هو الفعل والجريرة والتطهر في آن، الإنسان كأعظم ما يكون الإنسان.

ليكن بدء الحساب الآن.

الحســـاب

الميت : إنني مستعد للحساب.

ناكر : في طريقنا إليك تفكرنا في اللحظة التي نعتبرها بدءا لحسابك، أي ميلادا لك.

نكير : ونحن في العادة لا نقابل صعوبة في استنباط لحظة من حياة طفل، تكون فيها فعالة مطابقة لفطرته.

ناكر : أنت ترى، البحث إذن عن لحظة احتفالية.

الميت : أستعيد صور طفولتي وأجدها طيبة.

ناكر : وقد اعتبرناها ميلادا لك، تلك اللحظة التي وقفت فيها في المحكمة الشرعية تجيب عن سؤال القاضي إن كان ذاك أباك، وإن كان يبرك ويصلك، وإن كنت تريد، غير مرغم ولا مكره، أن تعيش في كنفه، فقلت بصوت قوي واضح أن نعم.

نكير : إن ما كان حولك من جو غريب، جهامة القاضي، وصيحات الحاجب، وعسف الحراس، وزحام الناس، وغضب الخال، وارتياع الأب والجدة، كل ذلك لم يشوه رغبتك الحقيقية التي نبعت من أعماقك، لقد كان شيئًا عظيمًا.

الميت : إنني على ظهر الدنيا لم أنس تلك اللحظة أبدًا، ودائمًا ظللت أتذكرها وأستعيدها بنوع من الأسى الدامع.

نكير : إن ذلك طبيعي ولعلنا نعود إليه مرة أخرى.

ناكر : نمضي من ذلك اليوم إلى يوم آخر بعده، بأعوام، قررت فيه أن تهرب من المدرسة في عاصمة الإقليم، وتعود إلى القرية.

الميت : تلك قفزة كبيرة عبر السنين إلى الأمام، وكان المظنون أنني سأسأل عن كل صغيرة.

نكير : تلك من الأخطاء الشائعة بين أهل الدنيا. الواقع أن الحساب وارد على المواقف الكبرى في حياة الميت. ما بين تلك المواقف تتكرر أشياء صغيرة يومية غير معبرة.

ناكر : إنك أيها الميت كنت واهما فيما تصورته عن وجود عفاريت في المنزل القديم، في عاصمة الإقليم، لكنه على الرغم من ذلك كان عظيمًا أن ترفض البقاء تحت تهديد الخوف، وأن ترفض كذلك وسائل التعذيب في المدرسة، تلك التي ليست من التعليم في شيء، ولا تهدف إلا إلى تحويل الطفل إلى كمية لينة من الطاعة والخضوع.

الميت : وإذا عدت إلى القرية وجدت أبا غاضبا يأمرني بالعودة.

ناكر : هنا نسألك: لماذا عدت؟

الميت : لم يسعني أن أخالف أبي.

نكير : لقد خالفت خالك في المحكمة الشرعية، وكانت سطوته عليك أكبر من سطوة أبيك.

الميت : أرى الآن لحظة انصياعي لرغبة أبي، وعودتي إلى عاصمة الإقليم. ربما يرجع ذلك إلى قوة أبي، إلى ما بدأ يظهر من ضعفي الجسماني، إلى عرف الوقت الذي يجعل طاعة الأب واجبة.

ناكر : تكون «لا» ممكنة في كل الأحوال، طالما الإنسان على قيد الحياة. لا مبرر أبدًا لأن يجحد الإنسان صوت داخله.

نكير : عدت إلى المدرسة وفي قلبك نية الهروب مرة أخرى. وعليه فإنه بهذا انتهى المضاء وبدأ التمزق والحيرة والاختلاط.

ناكر : كان الهروب الثاني مجردا من الجلال.

نكير : لم يكن إدانة للحياة في مدينة الإقليم بشقيها: البيت

والمدرسة، بل إعلانا للعجز عن احتمالها، وعليه فأنت ترتمي تحت قدمي أبيك، وتعطيه الحق في أن يقرر بشأنك ما يشاء.

ناكر : تكرر الهروب بعد ذلك حتى جاء قرار الأب بأن تعمل بالفلاحة.

نكير : كان ذلك في الحق قرار الميت غير المعلن، أحس به الأب وأنفذه له.

ناكر : أحس الأب برغبة ابنه في تقليده، وانعدام رغبته في أن يكون شيئًا آخر، أعطاه إمكانية أن يمتهن نفسه.

الميت : لا، لم يكن هكذا شريرا.

ناكر : كان يقوم بدوره كمالك أرض، وعين من أعيان القرية، ولسوف يسأل عن ذلك، الآن نسألك أنت.

الميت : كانت القرية كلها تحبه، ومن تلقاء ذاتها.

نكير : أمنت آلاف المؤمنين في المساجد على الدعاء للراشدين والفاسقين.

الميت : إن المقارنة مجحفة.

نكير : إنها المبالغة لتوضيح الصورة.

الميت : لم يكن أبي ظالما.

ناكر : كان على رأس نظام القرية، وهو نظام من المالكين والأجراء، من الجائعين إلى المرضى ومن الشبعانين إلى البشم، وهذا نظام بطبيعته منتج لنماذج قابلة لأن يعسف بها.

الميت : إنه كان على رأس هذا النظام، بواقع القرابة الدموية أكثر من واقع الملكية الزراعية. هذه القرابة كانت رباطا بينه وبين الناس، لهم عليه حقوق كما له عليهم حقوق.

نكير : هذه القرابة الدموية لم تعطهم الحق في شروط عمل أفضل، وهي في الوقت نفسه جردتهم حتى من الشعور بالسخط على حياتهم، حتى أصبحوا متعصبين لوضع ينمو فيه إفقارهم وقهرهم.

الميت : كان ملزما بمساعدة ذوى الحاجات.

نكير : على أن يبقوا عند حد الكفاف.

الميت : كان يساعد حتى من يريد أن يخرج.

نكير : ليبقى عنصر الرضائية في رئاسته.

ناكر : ولقد كان هذا التصور موجودا في داخلك، لكنك لم تنصت إليه وقتها.

نكير : أنصت بدلا من ذلك إلى الأب يرتل الحكم والأمثال والمواعظ بصوت جليل عميق.

الميت : كان الناس جميعًا يسمعون له.

نكير : لكن أنت تراه حين يعرى، حين يعسف بك.

الميت : كان ودودا خفيض الصوت.

نكير : بذات الصوت الخفيض أمرك أن تذهب إلى المدرسة، وأن تعود إليها مرة، ومرة، ومرة، من دون أن يسأل نفسه عما تعانيه هناك في البيت، وعلى دكة الدرس. وبذات الصوت

أمرك أن تتزوج ابنة الأرملة، دون أن يتساءل هل في هذا الزواج مصلحةلك أنت... وثمة أمثلة أخرى كثيرة.

ناكر : المهم فيها هو أنك كنت في أعماقك تجد المعارضة وتكتمها، حتى قررت أن تنفصل عن دار أبيك بدار وأرض ومعاش وبهيمة. هنا فقط أعلنت معارضتك، بدأت المعركة حينما أصبحت المعركة غير ذات موضوع.

نكير : كان الأب قد انتهى إلى أنك لا تصلح للرئاسة بعده، واعتبرك مسئولا عن هذا، دون أن يفكر لحظة واحدة في أنه المسئول، لأنه في حياته لم يأخذ بيدك مرة، وعليه فقد بقي يكرهك حتى موته.

ناكر : إنه سيسأل عن هذا، إنما نسألك عن نكوصك عن قول «لا» من الأول.

الميت : إنني أرى الآن.

ناكر : الآن ننتقل لنقطة تالية هي إيذاؤك الشديد لزوجة أبيك.

الميت : لقد كرهتها منذ البدء.

ناكر : بل لقد أحببتها منذ البدء.

نكير : حينما رأيتها للمرة الأولى كنت في التاسعة من عمرك. وهي كانت باهرة الجمال، بعبارة أهل الدنيا، وكان في عينيها المرارة والقهر، وهكذا فقد فتنتك صورتها. لكنك بدلا من أن تبدي حبك لها، شحنت قلبك بكراهيتها، وبدأت تؤذيها.

الميت : لم تكن تريدني أن أزني بامرأة أبي؟

ناكر : ألا تعرف من وسيلة للتعبير عن حبك لامرأة إلا معاشرتها جنسيا؟

الميت : ألم يكن ذلك هو الوقت؟

ناكر : أول من يحس بالوقت الرديء هم أهل هذا الوقت. وسؤال القبر مؤداه لماذا يسكت الناس على الأوقات الرديئة وقلوبهم ضدها؟

نكير : ولو أنك كنت تأملت داخلك لرأيت جمالا مدفونا تحت التقاليد العفنة.

ناكر : لكن ثمة مئة ألف طريقة للتعبير عن الكراهية ففتكت بها.

نكير : نيابة عن أبيك الذي أبى عليه كبرياؤه أن يؤذيها جزاء برودها نحوه. وحتى تؤكد له أنه لا مجال لأي شك في وجود شيء بينك وبينها. وإذا تزوج أبوك الأرملة الأسن من زوجته، والأقل جمالا، زاد عسفك بالزوجة الشابة حتى صار بشعا، وكان الأقرب لنفسك أن ترفق بها.

ناكر : أصبحت المسافة شاسعة بين أفعالك والحكمة منها. لا نرى فيما أقدمت عليه الرغبة في تأكيد وجودك، أو في ترقيته.

نكير : إنها المحاولة أن تكون الجزء الشائه من أبيك، بعد أن فشلت في أن تكون الجزء الباهر فيه، بلباقته وروائه وتراتيله.

الميت : إنني أرى الآن، إنني أرى الآن.

ناكر : ننتقل الآن إلى علاقتك بابنة خالك.

الميت : أعرف الآن أنها لم تحبني، لكنني بقيت أحبها أبدًا.

ناكر : السؤال الآن هو لماذا رفضت أن تزور الخال المريض؟

الميت : كرهته بما أذاني وأذى أمي.

ناكر : إن الذي كان راقدًا على فراش المرض، محطوما، لم يكن هو الذي أذاك، بل رجل بدله المرض. رجل كان يحبك ويتمناك ابنا له، وهو الذي لم ينجب سوى بنت واحدة.

نكير : الحق هو أن رفض زيارة الخال كان المقصود به فقط هو إهانة الابنة.

الميت : إنه في هذه اللحظة ولد حبها في قلبي.

نكير : في اللحظة التي عرفت فيها أن إهانتك لها برفض زيارة أبيها أصابت منها موجعا أحببتها في اللحظة التي عرفت فيها أنها بالنسبة لك أصبحت امرأة مستحيلة.

الميت : لكنني بقيت على حبها.

ناكر : دون أن تعنى بسؤال نفسك عن شعورها إزاء ذلك.

الميت : ظننت وقتها أنها أحبتني.

ناكر : ونحن نسألك عن وقتها.

نكير : صلبتها على آخر صورة رأيتها عليها، ثم أغرمت بهذه الصورة. عشت السنين تتجنب رؤيتها، تغضي إذا مررت ببابها، تبدو عليك المشاعر إذا رأيت زوجها، أو أحد عيالها.

ناكر : ذلك هو ما تشاء المرأة، تحويلها إلى موضوع لعاطفة أيا كانت، أو رغبة أيا كانت، والمرأة الموضوع، المرأة الإنسان لا تكون محل اعتبار.

نكير : عرفت هي ما تشيعه أنت حولها، وكرهتك لذلك أشد الكره.

الميت : إنني أرى، إنني أرى الآن.

ناكر : نمضي إذن إلى علاقتك بالبنت الريفية.

الميت : هذا أعظم ذنوبي.

نكير : لست نادما عليه ندما عظيمًا.

ناكر : حينما ظفرت بها، إذا جاز استعمال لغة شبان المقهى، تحققت لك الرجولة بما تكن من عدوانية وجلافة ونذالة.

نكير : ولآخر حياتك تذكرت المتعة الكاملة بأسى سميته ندما.

ناكر : وكان ثمن هذه المتعة امرأة فرت، وجنين أجهض.

الميت : الخطأ ما اعتقدته أنها تحبني.

ناكر : إنك لم تمتحن هذا الاعتقاد، حتى حين زعم كل واحد من شبان المقهى مثله لنفسه.

نكير : كان حبها حلمها بالزواج من ابن رجل ميسور، وهو حلم أثارته فيها النظرة الواعدة في عين كل شاب من شباب القرية.

الميت : ولقد أسلمتني نفسها لأنني وعدتها بالزواج.

ناكر : إنها في الحق كانت تحدس في أعماقها غدرك، لكنها

أرادت أن تنهي تعلقها بحلم تقترب كل يوم من اليقين أنه وهم.

نكير : وكانت النهاية لحظة أن قمت عنها متقززا منها تسرع لتغسل نفسك من سوائلها.

ناكر : إنك لم تترك أبدًا امرأة أحبتك. إذا تحققت من كراهية واحتقار البنت الريفية، استمتعت بها.

الميت : ولم يكن أهل حارتها ليقبلوها بجنينها ففرت.

ناكر : كانوا يقبلونها. ما لم يقبلوه هو حلمها في الخروج إلى حياة أخرى.

الميت : كل واحد في حارة الفقراء يحلم بدار وبهيمة.

ناكر : لكن ليس على حساب حارة أخرى للفقراء. هذا هو الفرق.

الميت : إنني أرى. إنني أرى الآن.

ناكر : الآن ننظر في علاقتك بزوجتك.

الميت : نعم، أرى الآن اللحظة، أرى أبي جالسا في عتمة المساء في شرفة بيت الضيوف وحيدًا شاردًا. اقتربت منه. حدثني أنه يريد تزويجي. ساعتها فرحت، لكنني لم أقل شيئًا.

نكير : رأيت في هذا اعترافا منه بك. فرحت لأنه يشركك في ذلك الشأن مع الأرملة بأن يزوجك بنتها. لكن الزواج والمرأة التي ستتزوجها لم يشغلاك كثيرًا.

الميت : لقد رفضت فكرة الزواج.

ناكر : : ليس على الفور.

الميت : نعم، أرى ذلك الآن. كانت قد أمنت مرور الناس في حر القيلولة، فتخففت من جلبابها، ونامت بالقميص الخفيف في ظل الشجرة على الترعة. رأيت فخذيها العاريين، تأذيت واشمأززت منها. قررت ألا أتزوجها.

ناكر : أرعبتك أنوثتها العارمة. خفت أن تعجز عن قهرها. انصرفت عنها بقلبك وفكرك إلى ابنة خالك، المرأة المستحيلة.

نكير : بينما الأنوثة العارمة هي دليل صحة المرأة الجنسية والنفسية، وجدير بالرجل أن يفرح بها.

ناكر : لكن وضعك في أسرتك كان مقدما عندك على رجولتك.

نكير : وكعضو بارز في أسرتك ينبغي أن تذل امرأتك وتقهرها. وأول موضوع يرد عليه إذلال المرأة وقهرها حتى الإفناء هو أنوثتها.

ناكر : ولكي تكون قادرًا على القيام بهذا الدور، كان ينبغي أن تسكت صوت داخلك حتى الخرس.

الميت : إن ذلك كله لم يكن تدبيرا متعمدا.

ناكر : يسأل الميت عن الأفعال التي يأتيها بضرورة دوره ووضعه الاجتماعي، حتى مع عدم توافر قصد الإضرار، إذا كان في هذه الأفعال خطر على بقاء الآخرين وترقيهم، ذلك هو مغزى سؤال القبر.

الميت : المسار بعد ذلك مؤلم أعرف.

ناكر : نسألك الآن عن ليلة الزفاف.

الميت : إن دم الفلاح ليس إلا شريعة القرية.

ناكر : لا، إنه غير معروف في حارة الأجراء.

الميت : بعضهم يتم هذا الإجراء.

ناكر : أولئك المتشبهون بالمالكين.

الميت : يكون الرجل على معرفة بامرأته في الدار والحقل وربما يكون قد نام معها مرارًا قبل الزواج، وعليه فهو لا يجد دما لخرقة الفلاح ليلة الدخلة. إنهم يتخالطون بلا وازع.

نكير : إذا كان الرضا متوافرًا في الجانبين، وكانت الموانع الشرعية منتفية، وكان ثمة قدر من العلانية متوافرًا، فذلك زواج شرعي صحيح.

الميت : لا ينتظرون حتى الحفلة الدينية.

نكير : إنها غير مكتوبة، إنها ليست شرطا لصحة الزواج.

ناكر : نعتبر الفلاح بداية لزواجك.

نكير : بداية دموية، والمسار بعد ذلك بغضاء شديدة، ونزاع لا ينفض.

الميت : لم تكن بالحمل الوديع. كانت شديدة الإيذاء. تعرفان.

نكير : كانت الحارة كلها، كان مجتمع الرجال وراء طغيانك عليها. لم تكن تعرف أين تفر، لم يكن سبيل لدفعك عنها إلا أن تؤذيك.

الميت : وقعت في الذنب هي أيضًا.

ناكر : نسألها عن هذا. الآن نسألك أنت.

الميت : كانت دائرة مقفلة من الظلم.

ناكر : كان ثمة صوت في داخلك يهتف بك أن تقطع هذه الدائرة.

الميت : كيف؟

نكير : أن تأخذ امرأتك مرة بين يديك، وتسألها ماذا بها.

الميت : كان ذلك وقتها بعيد الاحتمال.

ناكر : كان قريبًا منك قرب داخلك إليك.

نكير : وكان فيه خلاصك. ربما.

ناكر : وكان بوسعك أن تفعله بعد أن هرمتما، وهدأت العلاقة بينكما.

نكير : فضلت أن تحمل مواجعك إلى الأذكار وحضرات الدراويش، وامرأتك في الدار.

ناكر : حتى آخر لحظة أصررت على ألا تعترف بوجود امرأتك إلى جوارك.

نكير : والأمر أنك من واقع تكوينك الجسدي، والعقلي، وما مر بك في حياتك من أحداث، كنت في مسيس الحاجة إلى حب المرأة. لكن هذا الحب ما إن يكون بقربك حتى يثير رعبك، فتتحول إلى العداء والعدوانية. أتعست نفسك، وأتعست من اتصلن بك من نساء.

الميت : إنني أرى. إنني أرى الآن.

ناكر : ننظر الآن في علاقتك بابنتك.

الميت : لقد أحببتها أعظم الحب.

ناكر : كنت تبقى بقربها. تتنصت على هواجسها بقلبك، محاولا أن تستكنه ما يهجس في نفسها من خواطر، والرعب يعذبك.

الميت : كنت مليئًا بالقلق عليها.

ناكر : وكانت الأم ترقب قعودك للبنت، ترجوك بصوت خافت أن تتركها تلعب.

الميت : كنت أحب لها أن تبقى دائمًا في صون الدار.

ناكر : كنت تحبسها ولا تدري لماذا. تخاف عليها ولا تعرف من ماذا. تريدها أن تكون على صورة غائبة عن خيالك، ولا يسعك استحضارها. أما أن تكبر البنت وتنطلق وتزدهر، فقد كان ذلك يرعبك ولا تدري لماذا.

الميت : نعم.

نكير : مع أنك أنت عانيت من ذلك القسر الذي أوقع بك.

ناكر : وكانت الأم قد هرمت وتعبت، فلم تستطع أن تخلص بنتها من براثن حبك الأبوي.

نكير : ترك عليها آثارًا لا تمحى.

الميت : إنني أرى. إنني أرى الآن.

ناكر : ثم بدأت تتردد في الأماسي على حضرات الدراويش والأذكار.

الميت : حزنت على موت أبي حزنًا شديدًا.

نكير : بل حزنت على نفسك. فقد كان الأب في مجتمع قريتكم هو السلطة الوحيدة المخولة الاعتراف بك. وقد ظللت طول عمرك تحت قدميه ترقب هذا الاعتراف. فلما لم يفعل، قررت الخروج من الدار للضغط عليه، لكن الوقت كان قد فات، وقراره أمسى نهائيًا. وقد مات عليه. وكانت هذه ضربة عجزت عن احتمالها.

الميت : كانت قواي الجسمانية والعقلية قد وصلت إلى الحضيض.

ناكر : انتسبت إلى طريق الصوفية.

الميت : التلاوة والذكر، الإنشاد والدفوف والرحلة إلى المزارات الحبيبة.

ناكر : والتحرر من المكتوب والمنصوص والمفروض، إغماض العينين عن صغائر الإخوان. النظر في الذات، إصداقها وتصديقها. إسقاط إسار الخوف عن عزائم المريدين، حتى يكونوا قادرين على بناء المجتمع الأمثل، الذي يكون ازدهاره بازدهار كل واحد من أعضائه.

الميت : هذا ما أردت.

ناكر : لا، إنك دخلت الطريق فرارا من واقع لم تستطع مواجهته، دون إيمان. وطول الوقت كنت تحاول هزيمة الشك، ولم تستطع.

الميت : كان الذكر لحظة صدق هائلة.

ناكر : وإذا كانت هذه اللحظة لم تعنك على هزيمة الشك، فلأن المخ كان قد هده المرض، وماتت الإرادة، وعليه فقد رفع حساب القبر عما تلا ذلك من الوقت.

نكير : وفتحت لك أبواب الموت.

الميت : ولقد حسبته السكة إلى عذاب القبر.

ناكر : إنما هو السكة إلى المعرفة.

الميت : إنني أرى الآن.

* * *

كانت سكة طويلة شاقة، وقد أتيت الآن إلى نهايتها. يمضي الملكان مفارقين، يغيبان في الضوء الفجري كأنهما شعاعان فضيان. وإذا كان الكيان المادي قد تجرد إلى عظام جافة حائلة، فإن الميت يمضي إلى ذلك الأفق المضيء ليكون في نسيجه نسيجا. فقد تحولت التجربة إلى معرفة. معرفة لا تضمها بينها دفتا كتاب، فإنه يكتب من الكتب أقل القليل، ومنه يقرأ أقل القليل عن أقل القليل من الناس والأشياء. أما معرفة الناس، معرفة الذين يكتبون والذين يقرءون، معرفة الذين لا يقرءون ولا يكتبون، تلك هي المعرفة الشاملة، المعرفة المطلقة.

ذلك بأن الناس يملكون الموت، تحول التجربة إلى معرفة. بهذا يكون كل موت انتصارًا.

* * *

ولا تكون حياة الناس أبدًا مثلما كانت قبل أن يموت أي إنسان.

وسيظل الناس يموتون ويموتون حتى تهزم مؤسسة الموت مؤسسة القتل.

وهذه العظام الجافة البيضاء، التي أكلت الأرض عنها اللحم والكفن. هذه العظام سوف تضمها الأرض إليها، تحفظها في صدرها كما يحفظ الفقي الحافظ آيات الكتاب الكريم. تبقى هناك أبدا. ناس فوق ناس. كل يشير إلى شخصه ووقته. فكأن قلب الأرض كتاب سيرة بلا بداية ولا نهاية، حروفه الجماجم، والعظام هي النقط والنبرات. يا لقلب هذه الأرض من قلب ذكور!!

وهذا الأفق اللانهائي من ضوء فجري يحيط بداري الدنيا: دار القرار ودار القرار. يصيب كل قلب منه شعاع. لقد أصبح الميت في نسيج هذا الأفق اللانهائي الملهم، بما أحسن وبما أساء، بما وسعه وبما عجز عنه؛ لأنه عاش ولأنه مات.

النشـــور

فتح الحفيد عينيه. ما زال بعد جالسا على ظهر القبر تحت شمس الظهر. اشتعل الرأس شيبًا، وتضعضعت الحيل، وهرمت الملامح، وازداد حزن القلب، ولما يبلغ الكتاب أجله. فتح الحفيد عينيه، لا يرى سوى دائرتين زرقاوين مؤطرتين بالاحمرار. لا يدري منذ متى وهو جالس هنا تحت هذه الشمس، لكنه دائخ عشي العينين. أتراه أخذته سنة من النوم جنب الشاهد والصبارة على ظهر القبر، وفي النوم طافت به الأحلام العجيبة؟ ربما. يريد أن يحرك ساقيه

وذراعيه ليقوم لكنه عاجز تمامًا ومختلط الذاكرة. لا بد وأن الشمس ضربته في يافوخه، فهو دائخ وكل شيء فيه يوجعه. جمع حمل أوراقه وكتبه، ضمه إلى صدره ووقف مترنحا تتضح له المرئيات شيئًا فشيئًا.

حوله حقل القبور، يأنس بها أنس الراعي بالشياه الطيبة الوديعة. وضع حمل الكتب على ظهر القبر ومضى إلى القناة، ملأ إبريقه وبدأ يدور بين صفوف القبور. جنب كل شاهدة قبر صبارة. يسقى الصبارات. تلك إحدى الواجبات التي أخذها على عاتقه. الناس تقول إن صبارة غضة ريانة على ظهر قبر كفيلة بأن تمنع عذاب القبر. الناس عادوا إلى القرية بعد أن دفن الميت. يتابع جلب الماء وسقيا الصبارات، وتأمل أحوال الدنيا. لا يسقى الصبارات ليعفي الميت من عذاب القبر، إنما يفعل ذلك لهوى في نفسه. إنه متعلق بنبات الصبار. أكثر النباتات حفولا بالحياة وحفولا بالصمت. وإنه لثمة علاقة غامضة بين القبر والصبار، ما هي؟ لا يدري. يحمل حمله من الأسئلة التي لا تجد إجابة ويمضي.

حوله حقل القبور. مربعات الصمت والشواهد وأصص الصبار، كلها الآن مروية مثل قلوب مطوية على سر بهيج. وهو أيضًا مبتهج. ضم إلى صدره حمل كتبه، وعزم على أن يزور القطب قبل أن يئوب. جوف القبة مبيض بالجير، تشوبه سنجحات تراب وتنصب فيه سرادقات العنكبوت والصمت. والضريح عليه كساء خلق، وحوله سياج متخلع الخشبات. أهو الصمت أم عجز الإنسان عن أن يسمع. الأسئلة التي بلا إجابة. أهو ذلك الذي ابتلي به أيوب المصري. أيوب ذو الجروح، كل جرح سؤال. أيوب الصابر على جروحه حتى يجد

الرعراعة المباركة على شط ترعة من نيل مصر. يغتسل ويبرأ من بلائه. القطب عمامة خلقة، وضريح خلق، وصمت مبهم.

عليه الآن أن يعود. سلم على القطب وخرج. ألقى نظرة على القبور ومشى. استقام على السكة المؤدية إلى القرية. يحمل حمل كتبه تحت إبطه. كتب وشرائح أوراق من كل صنف. ما تقابله ورقة فيها كتابة حتى يرفعها. يتأملها طويلا ثم يضمها إلى اللفة. ما زالت تفتنه الحروف منذ كان صبيا صغيرًا فى الكتاب. واللفة تتضخم وتثقل. يصطنع لها جلدة تحميها من عرق يده. يصبر على حمله. حمل لم يفارقه منذ طلب العلم في الأزهر.

كان أبوه يريده واعظا كبيرًا، أو شيخًا يؤم الناس في مسجد جامع. وهو إذ انتظم في الدراسة قرأ كثيرًا وأغرق في التأمل. في السنة الأولى أحبه الشيوخ كثيرًا. فقط أشفقوا عليه من كثرة القراءة، ونصحوه أن يقتصر على الكتب المقررة. ثم أن يأخذ حظه من الضحك واللعب ومخالطة الإخوان، وإلا فسد الدماغ والقلب من العكوف المستمر على الكتب. وهو حاول ذلك مخلصًا. لكنه كان إذا رجع إلى قريتهم نشبت في الدنيا تلك الساعة العجيبة من الصمت، وحملته أقدامه إلى زيارة الجد. يقف أمام الباب يتأمله حتى يمتلئ قلبه بجهامته، عندئذ يتعلق بصره باليد النسائية الرقيقة ممسكة بكرة الحديد الصغيرة، يشمل الأسى روحه، وتنتشر على وجهه ابتسامة تعزي. يدفع الباب داخلا.

يميل على غرفة الجد. يجلس قبالته على الحصير. نفسه ضائعة وفي وجه الجد حنان ورحمة. لحظة تعز على الوصف. إذ ذاك تولد فيه

الرغبة أن يقوم إلى خزانة الكتب. الآن يعرف القراءة. يقرأ حتى يضنيه العذاب إلى البكاء، جالسا على الحصير محدودبا منقبض القلب. وإذا بالمرأة العجوز تقبل داخله. فى عينيها حنان عجيب. تأخذ من يده الكتاب وتضع في يده كتابا آخر مفتوحا على الصفحة المعلومة. يقرأ ويقرأ، والسؤال يلد سؤالا، والعذاب يصير إدمانا. إن ذلك ليس له نهاية.

يقبل على شيوخه فى الأزهر يسمع منهم بانصراف ودأب، فإذا سألوه قال لا أدرى، يتقدم طلاب العلم فى الصفوف، وهو جالس لسنين طويلة على حصير الغرفة يسمع للشيخ الجالس على الدكة، وإن سأله قال لا أدري. يأخذ الشيخ به الحنان، يقول له يا بني ألا تعرف ما اثنان واثنان؟ إنها أربعة يا بني. يقول الحفيد إنني يا شيخ لا أدري. يقول له الشيخ آه يا بني الحبيب، إن تلك هي بداية العذاب. ثم يسأل الشيخ الحفيد يقول له يا بني اكتب شيئا. يكتب الحفيد بخط حسن جميل. ويقرأ الشيخ مصححا فيجد أنه قد ضعف الساكن المشدد، وأبدل بالألف مدة، وأجرى القاعدة على الشاذ. يقول له الشيخ يا بني إنك تخطئ في الإملاء. يقول الحفيد لا أدري، إنما أجد أن للحروف قلوبا نابضة، وأرواحا عارفة، وعليه أستحسن أن أدعها تقول، وإذا ما فعلت وجدت أن ما تقوله الحروف أدنى إلى الصواب. يقول الشيخ آه يا بني الحبيب، تلك بداية العذاب. ثم يسأل الشيخ الحفيد أن يقرأ قرآنا، يقرأ الحفيد بضبط صحيح وصوت جميل، لكنه يمضي من آية إلى آية بلا سباق. يرشده الشيخ، لكن الحفيد يمضي على نهجه ويقول: يا شيخ أنا لا أقرأ فى المصحف، بل الآيات حسب ترتيب النزول. يقول له الشيخ يا بني إن ما في يدنا هو المصحف.

يقول الحفيد لم يقرأ فيه النبي. يقول الشيخ آه يا بني الحبيب تلك بداية العذاب.

أصبح الحفيد ينسى مواعيد الدروس ولا يهتدي إلى الغرف. يمشي في الردهات ذاهلا، حاملا حمل كتبه مشعث العمامة، مختلط الهندام، مفتوح الجبة. يمشي بين الغرف على هدي أذنيه يتسمع. إن وافق ميل نفسه أن يسمع فى الفقه أو البلاغة أو الأصول، أو إن أطربه أن يشارك فى تجاريب الكيمياء أو علم الحيل، إن أعجبه شيء مال حيث هوى نفسه. يفرش جبته ويجلس عليها، فإنه من نحول تؤلمه الحصر وخشب الكراسي. يسمع ذاهلا عن غير ما يسمع، أو يراقب منفعلا بما يرى. ثم يقوم ناسيا جبته. جلبابه قصير عن ساقين ناحلتين. يسأله الشيخ أين كان. يحكي عما جربه. وإذا فعل فإن ما رآه غير ما رآه الآخرون، وما تقوله له الحروف والكلمات غير ما تستطيع أن تفضي به للآخرين. إذ ذاك علم الشيوخ أنه لا جدوى من أن يعلقوه فى آلة العقاب، إنه أبعد منالا من أن يطال. قال له الشيخ يا بني اذهب عنا لم يعد لدينا ما نعطيه لك. يا بني إنك منذور للوحدة والألم، يابني احمل قدرك على ظهرك وارحل، إنا لنطلب لك الرحمة.

وإذا أغلق الحفيد عينيه. أغمض مغرقا في السكون، يتنصت إلى وجيب داخله. ثم أشرع للشيخ عينين عسليتين كبيرتين وقال له: صدقت يا شيخ، إنه بعد القراءة تكون الرحلة، الرحلة والقراءة، القراءة والرحلة، إنهما السكتان إلى الحب. إنى عائد إلى قريتنا حيث دار الجد ومقام سيدي قطب، وحيث الناس في السكة ذهابا وأوبة

مائلو الأكتاف من حمل ثقيل، نير أو فأس أو خشبة نعش. صدقت الرؤيا يا شيخ وإنى لذاهب، إننى من غد مسافر.

حمل الكتب، وجبة طائرة الجناحين، وعمامة منفرطة الوثاق، وعارضين حافلين بزغب أصفر وشعر أسمر. وإذ أتعبه السير، وضايقته الجبة حل شال العمامة وتحزم به. تنحسر الثياب عن قدمين في نعلين خلقين يكدحان السكة قدما. لا يسأل عن الطريق بل يسأل عن الناس. يقرئ السلام، ويفرح برد السلام، ويستجيب للعزائم. وإذا ما حل بامرأة طيبة، أو رجل كريم، جلس صامتًا منصتًا، يسمع عن الأرض والزرع، عن البذار وعن الحصاد، عن نجاة المحصول وعن نزول الآفة. يسمع عن البهائم التي هي صحبة الإنسان في رحلة شقائه، يسمع عن خرسها وعن لغة شكايتها الصامتة والمواجع. إن الواحد إن أراد معرفة الدنيا فلينظر، إن لها رسما مطويا في قلب كل إنسي حكيم. والواحد إن أراد معرفة الدنيا فلينظر، مقسومة المعرفة بها على قلوب الخلائق. يمشي الحفيد يسلم بصره وقلبه لشسوع الزمام، يتشمم الرياح الموشوشة في شواشي الشجر، المتموجة فوق زرع الحقول. يمشي من قرية إلى سوق إلى مولد. يقوم من مصطبة قدام دار إلى حصير في ركن جامع إلى عتامة مقصورة تحت قبة ضريح لا يسأل أين قريتهم. يقول في نفسه إنه إن آن الأوان، أخذتنى السكة إلى هناك. وقد كان.

جلس قدام باب دارهم يقرأ، رأى أبوه عينيه خاف. والحفيد قال يا أبت سأعمل بطعامي وبثمن كتبي، هل تأجرني بشرطي. يعمل نهاره تحت الشمس. وإذا انتهى يوم عمله زار المقبرة، سقى

الصبارات، وفرغ لنفسه قليلا يتأمل أحوال الدنيا. الصمت في المقبرة قوال. صمت ماض إلى معنى مقصور في كِنّ أفئدة عارفة. يملأ قلبه بهذا الصمت ويثوب. إن كان في يومه بقية اعتنى بالمسجد. وإذا فرغ جلس في ركن عاكفا على كتبه. لكنه فجأة يحس عجز الكلمات، حتى لتكاد تكون نبشات عفوية سوداء على وجوه الصفحات.

يقوم يطوف باجتماعات الرجال في الباحات على رءوس الحارات، الصمت منعقد، والرءوس ناكسة، والقلوب مخنوقة كأفراخ طيور عارية تحتضر. النساء فى قيعان الدور عراك لا ينفض. كلمات مسمومة من قلوب دامية ملتاعة. مهج يخضن بحارًا من قار الحقد الأسود. صور العذاب في الآيات المكية. صور الموت في البكائيات. موت بلا قراءة ولا صلوات ولا مواكب. موت بلا جلال. موت غير مشتق من الحياة أو متفرع عنها، بل هو صياغة زرية للانقراض والفناء.

يفر الحفيد من حصر الروح إلى بيت الجد. يجلس في خزانة الكتب. يخرج لفافة الورق من الأسطوانة. يقرأ أسماء الموتى، ثم يغمض عينيه يستظهر أسماء الأحياء. يكون في خياله اصطخاب عالمين، بحرين بلا برزخ فاصل. الناس تعبر من هنا إلى هناك حتى لا يعرف الواحد من الذي مات ومن الذي عاش. تشابهت الأسماء، تشابهت الملامح والقامات وتشابهت السير. الجد يكتب قراطيس عجيبة بخطه العجيب. لغة لها قدرة على القول مفاجئة ومدهشة. يقوم الحفيد يجلس قبالة الجد على الحصير. يخبط بيده أمامه خبطات رتيبة تخفي سخطا هائلا. فإنه يتفكر، أإذا فسدت الحياة، أيكون في ذلك فساد الموت أيضا؟ تركبه المسألة حتى يجرب في بدنه الأوجاع العظيمة.

يرفع عينيه إلى الجد ليجد على سيماء وجهه حزنا واكتئابا. يقوم. يخرج من الدار. يستدير ليلقى نظرة على الباب. اليد الأنثوية الرقيقة ممسكة بكرة الحديد الصغيرة. ذلك التكوين الودود وسط إطار من جهامة رمادية. يقول الحفيد في نفسه نعم، إنه لا بد من الإياب.

الحفيد صموت. الحفيد ناء بنفسه. يعيش بين الناس منصرفا إلى ما لا يعرفه الناس. قالوا عنه إنه إما أن يكون وليا من أولياء الله أو شيطانًا ماردًا. هذان لهما أمر الدنيا مقسوم بينهما. هذان مسدودة إليهما المسالك بالتعفف والترفع والمهابة. فلندفع إليه أولادنا يعلمهم. إنهم محصلون عنه سر العلم أو سر القوة. والحفيد سعد بهذا وقال أفعل.

وحينما جاءه أول صبي هش له. جلسا متقابلين تتلامس الركب وتتقابل الجباه. الولد أخرج قلمه وقرطاسه وبقى يترقب. لكن الحفيد قال له احك لي شيئا. قال الولد عم؟ قال الحفيد عن نفسك وعن الدنيا. بدأ الصبي يحكي والحفيد يسمع مبهورًا، ويسأل مستفسرًا ومستزيدًا. والصبي يحكي بلا انقطاع، واليوم يتصرم. من الضحى العالي حتى مالت الشمس عن السمت. عند ذلك قام الصبي منصرفًا. عيناه غير العينين، وجهه غير الوجه، وخطوه غير الخطو، وإيماؤه غير الإيماء. حينما رأى الصبي أبوه خاف وسأله عما تعلم. قال الولد لأبيه إنه تعلم كثيرًا. سأل الأب عم؟ قال الولد إنه تعلم عن نفسه وعن الدنيا، ولما سئل عن الحساب والإملاء أجاب الصبي بأن ذلك قد يأتي غدا.

وفي الغد كان صبيان، ثم صاروا ثلاثة، ثم صاروا كثيرين، صبيانا وبنات. والآباء سألوا عن الحساب والإملاء. والآباء سمعوا إجابات عجيبة لم يعرفوا كيف يفهمونها، ولم يكن بوسعهم أن يفهموها، وعليه

فقد ارتابوا أن تكون كفرًا. قالوا لعيالهم لا تذهبوا إليه، والعيال قالوا إن ذلك لا يفيد، إنه منا وهو فينا، وإن انقطعنا عنه فلن ينقطع وصالنا معه. قال الآباء نطرده من البلد. قال العيال إن ذلك لا يفيد، فقد قيلت الكلمة وإنه بعد أن تقال الكلمة ـ أى كلمة ـ لا تبقى الدنيا أبدا كما كانت قبل أن تقال الكلمة. قال الآباء لا محالة وظنوا أن الخطأ كامن في أنهم خلوا بين الحفيد وبين الجد. بقوا ساكتين وخائفين، يرقبون وهم رازحين تحت العذاب.

يذهب الحفيد إلى بيت الجد. يجلس قبالته على الحصير. على وجه الجد الشيخ ابتسام يزين نبالة الجبين. بقي الحفيد صامتا وراضيا. قال في نفسه إن أحسن الوصال يكون من غير كلمات. قال هذا ونذر ألا يتكلم إلا قليلا. يقوم إلى خزانة الكتب. يأخذ كتابًا ويغرق في القراءة. فإذا كان العماء حتى الاختناق وجد العجوز قادمة، تأخذ كتابا وتضع أمامه آخر مفتوحًا على الصفحة المعلومة. كان لا بد أن يطل في عينيها يوما. وقد فعل. وجد في العينين جمالا عجيبا. ظل يتأملها وهي عرفت فأطلت عليه بهما. عرف الآن ماذا تعني كلمة أم وكلمة أخت، وكلمة حبيبة، وكلمة مؤنسة، وكلمة عشيرة. الكلمات فيها كنوز من المعاني. كنوز في صناديق مغلقة عليها أقفال صدئة. ماذا يكون العلم إذا لم يشغله فض الأقفال، وفتح الصناديق، واستخراج الكنوز من بطون الكلمات.

العيال يسربون في الحارات، يمشون من باب إلى باب. العيال يدبون على الترع، وينتقلون من ظل إلى ظل. مشيتهم متميزة، وإيماؤهم ووجوههم وعيونهم. العيال يكدحون تحت الشمس،

ويقرءون في الغرف. ويغضون الطرف ويقرئون السلام. العيال هناك، من مكانه يسمعهم ويراهم. وإذا اجتمعوا جلس حيث انتهى به المجلس. ينصت إليهم، يفجئونه بما لم يكن يعرف.

ولما مات أبوه ورث قطعة من الأرض. قال في نفسه ينبغي للواحد أن يعرف الزراعة، وينبغي أن يتعلم من الزراعة، يعمل بانصراف وعبوس. ولما حسن المحصول، وكثر جمع العيال وسألهم، قالوا لا تعط الفقراء شيئا، بل أوقف مالك على المسجد. إنه مؤسسة صالحة فيه يغتسل الناس ويجتمعون للقراءة والمدارسة، ويقفون مددًا طويلة متفكرين خلف الإمام، إن المسجد مؤسسة صالحة. إنه الدار والمدرسة منذ الزمن الأول. قالوا له أن يوقف عليه أرضه، وأن يشترى بريع الأرض حصرا وكيروسينا وكتبا وكراريس ليكن خادمًا لمسجد، لا مالكًا لأرض، وذلك أحسن ثوابا، وهو أقوم قيلا.

يقضي نهاره يزرع، حتى إذا هده التعب ذهب إلى المقبرة يعنى بالقبور، ويسقي الصبارات، ثم يقضي هنيهة تحت قبة القطب. ويعود إلى المسجد يكنس ويضيء. ثم يخلو إلى كتبه أو يذهب إلى بيت الجد. يقضي الوقت في خزانة الكتب. فإذا ما ضاقت روحه أتته العجوز وملأت قلبه روحًا وراحة، منحته القوة على أن يقرأ كتابا آخر. سأل الحفيد نفسه: ألهذا يعيش الجد ولا يموت. أتراها بما تمنحني من حب قادرة على أن تبرئنى من العلة؟

إنه مريض، وهو يعيش بعلته ويصابرها. يرحل إلى عاصمة الإقليم. يغمض العين عن وساخة المدينة وما يبهر في ناسها وعمارها، أو يقصد الشيوخ العارفين. يجلس إليهم ويسمع منهم. ثم يطوف

بدكاكين الكتب يقضي فيها الوقت الطويل، ثم يعود منها بما أحب. وهو يخاف الأطباء إن شمخوا بأنوفهم وقالوا إنهم يعرفون، ويركن إليهم إن هم أحسنوا الإنصات، وبانت في عيونهم الحيرة، وعلى جباههم التعب والتفكر. عندئذ يسمع منهم ويشتري ما يصفونه من دواء. وهو يمر بدكاكين العطارة. يتنقل بين الأصناف متتبعا أنفه حتى يعود بلفائف كثيرة، ما يغلى وما ينقع، وما يطبخ وما يستحلب. يتسمع على دبيب جسده بالليل، يصابر علته ويداويها بالعقاقير والأعشاب. لكن لا محالة.

العلة تجتاح كيانه كماء النهر يغمر الأرض الشرقة. يهب قائما من فراشه. يفتح باب داره، وقد أوشكت أشعة الضوء الأولى أن تولد في حبات الندى على أوراق البراعم الغضة يمضي في الحارات ذاهلا عن مواجعه. الدور غير الدور. حقيقتها إن غابت عن العين لم تغب عن الأذن ولا عن الفؤاد. إذا ما خلى الواحد بين قلبه وبين الخواطر. يرهف السمع ويرهف الحس، الهجس غير الهجس. في هذا الموقع من الدنيا صرع الخوف قلبه كل مرة. الآن لا. أهو الموت إذن أم هو يهرف من العلة؟ أم أنه من صميم القلوب الهاجعة تحت أكوام الرقاد ما عادت تنزف الكلمات المسمومة، التي كسرت قامته، ونكست هامته، ونشرت العلة في عظامه؟ كلمات أخر، تبارك العيال. يرهف الوجد. يجري حافيا حتى يرتمي بجسده كله مفرود الذراعين، مبسوط الكفين، على مصراع باب دار الجد. برودة مسامير الحديد تنشر الراحة في قلبه. تسعى أصابعه متلمسة باحثة عن تلك اليد حتى يجدها. يتحسس أصابعها النحيلة المثلوجة وهو يضحك، والعرق يتصبب من جسمه المحموم. يدفع الباب داخلا. يميل على غرفة الجد. الجد والعجوز

متربعان على الحصير. الركب متلامسة، والوجهان متقاربان، والمصباح ساهر، وبينهما الحامل عليه كتاب مفتوح وهما ميتان.

جلس الحفيد ثالثا لهما. جسده محموم ينتفض، وعرقه يتصبب، ودموعه منهمرة. يطل على الصفحة المفتوحة ويقرأ: ﴿يسٓ ① وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ③ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ④ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ⑤ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ...﴾ ويظل يقرأ حتى يملأ ضوء النهار الغرفة، يطفئ المصباح ويسجي الجثتين وهو يجهر بالقراءة ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

أدنى الجلابيب على السيقان. وضع الأكف على الصدور. أطبق الفمين وأغمض العيون. وضع الحامل وعليه المصحف عند الرأسين. جهر بالقراءة ليغالب ذلك الفراغ الذي انتشر في جوف الدار بموت هذين الإنسانين الحبيبين. لكنه فراغ لا يدفع. إنه اليتم الذي إذا أصاب القلب لا يبرأ منه القلب بعد ذلك أبدا. مضى الحفيد وهو يجهر بالقراءة إلى خزانة الكتب. جلس على الحصير إلى الطبلية. أخذ أسطوانة النحاس وأخرج منها لفافة الورق. فردها أمامه وشرع يتأملها. آخر كلمة في سطر كانت «القطب». وقبلها كانت كلمة «كريمة سيدي حسن الدين».

أخذ الحفيد ريشة الجد وغمسها في حبر الدواة. وأضاف إلى جوار كلمة «القطب» في السطر الأخير من السجل كلمة «الحفيد». تأمل لمعة الحبر. نثر عليها مسحوق التجفيف الأبيض ثم نفخه. نظر إلى

الكلمة. راعه أن خط يده يشبه خط يد الجد تماما. طوى لفافة الورق وأعادها إلى الأسطوانة النحاسية.

عاد الحفيد إلى غرفة الجد. جلس على الحصير حيث كان يجلس وهو طفل. يغمض عينيه ويحاول أن يستعيد ذلك الأمان القديم فلا يجده. نعم لقد مات الجد. تذكر العيال. إنهم الآن في الحقول أو في الدور، في الحارات أو على الترع. أو لعلهم في المسجد يتدارسون. أحس الحفيد بالفرح وبالخوف. شعور يشبه أن يكون قلقا. إنها النعمة أن يبقى الواحد طفلا في كنّ أب كبير، وهو العذاب أن يكون الواحد أبا ووراءه عيال. لكن لا محالة. ألقى نظرة على الجثتين المسجاتين وقام. خرج من غرفة الجد إلى الباحة الصغيرة، إلى وهج النهار في الحارة، وإذا سار خطوة التفت إلى باب دار الجد. اليد الأنثوية الرقيقة ممسكة بكرة الحديد الصغيرة، قال الحفيد في نفسه: ما أجمل هذا! وقال إنه لن يستطيع أن يعود مرة أخرى. لكنهم سيأتون، أناس آخرون.

مشى في الحارة. الشمس شديدة. يمشي كأنما يحملها على رأسه. يرتعد من الحمى، والعرق يتصبب من جسمه، والدموع تنهمر من عينيه، ولا يكف عن القراءة. اشتاق لأن يراها. مضى إلى دارها. يحبها منذ سنين. ولم يكن يملك إلا أن يحبها. وهو منذ سنين معتاد على رؤيتها. لها غرفة على السطوح صغيرة وحيدة تحت ثقل الشمس. يدفع الباب ويدخل ويغلقه وراءه. تقبل عليه من ركن غرفتها مرحبة. يجلس إليها صامتا منصتا. تحكى وهو يسمع ملهوفا. تحكى من كربتها وعن عذابها. ولما أدركت أنه يسمع ويفهم أمسكت يديه

العجوزتين بين يديها البضتين الطفليتين، ثم وضعت خدا طريا ناعما في حفانه، لا يزال يحس بدفئه في يديه حتى الآن.

لكنه اليوم وجدها عارية، جالسة في الطست على كرسي تستحم. نظر إليها. ترددت قليلا ثم قالت لا بأس، جلس قبالتها وهي واصلت استحمامها. تكف عن صب الماء بين آن وآخر، حتى لا تطغى كركرته على صوتها وهي تحكي. تظل تقول وقطرات الماء كالدموع منحدرة على جسمها. أدرك الحفيد أنه أحب جسمها دائما. الحمام يشيع في سماره وردية يانعة وهي تحممه باعتناء وحنان. وعندما انتهت جففت نفسها متأنية. قال الحفيد في نفسه إن المرأة كائن وسيم وفيه نبل. وهي لاحظت في عينيه محبة. ربما أشرق وجهها بالابتسام. قالت له إنها طلقت من زوجها، وإنها تحس أن روحها طليقة متحررة، وأن قلبها الآن متعلق بواحد من العيال فارع عريض الكتفين، محدودب واسع العينين، لا يتكلم إلا قليلا، وإذا تكلم كان خفيضا هامسا.

تحكي رتيبة الكلمات نضيضة المقاطع، عذبة الصوت. تحكي والحفيد يتأمل الفرحة في وجهها الوسيم، وعينيها البنيتين، وحاجبيها المتقوسين، وأسنانها الناصعة كقطع الصدف. الآن ارتدت قميصها ومشطت شعرها. الآن هى كالعروس في انتظار الجلوة. قال لها الحفيد: الآن قومي وليشق صراخك أجواز الفضاء ينعي إلى الناس موت الجد. وقد كان، وتجاوبت أجواز الفضاء بالنبأ المرتقب.

* * *

فتح الحفيد عينيه. ما زال جالسا على ظهر القبر بين الشاهدة والصبارة. الشمس تضربه في يافوخه، وعيناه معشيتان، لكنه شيئا

فشيئًا يرى الأشياء حوله. ومن بعيد يأتيه صوت القراءة والنواح. ألقى نظرة على امتداد القبور. ثم حول بصره إلى قبة القطب وبان على ملامحه شبح ابتسام، نظر إلى السكة المؤدية إلى القرية، موكب الجنازة آيب الآن، وهو موشك أن يصل إلى البلد. قال الحفيد في نفسه إنه لا بد من أن يقوم ليشترك مع الناس في العزاء.

حَمَل جِمْل كتبه ومشى في السكة إلى القرية. كلما اقترب منها علا صوت القراءة. قبل أن يدخل القرية التفت الحفيد إلى المقبرة. المقام وسط جماعة القبور. أقبل الحفيد على القرية. انخرط في القراءة. كل الرجال قارئون، وكل النساء معددات. الأصوات تزلزل القرية من جذورها. الناس أمام أبواب الدور على جانبي الحارة صفوفا صفوفا. فقهاء عور أو عرج أو منتفخو الكروش، صفر الوجوه. عيال معلولون. رجال ونساء وأطفال. كل واحد يحمل في ثلاثة أرباع جسده الموت. يقرءون الصمدية على روح الميت الذي دفن. ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾. الآيات رايات خفاقة. الحفيد يقرأ وهو محموم دامع. وجد أن صوته عال جدا. وفرحان جدا، وجميل جدا أيضًا. ضحك وهو محموم ذائب الدماغ. قال في نفسه وهو نشوان: «نحن الذين نحمل في أجسامنا من الموت أكثر مما نحمل فيها من الحياة. نحن فقط العارفون بخبر الآخرة. نحن القادرون على أن نعطي الدنيا الحياة» ثم أسلم الحفيد عينيه للغمض.

برلين الغربية في يوليو ١٩٨١

الأخت لأب

هذا القطار يستلب شوكت، وهزيمه الرتيب الوحشي يتدفق في عروقه، ينبض جسده مع نبضات القلب الفولاذي الهائل، يمتلئ كبرياء وحزنا، ينظر محاذرًا متخوفًا إلى العيال الباعة الذين يتقافزون بصناديق بضاعتهم بين مقاعد الركاب، وإلى رجال نحيلين في ثياب رثة لهم عيون الحدءات ومناقيرها، وإلى نساء لحيات وسخات ينادين على فاكهتهن العطنة نائحات في شراسة، وإلى ماسحي الأحذية الذين يصفقون بالفرش على صناديقهم الزرية، تلك زفة كفار تضج بالعدوان والقبح بلا قراءة أو وقار، لا تَني تتفلت بين المقاعد، والركاب على الجانبين ينظرون بخوف، الحشرجات المسرسعة الملهوجة محتوم أن تندحر تحت هزيم هذا القطار الجليل.

يصرف شوكت عينيه إلى الشباك محاذرًا أن يؤرق استسلام روحه لتسلط الصخب المكتسح، أعمدة التليفون تنسحب مسرعة واحدًا وراء الآخر، وتلك الترعة الصغيرة تنقطع أنفاسها للحاق بالقطار الماضي في عزم، يبتسم لها شوكت من قلبه، وجهها تغطيه سحب من نبات البشنين والباسنت، وبين آن وآخر تنبثق زهرة بيضاء في ركام الخضار، يتحسسها شوكت من البعد بعينيه، يعرفها ريانة ناعمة الوجنات.

حافة الحقول تدور حول نقطة ثابتة غائرة من الأفق، جميزات

وشجرات سنط جواثم على شطوط أخاديد الترع المتعرجة عبر امتداد الحقول، وهنا وهناك رجل أو بهيمة ينظرون إلى القطار المنطلق وهم مثقلون بالغوث ومذلة القعود، تتعلق عيونهم به لحظة.. ثم يثوبون إلى دأبهم الوئيد.

ويريد شوكت أن يستجلي تلك النقطة الثابتة التي تدور حولها كل الأشياء، ويحذر أنها ربما تكون في مقر بحر الصمت هذا المعلقة فوقه الشمس، وأن صلصلة أحشاء القطار الفولاذية إنما هي دوران حذو الحافة، والهزيم المدوي تربطه إلى الصمت المطلق أحبال يراها قلبه، يدوخ فهمه لغرابة هذه القرابة المحكمة،... يثوب.

المنديل الأزرق منصوب على جبين أمه الأبيض الناصع المتورد، يتمنى أن تحضنه، وأن يضع باطن أنامله يتحسس نبالة هذا الجبين، وهذين الحاجبين الشقراوين القليلي الشعر، وأنفها الرقيق المستقيم، يتمنى، لكن أمه لا تفعل، وزمّة فمها لا تنفرج، وتلك الخطوط الرقيقة تشع حول الشفتين القائمتين وتغيب في الزغب الأشقر على بياض خديها وذقنها.

عبر الشباك تسبح عيناها بعيدًا في الأفق، يستحي شوكت من إحساسه المرير بالغربة والوحشة، ينكّس بصره، يتأمل كفي أمه الكبيرتين وأصابعها القوية، تضم جودت الرضيع في لفائفه الكثيرة، يرى أذن الصغير ووجنته وأنفه وعينه المغمضة وشعره الأسمر الملتصق بجبينه، ما أسعد أن يكون الواحد طفلا صغيرًا محضونًا ملفوفا.

يعرف شوكت أن ثمة في حياته يومًا بعيدًا كان فيه طفلا ملفوفا

محضونا، وأن هذا اليوم كان جميلا، وأنه لا تزال تُحكى عنه الحكايات، عن الكلمات المتموجة الأولى، عن رمد العينين ووجع البطن وتردد أمه به على الحكماء، ينصت شوكت لهذه الحكايات خافق القلب، حكايات ما تلبث أن تنفضّ ويقوم الناس إلى شغل الدار وهموم المعاش.

لكن شوكت لا ينسى، تلقي به الحركة الدائبة إلى ركن مقصي، يتأمل أمه تعمل في الدار بكل عزم، رنين الحكايات في قلبه لا يزال، يريد أن يصطاد عيني أمه، يبحث في أغوارهما البعيدة عن طفولته، عن تلك النقطة الثابتة التي يدور حولها قلبه دورة كئيبة موحشة.

شهرت التي لا تزال تعاني من الفطام تنام على حجر أخته لأبيه مبروكة، تمص في رتابة سبابتها المطوية، مبروكة تهدهدها كل آن بحركة آلية من فخذها بلا كثير اهتمام، لكنها لا تغفل عما حولها، ترقبه بعيني دجاجة خائفة، وإن كانت على خوفها البادي لا تنسى فرحتها بمنديلها الزهري المثقل بالترتر، المربوط في عقدة كبيرة على شعر مقصوص، ولا تنسى زهوها بقرطها الذهبي، تتلفت في عجب، عيناها بنيتان كبيرتان في وجه أسمر شاحب.

شوكت ينظر لها متعجبا، يربطه بها التعلق والمهابة، مسحور بها دائمًا، مندهش لا تسفر دهشته عن فهم، في الأول كانت تقضي سحابة يومها في الحقل مع أخيه الأكبر لا تئوب إلا في المساء، يرقب شوكت عودتها في قلق، يطير فرحا إذا رآها، يقضيان المساء يلعبان إنْ في الدار أو في الشارع، لا تنفد أغانيها ولا تنقضي تفانينها ولا تغلب حيلها... الآن حاشها الأب عن السروح وكرسها لرعاية شهرت المفطومة،

والآن يتبعها شوكت كظلها، وهي تحمل المفطومة غافلة عنها كأنها الطفلة جزء منها، تغني وتزعق، تلعب وتجري في كل اتجاه، وكل آن تلتفت إلى شوكت:

ـ تعــال..!

يهز رأسه مؤكدًا ويجري لاحقًا بها.

وقد غضبت عليه مرة وهما يلعبان، ولم يتحقق ماذا كانت جريرته، وهي لم تقل له شيئًا، لكنه رآها تنتصب فجأة واقفة، ساقاها رفيعتان سوداوان مغروستان في الأرض، تحمل شهرت على ذراع وذراعها الأخرى حرة تلوح بها في كل صوب، أو تبسط كفها على خاصرتها ملقية كتفيها إلى الوراء ووجهها مكفهر غضبًا:

ـ أتباهيني بأنك أبيض وأنا سمراء..؟!

ولم يفهم شوكت شيئًا، مباهاتها لم تخطر له على بال، لكنه يبهره أنها تتكلم كالكبار، وحتى في الكبار لم يسمع شوكت أحدًا يقول هذه الكلمات العجيبة:

ـ أتباهيني بهذا..؟ مباهاتك مردودة عليك... الجير بالأكوام والفلفل بالميزان..!!

ونسي شوكت حتى خوفه منها، انشغل عقله بحل طلاسم كلماتها وملاحقة حركات قدها العفريت، موصولة به شهرت المفطومة تروح وتجيء معه، وذيل منديل رأسها يطير خافقًا وملامحها تتراقص في وجهها المكفهر:

ـ اعرف إذا لم تكن تعرف... نحن سمر... السمار لنا.. والبياض عار علينا..!!

وقبض على قلب شوكت خوف من هذا الإعلان الحاسم، لم يفهم شيئًا كثيرًا لكنه كره أن يُنْبَذ، أن يُنْفَى، كره تلك الشقرة في شعره، وأن يكون توحده مع عالم أبيه وأعمامه وأخيه الأكبر هكذا غير واضح، تمنى لو كان أسمر أجعد، وتمنى لو كانت زوجة أبيه هي أمه، وأن يكبر ويلبس جلباب الفلاحين ويحمل الفأس على كتفه رجلا هائل الساعدين.

لو كانت أم مبروكة هي أمه، وأن ينام عندهم، زوجة أبيه أرفق به على أي حال، وهي تحضنه كثيرًا وتقبله، لكنه يجد قبلاتها لزجة، وبين جسده وجسدها يبقى حائل رقيق من الغربة لا يذيبه الاحتضان، ولقد نسيت مبروكة زعلها فجأة وأكبت على عالمها الصغير، البيت المرسوم على الأرض، عرائس الطين وأدوات الطبيخ، تلعب وتغني في انخراط كأنها لم يحدث شيء، أما شوكت فإنه كانت تعذبه الحيرة.

يكره شقيقته الصغيرة حكمت الجالسة بجواره على المقعد، فهي سمجة وبليدة، ويكره بشكل خاص جوربها المتدلي على صندلها في غباء، رفس رجلها المدلاة المتأرجحة، والبنت لوت شفتيها وامتلأت عيناها بالدموع، ثم انفجرت في بكاء لا يمكن لضجة القطار أن تخفيه، والأم رمقت شوكت معاتبة:

ـ لا تترك أختك لحظة دون أن تؤذيها..!

وهو رد معاندًا:

ـ إنها توسخ جلبابي بصندلها يا أمي..!

وردّت الأم متوسلة:

ـ هل ندخل على جدك وجدتك بالنكد في أيدينا..؟!

قالت هذا وهي تشد البنت تجلسها إلى جوارها، وبقي شوكت لوحده على المقعد، يداري كسوفه أمام عيني أمه بالتلفت، أو أرجحة رجليه، أو تأمل كفيه، ستكونان مليئتين بالنكد إذا دخل على جديه، عبس، كيف يكون ذلك؟ خاف ثم شرد، عاد يستلبه صخب القطار، وظل هكذا معلق القلب، ثم أصبح الصوت عميقًا مجوّف الأصداء، أدرك دخول القطار على الكوبري، وقف في الشباك يرى البحر والقلاع البيضاء على البعد، ثم صف الشجرات المقصوصة في الشارع الطويل على الشاطئ، وصف العمائر الكبيرة، والناس الكثيرين، ثم يدخل القطار مجتاحًا مسرعًا قويا على صفوف الوجوه الخائفة الملتاعة المتوثبة على رصيف المحطة.

وقف القطار وحصل هياج عظيم، الراكبون يهجمون على الأبواب والشبابيك، والنازلون يتملصون محاولين الخروج من الفتحات المسدودة بهذه الأجساد، الكل يصرخ ويزعق ويشتم، الكل يحمل صررا وقففا وسلالا، والباعة يجرون ببضاعتهم كأنما شبت في ذيول جلابيبهم النار، والمتسولون يعرضون عاهاتهم ويدعون ويتوسلون بالأولياء، وشوكت مذعور ألّا يجد في قلب هذا الهول بائع الحلوى، وإذا يجده تتكلبش عليه عيناه، لكنه يعود ينفلت منه غائرًا في قلب الزحمة، ما يراه مرة أخرى حتى يصرخ:

ـ ها هو يا أمي...!

ورمقته الأم معاتبة أسيفة:

ـ لا تصرخ هكذا كأنك لم تر الحلوى في حياتك..!

ثم إنها أخرجت صرّة نقودها، والرجل لف الحلوى وخطف القرش وطار يصيح مناديا على حلواه.

يمضغ شوكت ويتمطق في استمتاع سارق سرق ولم يضبطه الخفر، مسرة دهشة مستهترة تلف قلبه، يرمق مبروكة، إنها ملولة أو هي دهشة، تمضغ في رتابة، يلقي برأسه إلى الوراء يطوّح رجليه خجلاً، يريد أن يداري ولعه الشديد بهذه الحلوى.

القطار يتحرك بحمله، الناس مبعثرون على الرصيف يولون ظهورهم ويمضون نازلين، أو تتعلّق أبصارهم بناسهم المسافرين يلوحون لهم من الشبابيك، والراكبون قد تفرقوا على المقاعد في العربة، يتأملهم شوكت، في أفواههم بقايا شتائم غاضبة تختلط بضحكات انتصار، فالواحد منهم في النهاية قد ركب، وقد وجد مقعدًا خاليًا، لكن ثمة هنا وهناك من يسأل ملهوفا على العيال، أو على القفف والصرر والسلال، وبين صفي المقاعد يتدفق سيل الباعة والمتسولين وماسحي الأحذية، ويختلط النداء على البضاعة بالتوسل بالأولياء بخبطات الفرش على صناديق الورنيش، شوكت يراقب كل هذا، في فمه طعم الحلوى وفي قلبه تتصاعد سرعة القطار رويدًا... رويدًا.

إنه حينما يأكل هذه القطعة من الحلوى على هذه المحطة يكون قد قارب على الولوج في عالم بيت جده الغريب، ولقد بدأ يسمع لكنات الألسن واختلاف ملامح وجوه الناس وسيرتهم في ألوان الطواقي، وتوسيع فتحات صدور الجلابيب وتدلية الأكمام، ويضج الضحك

في قلبه إذا يصطاد سمعه كلمة تبين فيها المغايرة بين كلام الناس هنا وفي قريتهم.

يرتجف من بهجة الارتحال، لكن وجه أمه لا تستريح فيه أبدًا زمة الضم ولا تتوانى فيه العينان عن التحديق الحازم المتسائل، يترقب متعبدًا، كل خلية في كيانه قلب نابض بالحب، حتى يرى في الجبين النبيل رقراق سرور خفي، يهز رجليه فرحًا، يضحك ضاما يديه في حجره.

يرفع بصره صوب مبروكة، عيناها البنيتان الواسعتان فيهما شيء من الانصراف أو الاستنكاف، تنظر إليه كأنها مفارقة، تباعد بينها وبين فرحته بعالم جده هذا، تغبطه بخلاسيته وعدم نقاء انتمائه، بنت الأب هذه التي لا ترحم ولا تحاول أن تفهم، ربما كان أحسن لو أنها لم تأت معهم، تنغص عليه سروره، ينقبض قلبه وتركبه الكآبة.

ينظر من الشباك يعرف ملامح الطريق، يعرف اقتراب قرية جده لأمه، ويدرك في قلبه تخلخل سرعة القطار، يقبض على قلبه الخوف، تنهض الأم حاملة جودت الرضيع، تنهض مبروكة حاملة شهرت المفطومة، تتجه إلى الطرقة بين صفي المقاعد دون أن تنظر إلى شوكت، ويكون شوكت في آخر صفهم وفي يده أخته حكمت، يسيطر على داخله الصمت، وعلى ما حوله رغم الضجة، شيء ما في قلوب المسافرين، شيء صغير مرتعد وخائف، فما أحد يدري ما الذي يختبئ في آخر السكة.

كان شوكت في الفترة الأخيرة يتفكر كثيرًا في بطن أمه الهائل

من الحبل، وذلك العذاب في عينيها، وكدحها في وسط الدار وهي مثقلة بحملها لاهثة، يتفكر في هذا وهو يلعب وحده أمام باب الدار، يصيبه القلق على أنه يريد أن يعود لكنه يحجم وينقبض قلبه، ففي دارهم لا ينفضُّ العراك أبدًا بين أمه وزوجة أبيه أو زوجة أخيه، يتعادون بشراسة وضراوة من الصبح حتى الليل، يطل شوكت من الباب المفتوح على وسعه، يرى أمه تكنس وسط الدار، تحمل الكناسة إلى الزريبة، تطعم الفراريج، وفي كل هذا لا تكف عن العراك الشرس وهي قائمة بحملها الثقيل في الباحة. زوجة أبيه وزوجة أخيه كل على عتبة غرفتها يبادلانها الزعيق بمرارة وحنق، يلوحان في وجهها بأيديهما، يصفقان بالكفوف ويضربان الأرض بالأقدام، وأم شوكت تذود عن نفسها بضراوة وإصرار، يظل شوكت يتأمل هذا المشهد حتى تتعب عيناه، ويغلِّف المرئيات ضباب، كأنه يحلم، وكأنما يرى رقصا غريبا أو مناحة عظيمة، وهناك موت وقبور فاغرة الأفواه مظلمة الحنايا، ويرى شعورًا مهوّشة ووجوهًا مخموشة، يدرك أنه يضحك من الرعب، يمضي مبتعدًا عن الدار، يحدق في المرئيات من حوله كأنما أفاق من نوم طويل.

تحت النخلات في الجرف الذي تطل عليه شرفة الدوّار لا يجد أحدًا، الناس الآن في الغيط، كذلك العيال، وإن كان الكبار منهم في الكتاب أو في المدرسة، لا يحزنه هذا كثيرًا، يستطيع أن يلعب وحده، من الخير أن عمه وأخاه في الغيط، مبروكة مع الأخ الكبير تساعده، وعندما تعود تحكي أن ذلك كان رائعًا، لكنه لا يريد أن يكون معهما، من الخير أن العم والأخ الكبير ليسا هنا الآن، يبرطع وحده تحت النخلات مسرورا، يتقافز هنا وهناك، لكن الملل يلحقه سريعًا،

يمضي جاهلا غير عارف ماذا يصنع يمر أمام شرفة الدوَّار، لا أحد يجلس فيه الآن.

الأب مسافر، هو دائمًا على سفر، يلبس جلبابه الكشميري الكبير وعمامته الشاهقة، ويضع عباءته مطوية على كتفه، ويعلق مظلته على ساعده الأيسر مضموما إلى قلبه، ويتخذ عصاه، يتجهم وجهه، وتطير عيناه تطلان على الأبعاد ويمضي، يخلِّف شوكت وحيدًا مكسورًا، يجمع شمل نفسه، يمضي إلى أمه، يتلكأ في الأركان، يأمل أن يصطاد التفات عينيها، اهتمامها، فالأب إذا عاد يزعق، يحكي متوثبا في مطرحه عما رأى وشاف ولا يأبه لـ«شوكت» إلا قليلا.

يرى زوجة جده جالسة أمام باب دار أعمامه وحولها العمات وزوجات الأعمام، يجري ماضيًا نحوهن. وإذا يقترب منهن ينظرن له بعيون غير ودودة، ينكسف ويخاف منهن، لكنه يواصل مضيه نحوهن، لا ينادين عليه، يجلس بعيدًا، يصطنع أنه يلعب بشيء في الأرض وأنه لاه عنهن، لكنه في الحقيقة ينصت لهن ويراقب حركاتهن ويدرك أنهن يتكلمن عنه، يشتمن أمه ويعبن عليها بالغمزات والضحكات، يصيبه الخوف، يقوم متسللا، لا يستبقينه ولا ينظرن أين يمضي، يحس كلماتهن في ظهره، تكبس على قلبه غيوم الكآبة.

يمضي بقلبه الثقيل في صدره، الأشياء أعوص من أن يصورها في كلمات، يحجل، يتقافز، يمضي، يدبّ في أرجاء دار أعمامه الشاسعة، من الخير أن الجدة والنسوان قد اتكأن الآن أمام باب الدار ينشدن طراوة العصر بعد انكسار الظل، ويخلين بينه وبين هذه الدار التي تملأ قلبه حبا ورهبة.

هذه الغرفة كانت للجد المرحوم، كان رجلا صالحا، وكان يقرأ فيها طول الليل قرآنا، وكان في خدمته نفر من الجن الصالحين، هكذا تروي مبروكة عن بخيتة، وهي امرأة سوداء كانت جارية للخدمة في هذه الدار في الزمن القديم، وهي تعيش الآن عند ابنها في القرية البعيدة تلو الترعة الكبيرة، وهي تأتي كل حين، وتحل على الدار ضيفة أيامًا ثم تعود إلى ابنها برزق من الحبوب والخلقان، وتقول مبروكة إن بخيتة ـ بفصَّي عينيها السوداوين ـ ترى ما لا يراه الناس من خلق الله.

ويمتلئ قلب شوكت ضحكا إذ يتذكر بخيتة وضيقها ـ ربما ـ بحبس المراحيض، وإيثارها أن تفك حصر نفسها في زريبة البهائم، ها هنا، وتلصص العيال عليها، يريدون أن يروا عجيزتها السوداء كخشبة محروقة، ثم إذا تنهرهم فروا يتقافزون ضاحكين لكن شوكت يكفّ نفسه عن الضحك، فالجن الصالحون ما زالوا يعمرون غرفة الجد الكبير، وربما عصفوا به لو رأوا اجتراءه على أثيرتهم بخيتة.

يطل شوكت من باب الغرفة الموارب على جوفها المعتم الرطيب وتملأ خيشومه رائحتها العطنة، ينسحب متراجعا رهبة وانقباضا، إنها غرفة مبروكة، مجعولة لولادة الحبالى وتمريض المرضى، لا يدري، ربما تكون البركة شيئًا معتما رطبا عطن الرائحة.

لكن الغرفة الأخرى فيها ركن غير مأمون، ربما لأنه واقع لصق زريبة البهائم، والكفرة من الجن يسكنون مباءات الوسخ، ويولعون بما تعافه النفس، وإيقاع الشر بالخلق، هكذا تهمس مبروكة لهم في الأماسي، مخافة أن يسمعوها، وعليها فلا ينام أحد في هذه الغرفة، إنما يُخزَّن فيها تبن البهائم والمحراث القديم المكسور، وبقايا نورج، وفيها

كذلك تلك القنينة الكبيرة المتسخة، المسدودة بقولحة قديمة، مملوءة بزيت أخضر مخصوص لقراع الرءوس. ارتعب منها شوكت، فإن أمه حذرته أن يلمسها. وقالت إن أنفاسا نجسة تخرج منها، تحمل القراع لرأسه إنْ هو اقترب منها، ساعة استعاذت زوجة أبيه من الشيطان وقالت إن القراع قسمة ونصيب، لكن أم شوكت لم تأبه لكلامها وأكدت على شوكت تحذيرها.

في الركن الآخر من الدار فرنان كبيران وكوانين هائلة، تحكي الحكايات أنه ها هنا خبزت الزواويد للأسفار ولموالد الشيوخ، وأنه على هذه الكوانين طبخ طبيخ اللحم في ليالي الأفراح والمآتم. شوكت لم ير شيئًا، وبدار أعمامه يستخدمون الآن فرنا واحدًا، وربما تسكن الآخر العفاريت، لا يدري. إنما السقف والحيطان مسودة من سناج قديم، والعريشة عامرة بأعشاش عصافير لا تكف عن الصوصوة والتقافز. صخب عظيم، لكنه كائن في جوف صمت محكم، كأنما يراه شوكت في الزوايا والأركان.

وفيما تحكي مبروكة أن العم الأصغر نصب مرة سلما وظل يجوس في العريشة بيديه باحثًا عن أعشاش العصافير الهاجعة في غبش المساء، وهنا على ظهر هذا الفرن كانت مبروكة وعيال آخرون يتحسسون ظهر الفرن بحثًا عن عصافير تسقط من الأعشاش مصوصوة، وتقول مبروكة إن يدها الباحثة قبضت على تعبان تكورت بطنه بعصفورة كان قد ابتلعها.

يتسلل شوكت متحذرًا صموتا لا تخطئ عينه حصاة. في جولاته الكثيرة في هذه الدار يجد دائمًا شيئا ما، جلدة أو خرقة أو حديدة. يظل

يقلب الشيء في يده وفي عقله حتى يجد له نسبًا إلى صورة يتصورها، أو إلى حكاية يكون قد سمعها.

هذه الخرقة التي تصلبت بالرطوبة والوسخ ما هي إلا بقية معطف مما يتخذه الأفندية، ولا بد أنها كانت لأحد الأعمام أيام كانوا يروحون إلى المدرسة. لقد سمع عن هذه الحكايات الحزينة، وكيف أن الجد أرسلهم جميعًا إلى المدرسة، وأن الحمير سافرت كل يوم تحمل لهم في المدينة الزاد والزوّاد، لكن أحدًا منهم لم يفلح في قراءة كلمة. كروا إلى القرية راجعين. خلعوا المعاطف والأحذية، ألقوا بها بعيدًا وأخذوا بمقاود البهائم وسرحوا إلى الغيط.

وإن شوكت لا يفهم، ولا يعرف كيف يصدق، وإنه ليحدق في عيون الأعمام فلا يجد غير القساوة والمرارة والكراهية العميقة. يعييه العماء لكنه لا يكف فضوله الملح، والأعمام هكذا لا يتغيرون. وإذا حُكي طرف من حكايتهم هذه وهم شهود لا ترف في وجوههم الصلدة رفة حنين للذكرى، يعود شوكت خائبًا كسيفا، فهو لا يدري ماذا.. وكيف؟

ينخرط في تنقيبه الدءوب في الحنايا والأركان. هذه حديدة تراكم عليها الصدأ. يعالجها بين يديه أياما وأياما حتى إذا ما يئس سأل الأم فقالت له إنها لجام فرس. فرح، أدرك أنه يمسك بيده كسرة من جسد حكاية من الحكايات الكثيرة التي سمعها عن خيل كانت للجد، بل وللأب أيضًا. وإذا كان قد وجد أيضًا هيكلا عريانا لسرج من سروج الخيل، وإذا كان قد زود حديدة اللجام بما وقعت عليه يده من حبال، فقد تسلل بهذا كله إلى زريبتهم.

حمارتهم السمراء الكبيرة واقفة هناك، في صمت الزريبة، كئيبة بالتوحد والهرم، مستسلمة لذبابات تلغ بنهم في مآقيها وفي جروح ظهرها. مسح رقبتها بحنان وهي أطلقت تنهيدة طويلة. تردد قليلا، لكنه ألقى بهيكل السرج على ظهرها. بحر هذا الظهر بالغ الطول مسلوخ مجروح من عناء الشغل وكرب الأحمال. تنغص سرور شوكت أكثر، لكنه واصل محاولته. ألقم الحمارة حديدة اللجام. نط ركب وجذب بيده حبل اللجام. بهجته يشوبها التأثم، لكنه يجذب اللجام بشدة. الحمارة مستسلمة وأذناها الكبيرتان مترهلتان والذباب مهتاج! يطن حول عينيها. نزل شوكت من على ظهرها خزيانا. أخذ أشياءه وخرج.

ربط هيكل السرج على كرسي دون مسند مما يوضع تحت صينية العشاء، مُنَجَّدة ببقايا حِرام، وأحبه كثيرا كان يمتطيه ويهتز به مائلا إلى الأمام وإلى الخلف وهو يطلق صيحات فارس مهول يطير به الحصان قافزا فوق العوائق، وأمه لاهية عنه عاكفة على ماكينة خياطتها. مل الكرسي الحصان بعد ذلك ولم يعد يعيره اهتماما.

لا يوجد في الدنيا أكبر من دارهم إلا دار أعمامه هذه الهائلة، ينطلق فيها في كل صوب، يحجل في فنائها الواسع حتى يدركه الملل، يتجه إلى السلم الصاعد إلى السطوح. عند الانحناءة يوجد ركن الزير. صامت رطب مبلول والقطرات تتجمع عند القن رائقة. تثقل حتى تسقط في بركة صغيرة تحته.. طم..طم.. طم، وشوكت يرقب منسحبا يتراجع إلى الوراء بظهره حتى تلمس كفه سياج السلم.

وبعد بضع درجات يكون المرحاض، تحاصر شوكت الرائحة

الرطبة النتنة، يتلمس نعومة خشب السياج صاعدًا إلى أعلى. الشمس منصوبة على تلك الباحة أمام الفرن. يتصور شوكت كأنه من تحت هذه الشمس المتقدة تئن عروق الخشب وأعواد الحطب وذلك الصندوق الخشبي القديم الكبير.

في هذا الصندوق بقايا زوجة الجد التي ماتت في الزمن القديم. كانت صالحة سرها باتع. أحبها الجد وبنى لها قبة، وهذه بقاياها في هذا الصندوق لا يجرؤ أحد على استباحة حرمته، ويحذرون من ذلك كل التحذير. لكن مبروكة تنقض عليه مثل حدأة. تختلس منه قطعة قماش ملونة تصنع منها ثوبا لعروستها. تقول تفعل وتفر مسرعة قبل ما تلحقها الجن حارسة الصندوق فتعطبها بلمسة. شوكت لا يجرؤ على الاقتراب، يعبر مسرعًا.

يعبر من سطح بيت أعمامه إلى سطح الدوّار. المنور محاط بسياج متخلع مائل يلمسه محاذرا يطل على أسفل. يتخيل أنه يسمع اختلاط أصوات الرجال ويميز صوت أبيه، يضحك. الباحة بين الغرف العلوية مسقوفة، ومن الشبابيك تهب طراوة. هنا تجلس أمه أحيانًا على ماكينة خياطتها، تخيط لنفسها أو للعيال وأحيانًا تخيط بالأجرة ومن هذه القروش تستطيع أن تؤثره أحيانًا بحبة فاكهة أو قطعة من العجوة. هي الآن مثقلة بالحبل لا تجلس إلى ماكينة الخياطة. غرفتها الآن مغلقة لا تتخلى عن مفتاحها أبدًا.

قفز نازلا إلى سطح دارهم الأوطأ من سطح الدوار. يتحسس سكته بين مخازن الغلال وجرار الجبن القديم، يعرف أصابع أمه على السدادات وبصماتها على باب خزانة اللبن. تأتي إلى هنا كل يوم.

تضرب القشدة في برام الفخار. يجلس قبالتها كقط. كل آن تمد له أصبعها يلحس ما عليه من قشدة. ضحك وطار نازلا من على السلم إلى وسط دارهم.

لكن قلبه انقبض، فالعراك ما زال دائرا. جو الدار عابق بالشر، والزعيق فيه غل وإحن يصك القلب. كأن العصافير في العريشة تفر مذعورة، والحمامات في البناني تطل صامتة والدجاجات تنكش بعيدًا في الأرض غير مدركة شيئًا. يتسلل جنب الحيطان لا أحد يحس به. يتطلع إلى وجه أمه أزرق مسودًّا، لكنها تنافح عن نفسها بتصميم. يكاد يبكي فهو جائع. يلقي نظرة على أمه ويمضي.

خرج شوكت أمام باب الدار. رأى وسمع الضجة العارمة تحت النخلات في الجرن الذي تطل عليه شرفة الدوّار. عرف أنه لا بد أن يذهب. مسلوبا مثل شاة ضربها الذئب في أم رأسها بنابه تتبعه مخبولة مترنحة حيثما ذهب ـ مشى ناحية الضجة ثقيل الخطوات غائص الشعور لا يرمش له جفن.

كان العم الأصغر والأخ الأكبر وجمع كبير من رفاقهما قد تحلقوا حول كلبين يتعاركان، أحدهما يفتك بالآخر فتكًا شنيعًا، وهذا يعوي كأنه رجل مجروح. حينما يزوغ من النزال تضيق عليه حلقة الجدعان محكمة لا تدع له مهربا. يهجم عليه العم يحمله ويطرحه على الكلب الآخر يشبع فيه عضا وتمزيقا وهو يعول عويلا موجعا. الجدعان محمرو الوجوه مخلوعو الطواقي مشعثو الشعر مجنونون بسرور شرس. يكاد الكلب يموت، حينئذ يرفسه العم بلا رحمة. يتركه يجري والكلب الآخر يلاحقه ينشب أنيابه في ظهره.

ومشى العم لاهث الأنفاس منكوش الشعر مجدور الوجه محمر الجفون يعرج بعرق النَّسا وحواليه وخلفه الجدعان. ما إن وقعت عيناه على عيني شوكت حتى صرخ به:

ـ تعال يا ولد..!

انهار شوكت تمامًا حتى ما عاد قادرًا أن يقيم قامته. أسرع الجدعان يتحلقون حوله يضحكون يزعقون يضربون الأرض بأقدامهم يستعجلون السرور. أشار العم لولد ريفي في حجم شوكت تقريبًا وقال له:

ـ تعال يا ولد..!

ثم وقف بين الاثنين وسط حلقة الجدعان المهتاجين وقال لهما:

ـ الآن تنازلا.. ليرفع كل منكما يده اليمنى هكذا..!

وتماسك الولدان. شوكت دائخ مرعوب لكنه يكافح كفاح المستميت. يوقعه الولد الآخر ويقوم منتصرًا. يقوم هو مترنحًا والدنيا سوداء في عينيه. يخبط بيديه خبط الأعمى يبحث عن تقية رأسه. يصم أذنيه زعيق الجدعان وضحكهم الوحشي. يصرخ فيه العم:

ـ تعال هنا.. نازل هذا.. ليرفع كل منكما ذراعه الأيمن لأعلى..!

تصبح جهود شوكت عشوائية عمياء. ساقاه ترتعشان لا تحملانه. يفقد وعيه بما حوله، حتى كأنما صراخ الجدعان يأتيه من مكان سحيق. ينازل كل العيال وكلهم يغلبونه. يسقط ويقوم دون إحساس بالهزيمة. فقد طاش صوابه ولم تعد فيه سوى غريزة البقاء الحيوانية.

الجدعان والعيال يضحكون على شوكت، يلهون به ويدفعونه. هو دائخ لا يرى لكنه لا يفر. يبقى واقفًا كأنه مسحور ينظر في صمت إلى العم. وهذا قد مل اللعبة وجلس لاهثًا مرتكنا إلى الحائط وحوله الجدعان. يكلم شوكت في مرارة قاتلة وسط الضحك والزعيق:

ـ أنت يلوط بك العيال..!

ويرد شوكت متهدج الصوت.

ـ لا.

ويواصل العم متحديا:

ـ أنت أبيض وهش كالبنت قعيدة الدار.. أنت يلوط بك العيال..! والجدعان يضحكون ويزعقون، وشوكت لا يرخي جفونه، يحدق في عيني العم ويقول مصمما:

ـ لا.

ويقول الأخ الأكبر:

ـ أمه ترفهه بالطعام الناعم وتتلفه بالتدليل..!

وينظر شوكت في وجه الأخ الأكبر دون أن يقول شيئًا. يمتلئ وجه هذا كراهية. يقول زاعقًا في شوكت:

ـ روح في داهية..!

لكن شوكت لا يريد. يعلق العم:

ـ لن يكون رجلا أبدًا... لا يخرج من حجر الأم رجل أبدًا..!

شوكت لا يقول. جامدًا ينظر لهم. لا يحول بصره عنهم. رويدًا رويدًا يملون الحكاية. يطرأ لهم أن يشغلهم شأن آخر. يقوم بعضهم منصرفا ويأتي ناس آخرون. شوكت الآن خارج وعيهم تمامًا. يحس بتحرره من قبضتهم. يتأمل العيال الذين نازلوه. إنهم رفاق لعبه. حينما يلعبون معًا بعيدًا عن هؤلاء، أحيانًا، تكون أوقات طيبة. يستدير، يعود محطومًا إلى الدار.

في وسط الدار انذعرت الدجاجات من دخوله. زوجة الأب وزوجة الأخ كل جالس على عتبة غرفته تتحاكيان بحقد وتتذاكران مشاعر العراك الأخير. شوكت يفرّ صاعدًا الدرج إلى السطوح إلى غرفة أمه. جالسة على كرسي كبير. تسند بطنها الهائل بيدها وتتوجع. ارتكن شوكت بظهره على الحائط واقفًا قبالة أمه. السرير النحاسي الهائل عليه كلّة وزينة من المخرمات. الدولاب الشامخ صقيل المرايا. على الأرض حصير أبيض. كرسيان كبيران ومتكأ. يعرف نعومة الوسائد ونظافة الملاءات على السرير، فها هنا ينام هو وأبوه. الأم تفرش على الحصير هي والصغار وشوكت يرتاح في هذه الغرفة، وهو يحبها الآن، إلى الدموع. ترفع أمه عيونها إليه قلقة وتسأله:

ـ ماذا بك..؟

ويرد ضائقًا بسؤالها:

ـ لا شيء..!

وتلح عليه:

ـ هل آذاك أحد..؟

ويزيد ضيقه:

ـ لم يؤذني أحد..!

متأملة غير مصدقة وتلح بالسؤال:

ـ هل أنت جائع؟

ويكاد من الضيق أن يبكي:

ـ لست جائعًا..!

تحاول إغراءه:

ـ هل تأخذ قرشا وتشتري عسلا؟

يصرخ متهدِّجًا:

ـ لا أريد طعامًا خاصًا بي.. ألا تفهمين..؟

تسكت يأسًا منه. يعرف أنها غير مصدقة لما قال. يرى قلقها عليه في عينيها، وحزنها الدفين. يتمنى لو تأخذه في حضنها وتضمه إليها ويبكيان معًا حتى الفحمة وتسيل دموعهما أنهارًا. لكن ذلك مستحيل، فمسافة الخوف تستعصي على العبور.

سمع من الحكايات أن أمه ولدته وكذلك حكمت وشهرت في بيت جده في القرية البعيدة. وسمع حكايات كثيرة عن حفاوة الجد والجدة بالأم إذا سافرت لتلد عندهم، يحيطونها بالمحبة ويطبخون لها. لماذا لا تسافر وبطنها يزداد كل يوم تضخما وآلامها تزداد إيجاعا. لماذا لا تسافر؟ يسأل شوكت ليس لأنه لا يعرف، بل لأنه لا يستطيع أن يصور معرفته في كلمات.

إذا دخل الأب الدار دخل مجتاحا يتوقف لدخوله دولاب كل شيء ويتوجّه إليه كل نظر. شوكت من مكمنه يرقب الفرحة المنتصرة في عينيه حينما يرى أن الأم ما زالت بعد هنا لم تستأذن في سفر. إنها يهن ارتباطها بدار أبيها يومًا بعد يوم. وهي تعرف فرحة الأب بهذا متوهجة في عينيه، تنكسر نظراتها إلى الأرض مذلولة. يتمنى شوكت أن يمسك يدها، لكن يدها لم تمتد أبدًا ساعية إلى شيء تستند إليه.

جلس شوكت قبالة أمه القرفصاء ينظر لها صامتا والخوف يعصر قلبه. كانت ترش الملح على الرحى في وسط الدار وفجأة لم تستطع الاستمرار. الوجع داهمها مالت تتوسد ذراعها وتتأوه لينة الصوت عيناها خاليتان من الكبرياء مفعمتان بالمذلة.

وقد ولدت أم شوكت في ذلك المساء. كان يلعب أمام باب الدار. كل آن يلج من الباب داخلاً فيجد في الباحة حركة دائبة وأقدام نساء حافيات تدب ذاهبة آيبة فتنذعر منها الفراخ وتطير إلى بنانيها الحمامات. كلهن يدخلن هذه الغرفة أو يخرجن منها، وكلهن يغلقن الباب خلفهن بإحكام، وباب الغرفة الكبير الذي سوده السناج يبقى صامتًا كتومًا. لكن شوكت يسمع توجعات أمه واختلاط أصوات عظيما. يهشه الذعر إلى الخارج. يلعب قليلاً أمام باب الدار ثم يلح عليه القلق فيندفع داخلاً.

شبح العراك البغيض غائب الآن عن وسط الدار. ثمة حركة محمومة ونوع من الخوف يخالطه توقع غامض بهيج. شوكت فرح بهذا يتسكع هنا وهنا مطمئنًا. زوجة الأب تدلف إلى الغرفة مسرعة

وتغلق وراءها. زوجة الأخ خلعت جلبابها وبقيت بقميص خفيف يكشف عن ذراعيها وساقيها. تمشي مسرعة يرتج ردفاها وثدياها كأنها ترقص. منديل رأسها تزحلق عن شعرها وهي تلقي كل آن بغديرتيها على ظهرها. يضحك شوكت.

ذهب إلى باب الغرفة وأرهف سمعه لعل الصخب يشي بمجرى الأحداث في الداخل. وطال ترقبه حتى سمع أمه تطلق صرخة عظيمة زاط على أثرها النساء مهتاجات. يوشك رغم رعبه من الصرخة أن يحس في زياط النساء الحبور. البقع السوداء على صدر الباب تهاويل عجيبة. لبَدَ جنب المصراع ينبش بأصبعه الأبيض الصغير وأظفره الوردي في شقوق الخشب الغائرة، وما أن انفتح الباب حتى دخل متسللاً فاجأته رائحة زاعقة عجيبة كاد يدوخ منها، ولم يستطع أن يميز في ظلام الغرفة إلا المصباح الغبش الزجاجة الموضوع على الرف الطيني في الحائط وأشباح النساء الزائطات على الفرن، العمات والأخوات لأب المتزوجات وزوجة الأب وزوجة الأخ الأكبر. ظل جامدًا في مكانه يحدق فيما يرى والرائحة تثقل عليه والأشياء تتضح له شيئًا فشيئًا. ويبدو أن أحدًا لم ينتبه له أو يره أصلا وهو واقف في قعر الغرفة أمام فتحة المحماة وفوهة الحنية. قفز متسللا إلى ظهر المصطبة. قفزة أخرى ويكون على ظهر الفرن ولا أحد يراه في هذا الظلام الشاحب الاصفرار. لكنه لم يفعل، فهو يرى من هنا جيدًا. ويذهل، فالنساء عاريات الرءوس محلولات الشعر متخففات من الثياب عاريات الأذرع والأفخاذ تصطك أفخاذهن تحت القمصان الخفيفة. الداية أم عساكر عظيمة الصوت هائلة الرأس يلمح الضوء على وجنتيها وأرنبة أنفها، بينما

دائرتا عينيها مفعمتان بالظلام، وثوبها مشلوح عن فخذين أسودين لحيمين. مدّ شوكت رقبته جاحظ العينين يتأمل فرجها الجسيم. فاجأته ضحكتها المجلجلة وصياحها به:

ـ فيم تشمشم بأنفك أيها الكلب الصغير.. في فرجي..؟

حوَّل شوكت عينيه تلاحقه جلجلة ضحكات أم عساكر والنساء الأخريات وكلماتهن الفاجرة. لم يرهن هكذا أبدًا، مرحات يعبن ويضحكن من القلب. خاف منهن لحظة، ثم أخذه سرورهن معه، قهقه ضاحكًا.

زهرة زوجة أخيه الأكبر تعرّي وركيها وتنزل من على الفرن إلى المصطبة إلى قعر الغرفة وما زال الضحك يخضّها. تكبش الرماد من فتحة المحماة وتصعد به إلى ظهر الفرن تردم به بقعة كبيرة من دماء الوالدة في ذلك الركن. في ضحكته أحس شوكت بالقلق على أمه التي لا يسمع لها صوتًا في ضجة النسوان المتخالطة. تلفت يبحث عنها. لمح وجهها تحت الغطاء وهي راقدة في الركن وإلى جوارها غربال عليه أكداس من اللفائف. خمن شوكت أن المولود لا بد أن يكون في ذلك الغربال. زحف على أربع يقترب منه. زعقت أم عساكر منادية على الوالدة.

ـ أريه أخاه..!

مدت الأم يدها المعروقة العرقانة البيضاء وكشفت وجه الوليد محتقنا أحمر، عيناه مغمضتان وارمتان وكفاه متقبضان حول وجهه. نظر شوكت إلى وجه أمه، ولما لم يعرف ماذا يقول ضحك. زاطت

النسوان بالضحك وزاد ارتباك شوكت، قفز إلى المصطبة، إلى قعر الغرفة، فتح الباب وطار خارجا.

فاجأه ضوء وسط الدار وعشى عينيه، لكنه لم ينكص على عقبيه، انطلق يجري إلى أبيه في شرفة الدوَّار:

ـ آبا... أمي ولدت ولدًا..!

ابتسم الأب وضحك الرجال. حلّ صمت. قلق شوكت. كلم العم المجدور الوجه الأحمر العينين الأب في جهامة وضيق:

ـ هل تسمِّ ابنك.. أم تترك زوجتك تستبد بذلك وتعطي عيالنا أسماء عجيبة..! وعرف شوكت أن العم يقصده بذلك، فهو لا يحب اسمه ولا يحبه. قبض الخوف على قلبه وهرب لونه. التصق بأبيه. ردّ الأب شاردًا:

ـ إنها تسمي الإنسان فعاله..!

لم يفهم شوكت شيئًا، لكنه خمَّن أن أباه قال كلمة عظيمة، فإن العم سكت والرجال نظروا إلى الأب معجبين. حفظ شوكت الكلمة عن ظهر قلب. في مرة قالها للعيال مباهيا، لكنهم ضحكوا عليه، فلم يقلها بعد ذلك أبدًا، ولم ينسها أبدًا أيضًا. عاد إلى الدار. الدار لا تسرّه وأمه غائبة عنها في غرفة ولادتها. زوجة أبيه وزوجة أخيه نشيطتان كأنهما فرحتان بغيبة أمه في حبسها. تروحان وتجيئان منصرفتان لا تنظران ناحيته. يتلكأ ها هنا وها هنا. يحس نفسه مكروهًا متروكا. يخطر له أن يصعد إلى ظهر الفرن الجاثم في أقصى وسط الدار. يحاول بعصا أن يصل إلى بنية الحمام. حينما تلتفت زوجة أخيه يلقي العصا ويضع يديه خلف ظهره.

المرأتان تطبخان أمام الكانون وتعبقان الدار بالدخان وتتهامسان. يعرف أنهما تقولان على أمه. قال في نفسه مغتاظًا إنها تطبخ أحسن منهما، وحينما تخرج من غرفة ولادتها ستعودان تجلسان كل على باب غرفتها ولا تعملان شيئًا. ستكون أمه هناك. حينئذ يجد عند عودته حنانها الجهم الصموت.

يجري إلى غرفة أمه. يقفز على الفرن ويزحف على أربع حتى الفراش. المولود في الغربال بعيدًا. تتفرس فيه الأم. تسأله إن كان جائعًا. يجول بصره فيما حوله دون أن يجيب. حكمت وشهرت حول أمهما. تشير له الأم على الركن حيث حلة الأرز. يكشفها ويأكل بضعة ملاعق وقطعة دجاجة. يكشف حلة الحلبة ويغرف لنفسه بكوب له أذن زجاجية صغيرة حتى يشبع. الحلبة محلاة بالعسل والحبات ألانها وضيَّع مرارتها الطهو والحلاوة. زحف ناحية أمه. يريد لو لبد في حضنها، لكنه يخاف من جهامتها.

يضيق برائحة الغرفة وصمتها وظلمتها الشاحبة الاصفرار، وأن بصره لا يصل إلى الأركان، وأن شهرت المفطومة تنز بلا مبرر ولا تريد أن تترك رقبة أمها، وأن حكمت وسخت هدومها بالأرز وبقايا جناح الفرخة. جلس أمام أمه متربعًا يهز رأسه ويصفر. قالت له أمه:

ـ لا تصفر.. هذا حرام..!

سكت.

دخلت أم عساكر الداية متهللة تُسَمِّ بالله وتصلي على النبي وتدعو للوالدة وللمولود. اقتربت واقفة في الغرفة مستندة على الفرن تتأمل الوالدة وتسألها عن حالها. قفز إليها شوكت احتضن رأسها وقبل

خدها وضمه إلى خده ورجلاه ترفسان فرحا. والداية تضحك وتقول:

- لا تقبل وجهي الأسود الضخم يا ولدي.. ستقبل عروسا كالقمر بإذن الله.. وسأعيش حتى أولدها منك سبع عيال..!

ولم يفهم شوكت شيئًا لكنه أغرق في الضحك وأمه تنظر ساكنة.

تربعت الداية على الفرن وأخذت المولود في حجرها. كحلته ووضعت في أذنيه قطرات من زجاجتها الصغيرة. تغير لفائفه وشوكت يعجب للون جلده الأحمر وبكائه وعينيه الوارمتين.

دخلت زهرة تحمل وعاءً به مرقة ساخنة. دعت لها الأم شاكرة وهي بادلت الأم الدعاء. الاثنتان متجهمتان كظيمتان وشوكت يرقبهما خائفًا. خرجت زهرة والأم تتبعها بنظراتها. تطاولت برقبتها تتطلع إلى وسط الدار في قلق. الداية أطرقت قليلا شاردة ثم قالت للأم:

- لا تخرجي من عتبة هذه الغرفة قبل أن يرش الملح..!

وردت الأم هامسة كظيمة:

- سأنتظر..!

وليلة السبوع بكبكت حلة الأرز باللبن على ألسنة النار في الكانون. طنّ موقد الجاز تحت حلة الحلبة في غرفة الوالدة. عيال كثيرون تكأكئوا حول الأم يرجوها كل واحد أن تصنع له حجابا. تخيط أكياسا صغيرة من القماش تملؤها من وعاء به كومة من خليط قالت عنه أم عساكر:

- إنهن السبع حبوب.. الملح والبن والحلبة والعدس والقمح والشعير والفول..! ثم قالت:

- لتعمر مخازن وليدنا بهذه الحبوب ولا يخاف الفقر..!

فإن الوليد صنع له حجاب كبير ملىء من هذا الوعاء، وصنعت له كذلك مسبحة من حبات الفول الكبيرة المبلولة. ضحك العيال وتمنى كل واحد لنفسه مسبحة صغيرة أيضًا. الأم الوالدة تصنع رغبات العيال في دأب.

جيء بالقلة ذات الأفرع وغرس في كل فرع شمعة. في الفوهة عصا ربطت عليها خرقة حتى صار لها هيئة رأس صغيرة. قالت الداية:

- نريد على رأسه عمامه... ليكون عالما في قلبه نور..!

والأم ردّت بهدوء وحزم:

- أريد على رأسه طربوشا.. أريده أفنديا..!

ولم يفهم شوكت شيئًا. حلّ صمت. بعد ذلك وجدوا طربوشا وضعوه على رأس عروسة السبوع.

أعطيت كل شمعة اسمًا وأضيئت الشموع السبع وقيل إن الشمعة التي تبقى مضاءة بعد الأخريات ستعطي المولود اسمها. وضعت القلة متألقة بشموعها وعروستها في صينية بها ماء. جاءت العمات والأخوات المتزوجات وعيالهن وزوجة الأب وزوجة الأخ وامتلأت الغرفة بالزياط. أكل الجميع أرزًا بلبن ووضعوا في الماء قروشا تحية للداية. شكرتهم أم عساكر ودعت لهم. ناداها شوكت قائلا:

ـ انظري إنني أضع في الماء قرشا كبيرًا..!

ضحك الناس جميعًا.

وفي هذا الزياط وغفلة النسوان لعب العيال وتشقلبوا. شوكت يحس دائمًا أن عيني أمه لا تغفلان عنه. قام الناس قبل أن تنتهي الشموع. بقي هو راقدًا على بطنه يرقب الضوء وينتظر الشمعة التي ستبقى بعد الأخريات وتعطي أخاه اسمها، لكنه نام ولم يعرف ما حدث.

في الصباح زوقت أم عساكر غربال المولود بالحلوى وأمسكته بين يديها تهزه والحلوى تتساقط منه يتخاطفها العيال والنسوان وهم يضحكون ويدعون للمولود. وزهرة تدق الهاون معلنة بدء السبوع. خرجت الأم من الغرفة، ثوبها أبيض نظيف وطرحتها بيضاء نظيفة. زاط شوكت من الفرح. أسلمت أم عساكر المولود لأمه وسارت أمامها في يدها مبخرة تدور في أرجاء الدار تبخّر وترش الملح وحبات الحلوى وخلفها النساء والعيال يرددون وراءها:

برجـالاتك برجـالاتك   خاتم دهب في اصباعاتك

العيال والنسوان يتخاطفون حبات الحلوى ويضحكون متحاشين حبات الملح. جاب الموكب الدار ثم صعد السلم ولف السطوح ثم عاد أخيرًا إلى الغرفة. انتهى السبوع بذلك وعاد الناس إلى دورهم. خرجت الأم، جلست على المصطبة وعلى حجرها وليدها تنظر إلى الدار التي غابت عنها طويلا. جلس شوكت إلى جوارها فخورًا بها، لكن قلبه خائف.

وعندما حل المساء كانت واقفة في وسط الدار وعلى كتفها المولود قائمة منتصبة، نحيلة شاحبة لكنها قادرة. فتح باب الدار على وسعه ودخلت البهائم العائدة من الحقل تملأ بحجومها وأنفاسها ورائحتها سعة الدار. زهرة وزوجة الأب راقبتا البهائم بلهفة وخوف ورفعتا أيديهما تدعوان وتبتهلان:

ـ يا ستار.. يا رب يا حامي.. يا ساتر..!

البهائم دخلت واحدة وراء الأخرى عبر وسط الدار إلى الزريبة. الفرخات والبطات فرت مذعورة. شوكت خائف أن تدوس بهيمة على بطة بطيئة لا تستطيع أن تفرّ في الوقت المناسب. لا يزال يذكر البطة التي داستها الجاموسة فخرجت مصارينها من بطنها وهي راقدة تصاصي وتتلفت حولها مرعوبة. وقفت أم شوكت في الركن ترقب يقظة مزمومة الفم وعلى كتفها وليدها. تصور شوكت أن كل شيء في إيابه إنما يثوب لها، وأنها مالكة هذا العالم، وأنها لا ترحم من ينازعها فيه. نظر شوكت إلى أمه يتنازعه الفرح والخوف.

في الصباح التالي لم تسرح مبروكة، الأخت لأب، مع الأخ الكبير بالبهائم إلى الحقل. بقيت بأمر الأب لتعنى بـ«شهرت» المفطومة. حينها ثار الأخ الكبير قال له الأب:

ـ خذ شوكت بدلها..!

سابت مفاصل شوكت خوفا من السروح بالبهائم مع الأخ الكبير، لكن هذا لوح بيديه في وجه الأب:

ـ لا آخذه.. هذا الهش.. إن نهرته عملت أمه فضيحة..!

والأب تحالم:

ـ سندبر إذن نفرًا بالأجرة.

مشى الأخ معرضًا عن أبيه غاضبًا يدمدم دون أن يرد. ظن شوكت أنه ربما يشتم أمه. لكن مبروكة لم تسرح معه على أي حال. قصت أم شوكت لها شعرها المليء بالقمل وحممتها وخاطت لها جلبابا جديدًا وأعطتها منديلا للرأس زهريا مشغولا بالترتر. ألبستها في أذنها حلقًا ذهبيًا كانت الجدة قد أهدته إلى حكمت الصغيرة. بدت مبروكة خلقا جديدًا وأمها زوجة الأب جالسة على عتبة غرفتها تنظر.

هكذا بقيت مبروكة الأخت لأب في الدار تحمل شهرت المفطومة. أصبح شوكت يلازمها طول النهار. هي بالنسبة له بضعة من عالم شرس غليظ لا يستجيب لمحاولته الملحة للانتماء. لكن شوكت لا يكف عن المحاولة. يتبع مبروكة طول النهار كظلها، يترضّاها في صبر. يشاطرها لعباتها. لا يجرؤ من ناحية على أن يقترح لعبة أخرى. يدخل معها في خصوماتها مع بنات الحارة الأخريات. يعمل كل ما تهوى، ينظر في عينيها يبحث عن ومضة رضا واعتراف وهي ماضية لا تنتظره ولا تسأله ولا تعيره انتباها.

بعد أيام جاء الخال جودت والخالة حكمت لزيارة أم شوكت. الخالة حكمت حضنت شوكت وقبلته، وهو أحبها لكنه تملّص منها وجرى قافزًا. أرته قماش جلباب أحضرته له. تحسسه فرحًا مندهشا. الخال جودت أعطاه قرشين. أم شوكت ازدهى وجهها فرحا بزيارة إخوتها، لكنها لم تبتسم. فرّقت من الحلوى التي أحضروها على أهل الدار. الخالة حكمت أخذت المولود إلى صدرها وقبلته. ثم فجأة

تركت الجميع وأخذت شوكت من يده إلى بيت الأعمام قائلة:

ـ سأذهب أسلم على العمات..!

والعمات أحطن بها وقبلنها. قالت الجده اللئيمة للخالة حكمت:

ـ ليت أختك طيبة مثلك..!

ضحكت الخالة حكمت وشوكت قبض على قلبه الخوف. لكن الكلمة ذابت في بحر الكلام. عند العصر أخذ الخال جودت شوكت من يده وذهب إلى الرجال الجالسين تحت النخلات في الجرن قبالة شرفة الدوَّار. تفكّر شوكت أن العم والأخ الكبير لن ينصبا له اليوم آلة العذاب. كان خائفا لكنهم قاموا سلّموا على الخال مرحبين، وهو جلس بينهم. بدأ يشترك في الحديث. ثم بدأ يحكي بصوت عال. سكت الناس جميعًا وهو يحكي ويحكي. أدرك شوكت أن الناس لا تصدق الخال وخاف. لاحظ شوكت أن الرجال بدءوا يتبرمون واشتد خوفه. فجأة زعق العم محتدًّا على الخال:

ـ أنت تكذب..!

لاحت على وجوه الجميع ابتسامة ارتياح لزعيق العم. مات شوكت رعبًا، بُهت الخال، ثم بدأ يضحك خزيانًا وهو يقول:

ـ أنا والله أقول الصدق..!

لكن العم يلاحقه:

ـ أنت تكذب..!

أُخْرِس الخال تمامًا. حلّ صمت. رويدًا رويدًا بدأ الناس يخوضون

في شئونهم ونسوا الخال تمامًا. قام الخال يأخذ شوكت في يده. في الطريق قال له:

ـ هؤلاء ناس لا يفهمون..!

كان شوكت حزينا فلم يحر جوابا. عند باب الدار كانت مبروكة طالعة تحمل شهرت المفطومة نظرت بعينيها البنيتين الواسعتين. أحس شوكت بقلق عظيم حيث ظن أنها تعرف ما حصل. تمنى لو يترك خاله ويلحق بها، لكنه لم يفعل.

وفي صباح اليوم التالي صحب الأخ الأكبر وشوكت الخال جودت إلى المحطة. حكى الخال جودت طول الطريق ملوحًا بيديه. بقي الأخ الأكبر وشوكت صامتين. فجأة وبعد أن بعد الموكب الصغير عن القرية التفت الأخ إلى الخال زاعقًا بحدة:

ـ اسمع.. أنت مددت يدك على امرأتي أمس مساءً..!

بهت الخال جودت. كاد شوكت يختنق رعبا. واصل الأخ الأكبر كلامه:

ـ لولا الفضيحة في دار أبي لضربتك بالحذاء أمام الجميع، لكنك نفذت بجلدك، فلا تعد ترينا وجهك أبدًا..!!

قال هذا ودار على عقبية عائدًا. واصل شوكت طريقه مع الخال صامتين. وراءهم بعيدًا أتت الخالة تعجها ثلة من النساء والبنات.

وعندما عاد شوكت كانت أمه منهمكة في شغل الدار. لم تنظر ناحيته أو تسأله. وجهها أزرق كمسمومة. تُرى هل عرفت كل شيء؟

مضى ينشد مبروكة حتى وجدها. جرى وراءها وهي تحمل المفطومة، يشترك معها في لعبها، يعجب باختراعاتها الشيطانية، يطيعها تمامًا، لكنها تعسف به. رأى في عينيها تلك الإحنة المرة. في هاتين العينين البنيتين الكبيرتين. يتمنى لو يفهم لكن ذلك عصي، يتمنى أن يموت.

كل آن ترجع مبروكة إلى أم شوكت زاعمة أن شهرت جائعة، أو أنها تريد قطعة من السكر، أو قصقوصة من القماش لعروستها. صعدا السلم معًا. رأيا معًا أم شوكت جالسة إلى ماكينة الخياطة أمام غرفتها على سطح الدوَّار. منحنية على القماش يهتز جسمها برتابة على إيقاع وطئها مداس الإدارة. مع صوت الماكينة العالي سمع شوكت أمه تغني. وإذْ كان لم يسمعها أبدًا تغني فقد أدهشه غناؤها وأراد أن يضحك. لكن الخوف عصر قلبه فجأة. أهذا غناء أم عويل؟! وإذا أقبل على أمه رأى عينيها محمرتين. رمق شوكت مبروكة. ليس في عينيها أثر للرحمة. تمنى لو أنها لم تر أمه على هذا الحال. نظرت الأم إليها وكفت عن الغناء وواصلت عملها صامتة.

ارتكن شوكت على حافة لوح دولاب الحياكة. الاهتزاز الرتيب يدب في بدنه. يتأمل صامتًا صورتهم في مرآة صوان الملابس المجلوة. يجول بعينه في غرفة أمه. السرير النحاسي الكبير وفرشه الأبيض النظيف. الكرسيان الكبيران والمتكأ والحصير الأبيض الجديد. طراوة عصرية تأتي من شبابيك المشربية. شوكت شارد حالم.

تململ جودت الرضيع في فراشه. كفت الأم عن الحياكة وأخذت

الطفل إليها. شوكت يتأملها ويتفكر في شرودها. هي بدورها تتأمل جودت ثم تقول هامسة:

ـ آن لك يا جودت أن ترى جدك وجدتك..!

فرح شوكت وعرف أنهم سيسافرون إلى الجد والجدة في القرية البعيدة. تقافز فرحًا. ثم سأل أمه قلقًا:

ـ هل ستأخذينني معك يا أمي..؟

وردّت الأم كالهامسة وهي بعد تتأمل في جودت:

ـ نعم... سآخذك معي..!

تقافز شوكت يصيح من الفرح. رمقت الأم مبروكة، التي كانت غير مبالية بما يجري وقالت:

ـ وسنأخذ مبروكة أيضًا معنا..!

وفي الأيام التالية لازم شوكت ومبروكة الأم الجالسة إلى دولاب الحياكة. حاكت لـ«شوكت» جلبابًا لطيفًا من القماش الذي أهدته إليه الخالة حكمت. قال شوكت لأمه وهو يرى القماش يقطع ويخاط ويأخذ رويدًا شكل الجلباب:

ـ أمي.. كنت أريد جلبابا فلاحيا بأكمام واسعة..!

ردّت الأم كالحالمة وهي منصرفة إلى عملها:

ـ أنت لست فلاحا.. ولن تكون.. ستكون أفنديا عظيما..!

صمت شوكت محتارا. رمق مبروكة متوجسًا. لا يدري شيئًا، لكنه فرحان بسفره إلى جديه في القرية البعيدة.

حاكت الأم ثوبا لـ«مبروكة»، وثوبا لـ«حكمت»، وثوبا لـ«شهرت» المفطومة، ثم سوّت الأحذية ونظفتها، وشوكت يرقب هذا الترتيب بفرح غامر. طار إلى أبيه في شرفة الدوّار متباهيًا بجلبابه وحذائه وجوربه. غصّ بريقه إذْ رأى أن العم والأخ الكبير كانا هناك. قفز ولبد في جنب أبيه. سأل العم الأب محتدا:

ـ لماذا يسافر هذا أيضًا... أيظل هكذا مربوطًا بذيل أمه كالحمل..؟

قبض الخوف قلب شوكت وغاص لونه. روحه تهفو إلى السفر. يكاد يطير شوقًا. قد يموت لو حاشوه هنا. تعلّقت كل حواسه برد الأب الذي قال:

ـ خلّه يسافر.. يتعلم الواحد من السفر أكثر مما يتعلم من فقيه الكتّاب..!

ثم صمت قليلا وتكلم مرتلا كلماته:

ـ خلّه يسافر.. خلّه يسافر..!

لا يفهم شوكت شيئا، لكنه يهتز من الإيقاع الرصين. كلمات أبيه تعجبه دائما. هي تنتهي دائمًا بالعم أو الأخ الأكبر إلى الصمت التام الكظيم. تململا في مكانيهما ضيقًا. أخرج الأب ساعته من جيبه. نظر فيها وقال لشوكت:

ـ انطلق الآن. سلّم لي على جدك وجدتك..!

وطار شوكت كالحمامة.

خرجت أم شوكت تحمل جودت الرضيع وفي يدها سلتها. خرجت مبروكة خلفها تحمل شهرت المفطومة. مشى وراءها شوكت يمسك بيد حكمت. مشى الموكب الصغير إلى المحطة لا يصحبه أحد ولم يودعه أحد.

بقي شوكت جامدًا في فراش نومه عاجزًا عن تحريك عضو من أعضائه، يحدّق في مربع الشباك والقهر يعصر قلبه. إن هذا هو شباك غرفتهم في دار أبيه. هم إذن لم يسافروا. الأمر كله كان حلما جميلا. لا يحول بصره عن المربع المشعشع بالضوء والخناق يضيق على قلبه رويدًا رويدًا يتخلّق أمامه رسم آخر هو رسم الشباك فى بيت الجد. إنهم فى بيت الجد إذن. يمتلئ قلبه بالفرح. يستكمل صحوه ويهب قاعدًا.

رأى مبروكة وحكمت وشهرت بعد نائمات على المرتبة التي فرشتها لهن الخالة حكمت على الحصير في الأرض. عفت الصغيرة ما زالت أيضًا نائمة على سرير الخالتين حكمت وشهرت. ثمة كنبة نامت عليها أم شوكت مع جودت الرضيع. نزلوا جميعا وتركوا العيال نائمين. قام شوكت محاذرًا. فتح بهدوء الباب بين غرفتهم وغرفة الجد والجدة. السرير الهائل والدولاب بمرآته الكبيرة ولا أحد هناك. أغلق شوكت الباب مرة أخرى بسرعة. مشى إلى باب الغرفة الآخر. تسلل منه إلى الصالة. الخالة شهرت جالسة على كنبة وفي يدها قماش تطرزه. على رأسها منديل مشغول ووجهها جميل ويداها جميلتان. أحبها شوكت. كان سمع في البلد ما يحكيه الناس عن أن أباه رأى أمه جالسة على كنبة في بيت جده تطرّز فأحبها وخطبها من أبيها. أحب أمه وأحب خالته شهرت.

رفعت خالته شهرت عينيها إليه وابتسمت قائلة:

ـ صح النوم..!

لم يعرف ما يقول. لم يسمع هذه الكلمة قبلا. بقى صامتا. تسحب كقطة ولبد جنب خالته. قالت له:

ـ سأتم هذا حالاً وأقوم أغسل لك وجهك... عسى يصحو الآخرون أيضًا..!

بقي شوكت صامتًا. بعد قليل أصابه الملل. بدأ يحرك رجليه ويغني. ثمّ قام متسللا. نظر من فرجة الباب الموارب. ما زال العيال نائمين. تسلل من باب الصالة إلى الشرفة. تسلّق السياج وأطل على الحديقة تحتهم. عم طلبة يعمل بفأسه. السيدة العجوز التى تسكن تحت تلف رأسها بشال وتجمع عيدان الملوخية. فجأة التفت عم طلبة إلى أعلى ورأى شوكت. زعق فيه:

ـ ارجع يا ولد..!

رجع شوكت. لم يزعجه الزعيق، بل ملأه ضحكا. كانت الخالة شهرت قد سمعت أيضًا. قامت. قابلت شوكت داخلاً. أخذته من يده. عبرا باب الصالة إلى طرقة طويلة فيها باب يؤدي إلى السلم. بعده بقليل باب الحمام. من وعاء به ماء غسلت له وجهه وهي جالسة. وركاها عاريان وناصعا البياض. حبكت له تقيته على رأسه وزرت له حذاءه وقالت له:

ـ ماما في غرفة الفرن..!

أعجبته الكلمة، تمنى لو ينادي أمه ماما. إنه ينادي جدته (ستي)

مثل الخالات. لكن أن ينادي أمه (ماما) إن ذلك قد يجلب عليه في البلد محنا.

نزل السلم الحجري جريا. من الباب خرج إلى الفناء الفسيح. لمح غرفة الفرن على البعد. جرى نحوها كالسهم. كانت الجدة تبكي وجسدها يرتجّ على فحماتها. سكت تمامًا. ينقل بصره بينها وبين الحلّة التى تغلي على الكانون وتفوح منها رائحة الطبيخ. الأم والخالة حكمت جالستان إلى الجدة على حصير في ركن الغرفة. الفرن في الركن الآخر صغير وأنيق. من السقف تتدلى أشراش البصل والثوم، وفي الأركان صنوف الخزين، وعلى الحيطان رفوف محملة بأصناف حلل الطبيخ. وثمة رشاقة أنيقة من الخشب معلق عليها أصناف من المغارف والمقاصيص وتحتها مناشف نظيفة للأيدي.

الجدة تقول من خلال فحماتها:

ـ تريد أن تلد عند أمها يا روحي..!

وعند هذه الكلمة يزداد جسمها ارتجاجًا، والخالة حكمت تنظر صامتة. تقول أم شوكت:

ـ لا تسرفي على نفسك يا بنتي..!

لكن الجدة تزداد بكاءً. شوكت لا يفهم شيئًا. لكنه يتصور واحدة كأنها أمه، بطنها هائل بالحبل تتألم، ترقد ذليلة على زكيبة مفروشة في الأرض. تريد أن تأتى هنا لتلد، ولكنها لا تستطيع.

يسأل أمه:

ـ مَنْ هذه يا أمي..؟

وتنهره أمه:

ـ اسكت..!

وتواصل الجدة:

ـ وزعق أبوك حتى سمعته سبع بلاد، وقال: لن تدخل بيتي أبدًا، لقد مرّغت شرفي في الوحل..!

زاد بكاء الجدة حتى كاد يكون تشنجًا. وبلغ ذهول شوكت مداه. لم يستطع أن يفهم لماذا تفعل السيدة هذا. تصوّرها تجري تثقلها بطنها الهائلة. عيناها مليئتان بالرعب والذل، لكنها تكبش وحلا من الأرض وتلقي على جده الذي يرفع يديه ليحمي عينيه ويصرخ أنها لن تدخل بيته أبدًا. استغلقت الأشياء على شوكت تمامًا. واصلت الجدة:

ـ والرجل يا بنتي تزوّجها على سنة الله ورسوله يوم وصولها إليه، قسيمة الزواج أعطاها لأبيك والتاريخ فيها..!

ثم أصبح بكاؤها نحيبا. أعولت عويلا موجعا وهى تلوّح بأصبعيها الشاهدين:

ـ آه يا بنتى، وأنا هنا أبكي على صرة هدومها. لم تأخذ شيئًا معها يا حبة عيني.. تركت مكانها في الفراش باردًا..!

خاف شوكت تمامًا.. تعلّق بثوب أمه ينعب:

ـ أنا جائع يا أمي..!

قالت الجدة للخالة حكمت بحزم رائق واضح:

ـ أعطه القونصة وشيئًا من الأرز يا حكمت..!

والخالة حكمت قالت:

ـ حاضر..!

وكشفت عن الحلّة التي تهدر وفيها بطة هائلة، لا بدّ أنها الذكر الذي أحضرته الأم معها في سلة الزيارة. السلّة لا تزال قائمة في الركن. تعرّف عليها شوكت. وضعت الخالة أمامه صحنا فيه أرز وعليه القونصة الهائلة. يأخذها في يده ثم يلقي بها لشدة سخونتها، يملأ ملعقته أرزًا وينفخ فيها زمنا طويلا قبل أن يتناولها. كفّ عن متابعة حديث الجدة الذي أصبح همسا وكرّس نفسه على طعامه.

غسلت له الخالة حكمت يديه في وعاء وكبّت الماء أمام غرفة الفرن في الشمس. جفف يديه في المنشفة. شغل قليلا بمربعات القماش الحمراء. ترك المنشفة وقال لأمه:

ـ سأذهب أوقظ مبروكة وعفت لنلعب.

وردّت الأم بحزم:

ـ لا توقظ أحدًا، العبْ وحدك حتى يصحوا من نفسهما..!

خرج إلى الفناء المليء بالشمس. لا يدري ماذا يفعل. مشى يحجل حتى السور. تعرف على حجر كبير مركون على الحائط. تذكّر هذا الحجر. قفز. وقف عليه وبسط ذراعيه على طولهما ملصقًا كفيه بالحائط. ضحك جدًّا. لقد طالت قامته وأصبحت يداه تطولان أكثر. التفت ينظر ما إذا كانت مبروكة وعفت قادمتان لترَيا كَمْ كبر. لكنهما لم تأتيا.

تمنى لو يستطيع أن يطلّ من فوق السور على الخارج. شبّ على

أطراف أصابعه محاولاً، لكن المحاولة لم تجده. نزل مشى بجوار الحائط حتى باب السور الخشبي. باب متخلع العوارض، دفعه انفتح. حينما رأى امتداد الخلاء أمامه صفّرت في أذنيه الرياح واشتهى أن ينطلق. رأى على البعد الشونة حيث يعمل جده. عزم على أن يروح هناك.

رأى الجدعان الكبار ومعهم خاله جودت يلعبون كرة القدم في أرض السوق. وقف قليلاً ليرى. إنه شيء يدهش هذا الذي يلعبونه. يجرون يلاحقون الكرة. يرفسونها وينطحونها. يزعقون ولا أحد يعرف ماذا يجري. الكرة تطير من الشرق إلى الغرب كالحمامة. يطير شوكت فرحًا حينما يرى الكرة محلّقة غائبة في السماء والكل مشدوه متوتر ينتظر هبوطها.

كرة الحكش عندهم لا تحركها ضربة أعظم محكاش أكثر من قصبتين مصنوعة من حبال التيل المضفورة طبقات بعضها فوق بعض. كان شوكت يتمنى أن يكون له محكاش. ولقد عاين كل فروع أشجار السنط التي رآها في حقول الزمام عندهم، وامتحنها ببصره امتحانًا وثيقًا. كان يتمنى أن يجد محكاشا مستقيم القبضة جيد العقفة، وأن يشترك مع الرجال الأشداء في الليالي المقمرة في لعب كرة الحكش. حيث يقف هؤلاء الرجال صفين متقابلين طويلين. قد خلعوا عنهم الجلابيب وتعمموا بها حماية لرءوسهم من الضربات الطائشة. والكرة ثقيلة تسرب بين الصفين كبطة كسيحة، وكل صف يحاول أن يوجّه سيرها ناحية مرمى خصومه. تصطرع المحاكيش بعنف. ويصرخ الرجال كأنه يوم القيامة. وما ينتهي اللعب حتى يكونوا غرقانين عرقًا مائتين تعبًا، والعيال ينظرون بإعجاب ووله.

لكن هذه الكرة تطير كحمامة. سوف يدع خاله يعلمه اللعبة. وسوف يشتري كرة يأخذها معه في إيابه إلى البلد، وهناك يدعو العيال ليلعبوا معه. سيدعو فقط مَنْ يحبه ويطاوعه ما دامت الكرة كرته، فإنه سيطرد مَنْ لا يحبه أو يناوئه. لكنه ظن أن الخال لو رآه الآن فإنه سيؤنبه ويعيده إلى البيت. أسرع مبتعدًا.

الشونة على البعد. تذكر صف النباتات على حافة القناة الصغيرة بحذاء السياج ذي الأسلاك الشائكة، وباب الشونة الكبير، والكشك الخشبي على اليسار حيث مكتبة جده ومساعده والظلة الهائلة على اليمين حيث الميزان الكبير، والظلة الأخرى البعيدة حيث مربط الحمير أو الجمال والخيل، والأسلاك الممتدة على أعمدة عبر الشونة كلها ومعلّق بها شخاشيخ لإفزاع الطيور.

كل شيء كما تركه في المرة السابقة، زحام الناس حول الميزان وزعيقهم وجدلهم. الرجل يزن وقلمه في أذنه، ويقيد كل وزنة في دفتره. الحمّال العجوز لم يتغير، على ظهره برذعة الخيش كبرذعة الحمار يضحك عليها شوكت. يحمل الرجل الزكائب الموزونة ويمضي بها إلى الرصة.

أحب شوكت هذا الرجل وتذكر كم سرّته مرات حكاياته اللطيفة.

في مكتب جده سمع أصوات الرجال وضحكاتهم. تردد قليلا لكنه دخل لم يحسّ به أحد. دار من خلف ظهور الجالسين وأقبل على جده أخذ يده وقبلها. نزع الجد يده مفزوعًا، لكنه عرف شوكت فتنهد مستردًا أمانه:

ـ آه..!

ثم قدّم شوكت للحاضرين:

ـ ابن بنتي..!

وعلّق بعضهم:

ـ ما شاء الله..!

وواحد منهم نحيل شديد السمرة له شارب مبروم وعمامة أنيقة قال موضحًا تقديم الجد:

ـ أبوه الحاج علي من أكبر عمد الغربية..!

دُهِش شوكت. أبوه ليس عمدة. العمودية في العائلة الأخرى التى تناصب عائلتهم العداء والحقد. لم يدر أيفرح بكلمات الرجل، أم يحزن أن أباه ليس عمدة. لم يعرف. لكن هذا الرجل متواطئ بشكلٍ ما. يتأمله شوكت، والرجل نادى عليه:

ـ تعال يا ولد..!

مشى شوكت ناحيته. أخرج الرجل من صراره حافظة نقود ضخمة تناول منها خمسة قروش أعطاها لشوكت ثمّ قبله في خده. وضع شوكت القروش في جيبه، وقبلة الرجل لزجة رطبة على خده، والجد يرقب ذلك في ضحك مسرور.

وفجأة انصرف الجميع عن شوكت حينما سأل واحد من الحاضرين الجد شوكت أفندي:

ـ هل ترد جمالي بأحمالها يا شوكت أفندي.. وأنا كلّي عشم فيك..؟

وقال الجد ضاحكًا:

ـ هذا تراب يصادف الإنسان فيه بعض حبات القمح..!

وضحك الحاضرون بينما ألحّ الرجل:

ـ قلمك يجعل من التراب مرجانًا يا شوكت أفندي..!

ثمّ أخرج حافظة نقود ضخمة يلوح بها ويقول:

ـ وأنا محفظتي تحت أمرك..!

وضحك الرجال وضحك شوكت أفندي. لم يفهم شوكت الصغير شيئًا، لكن الجد يفرط في الضحك حتى تبدو أسنانه التالفة ويقول:

ـ سيكون كل شيء كما تريد..!

ازداد الأمر على شوكت غموضًا فانصرف عنه يطلّ من الشباك. الشونة مائلة الامتداد تتكدّس فيها زكائب القمح فى صفوف منتظمة غير متناهية. سحب من العصافير تشيل وتحط. تقف على أسلاك الشخاشيخ، ثم تنزل على زكائب القمح بمناقيرها الصغيرة. تسلل شوكت لم يبال به أحد. وقف على الباب قليلا. القبّاني ترك الوزن وجلس على كرسي قدام الميزان. قلمه في أذنه، يقبض على دفتره بيديه وحوله ناس يتكلمون معه. ذهب الحمّال العجوز إلى الزير في ظل الشجرة، اغترف لنفسه بأناة كوزا وبدأ يمتص الماء على مهل. مشى شوكت ناحية الرجل. تقرفص قبالته، الرجل يرفع رأسه يتنفس ثم يعاود الشرب وينغم امتصاص الماء بأناة وانصراف. سأل شوكت كأنه يحلم دون أن يطارده بعينين فاحصتين:

ـ متى جئت..؟

وقال شوكت:

ـ أمس..

وسأل الرجل:

ـ أبلدكم أحسن أم بلد جدك؟

بُهت شوكت ولم يعرف ماذا يقول. تفكّر قليلاً ثم أجاب:

ـ أحب الاثنين.

وقطع كلامهما أن أقبل عليهما رجل على فرس. ترجّل الرجل وتقدّم ناحيتهما مسلّمًا. قام الحمال العجوز لما رأى وراء هذا الرجل جملين يحملان أربع زكائب قمح. الجمال مذعورة عبيطة العيون تشرئب برءوسها تقاوم جذب المقاود وتبغّم بُغامًا باكيًا، والرجل صاحب الفرس ما زال قابضا على لجام فرسه يرقب جماله هادئًا ويخبط بخيزرانته رفيقًا على طرف جلبابه السابغ. أنيخت الجمال فهجعت باركة. عندما سكن بغامها اتضحت أصوات الرجال عند الجد وحديث الناس حول القباني وزقزقة سحب العصافير. شوكت ما زالت عيناه معلّقة بالرجل. الفرس تخبط الأرض بحوافرها الكبيرة وتطوّح ذيلها تطرد عنها الذباب. يا لها من فرس رائعة كأنها سعيدة أن تكون في كنف صاحبها.

الرجل في وجهه وسامة وله شارب صغير أشقر وعليه جلباب أنيق من الكشمير. التقت عينا الرجل بنظرات شوكت المتأملة، خجل هذا وانصرف يراقب الحمّال العجوز يعتل زكيبة على ظهره مثقلة

حتى ترطم قدماه الأرض مرة بعد مرة. شوكت يشفق على الرجل فى عسره، يقيس المسافة لحد الميزان بعينيه والرجل يقتطع منها قطعًا صغيرة بخطواته القصيرة الثقال.

لكن الرجل صاحب الفرس سأله:

ـ ما اسمك؟

ورد شوكت:

ـ اسمى شوكت!

وحلّ صمت لكن عيني الرجل ظلتا تتساءلان. أحسّ شوكت أن عليه أن يقول شيئًا. قال:

ـ جدي شوكت أفندي!

التساؤل الملح في عيني الرجل يتوارى خلف سحب غامضة. يقع شوكت في الحيرة. يثرثر الكلمات خلوصا من الورطة:

ـ نحن هنا في زيارة جدي..! حضرنا بالأمس فقط..!

عتل عمران العجوز آخر زكيبة من على الميزان ماضيًا بها إلى الرصة. والرجل صاحب الفرس عقد لجامها في السرج ومضى ناحية القبّاني. الفرس حمحمت وحفرت بحافرها في الأرض كأنها لا تريد أن يبتعد عنها صاحبها. تأمل شوكت ظهر الرجل صامتًا. رأى أنه رجل طيب.

ظهر الرجل الأسمر ذو الشارب واقفًا على عتبة باب المكتب ووراءه الجد شوكت. تحسس شوكت قبلة الرجل على خده، لا تزال

لزجة مبلولة. نادى الرجل الأسمر ذو الشارب على العجوز زاعقًا ملوّحًا. كان ثمة قفّة هائلة قاعدة في ظل الكشك، أشار إليها الرجل محدّثًا العجوز:

ـ احملْ هذه إلى بيت شوكت أفندي.

العجوز أومأ موافقًا، وضحك الجد، وتقدم شوكت حتى أصبح واقفًا في المشهد. واصل الرجل كلامه:

ـ وسلّم على السيدة الكبيرة، وقلْ لها هذا من الحاج سرحان..!

قال العجوز وهو يعتل القفة على كتفه:

ـ حاضر.

أضاف الجد:

ـ وخذ شوكت الصغير معك يا عم عمران..!

مضى عم عمران مثقلا بالقفة. تأمل شوكت قدميه الحافيتين المفرطحتين، تنفرشان سوداوين تاركتين آثارهما على السكة واحدة بعد الآخرى. ثرثر العجوز من الحمل كأنما يتوجّع:

ـ هذا الحاج سرحان واسع الثراء، عنده أطيان وخيل وجمال، وعنده ثلاث نساء. هو يغمر جدك بالهدايا... اللهم الطف..!

لكن شوكت الصغير كان مشغولا بالرجل صاحب الفرس. يتصوره الآن يمضي بفرسه بعيدًا. سأل عم عمران:

ـ من هذا الرجل صاحب الفرس الذي تكلّم معي عند الشجرة..؟

ورد العجوز من تحت القفة مستغربًا:

ـ ألا تعرفه..؟

أجاب شوكت دهشا:

ـ لا.. لا أعرفه..!

تكلم عم عمران كأنه يردد بكائية:

ـ لقد كان عريس أمك.. قُرئت الفاتحة وجهّز الجهاز.. لكن أباك جاء من خلف البحر راكبًا حصانا مهولاً ويسوق أمامه سحبا من الأغنام يبحث لها عن مرعى. كان ذلك في قرية أخرى لكنني أعرفه.. آه هذه القفة ثقيلة. قفة الحاج سرحان.. لقد خضَّ العريس.. وجدك شوكت أفندي طرد ابن شقيقته العريس.. آه من هذه القفة.. اللهم الطف..!

قفز قلب شوكت في صدره من فرط استثارته. كادت الدموع أن تتفجر في عينيه، لا يدري أفرحًا أم رعبًا أم سخطًا، لا يدري.. لا يدري.. دفع عم عمران باب السور ومضى داخلاً ميممًا شطر غرفة الفرن يسبقه شوكت جاريًا ناحية أمه. قامت الجدة بجرمها العظيم تعين الرجل. حطّ هذا حمله وهو يقول:

الحاج سرحان يرسل لكم هذا الود ويسلّم عليكم..!

رمقت أم شوكت القفة بعينين فزعتين وهى تشدّ ابنها إليها بعنف. خاف شوكت من تغير وجهها. قبض على قطعة النقود في جيبه. أخرجها يعرضها على أمه مرتجفا:

ـ أعطاني هذه أيضًا يا أمى..!

قبضت على ذراعه تكاد تهشمه. تهمس في أذنه غاضبة غضبا ينتفض منه جسدها:

ـ تأخذ النقود من الناس هكذا..؟

رد شوكت ملهوجًا مرتاعا:

ـ كان جدي شاهدًا..!

ربما أدركت الأم أنها أسرفت على ولدها. خففت قبضها على ذراعه ولانت نظرتها له. عرف شوكت الحنان في عيني أمه. تمرغ في يدها التي امتدت تتحسس رقبته تحت جلبابه وهو يتخفف رويدًا من الفزع الذي تلبّسه. الجدة قلبت محتويات القفة بانصراف تام. تذكر شوكت وقال مندفعا:

ـ رأيت في الشونة رجلا كان سيتزوجك يا أمي..!

بُهتت الأم وشحب وجهها كميتة. لم ير شوكت وجهها هكذا أبـدًا. تصورها ستموت من فورها. تراجع زاحفًا على الحصير مأخوذًا. رفعت الجدة عينيها إليهما متنبهة إلى كلمات شوكت. حوّلت أم شوكت وجهها متفادية نظرات الجدة. كلّمت شوكت بصوت كالفحيح:

ـ قمْ العب مع العيال..

كان شوكت في زحفه قد بلغ نهاية الحصير. قام واقفًا يتلفت مخبولاً، ثمّ أطلق ساقيه للريح. حينما أصبح في وسط الفناء الواسع

الصامت الممتلئ شمسًا أحسّ بالأمان. تفكّر في كل شيء، في الرجل صاحب الفرس، في الحاج سرحان، في عم عمران، في الجد شوكت أفندي، تفكّر مرات ومرات ولم يستطع أن يهتدي إلى شيء. لكن حجم أقدام عم عمران الهائل بدا له عجيبا. إنه لا يحب الحاج سرحان، ولذلك فإن شوكت لا ينبغي أن يحبه. تصور الرجل صاحب الفرس يمضي مختفيًا في دوائر سوداء مؤطرة بالأخضر موجودة في قلب وهج الشمس هذا. مكانه في مركز الدائرة، تبقى قطرة حمراء أخّاذة. على شوكت ألاّ يفكر فيه بعد ذلك أبدًا.

سأل نفسه متى تصحو عفت. لقد أحبها من كل قلبه، شعرها الذهبي، شرائطها الزرقاء وخدودها الوردية وجوربها الأبيض. تمنى لو كان معه شيء ليعطيه لها، لو كان يعرف حكاية طريفة ليحكيها لها. حكى لها عن دارهم في البلد فدهشت. قال لها:

ـ تعالي عندنا..!

قالت:

ـ أخاف.

قلبه ينقبض حين يفكر أن مبروكة لا تحب عفت. لم يدر ماذا يفعل أو ماذا يقول. تذكّر أن مبروكة كلّمتها أمس:

ـ منزلكم كبير...!

وعفت ردّت:

ـ إنه ليس منزلنا..!

دُهشت مبروكة ودُهِش شوكت أيضًا. سألتها مبروكة:

ـ منزل مَنْ..؟

وقالت عفت:

ـ منزل أبو سليمان..!

وسألت مبروكة:

ـ كيف تعيشون فيه؟

قالت عفت:

ـ نؤجره..!

لم تفهم مبروكة ولا شوكت، لكن مبروكة سألت شامتة:

ـ ولو طردكم الرجل منه.. أين تذهبون..؟

سكتت عفت محتارة، تنظر إلى شوكت غير فاهمة وهو حزن من أجلها. تمنى لو تحبها مبروكة، لكنه لم يدر ماذا يفعل.

كان العيال يلعبون في فناء آخر متصل بفناء هذا البيت يفصل بينهما سور واطئ. جرى شوكت إليهم. لـمّة العيال حول مبروكة مثل دجاجات حول ديك تياه. لم تعر مبروكة شوكت اهتمامًا. وقف مرتبكًا لا يدري ماذا يبدأ. أقبلت عليه عفت:

ـ أين كنت..؟

أحس شوكت بثقل قلبه. في عقله اختلاط عظيم، لكنه قال:

ـ كنت في الشونة..!

ابتسمت له عفت صامتة ودود. أراد أن يريها قطعة العملة التي في جيبه، لكنه خاف لسبب غامض. يتحسس القطعة في جيبه وهو ينظر لها صامتًا. زعقت فيهما مبروكة تسب إهمالهم لأدوارهم. رأى شوكت دارًا قد رُسِمت على الأرض وعروسة وعريس وأوعية طبيخ. اندمج مع العيال في اللعب مستغرقين حتى سمعوا الخالة حكمت تنادي عليهم من الشرفة ورأوا المساء قد حلّ. تحسس شوكت جيبه فلم يجد قطعة النقود. كربه الضيق والخوف.

حينما دخل العيال الثلاثة من باب الشقة أدركوا أن ثمة شيئًا غير عادي يجري. من غرفة الجلوس يأتي صوت ضيوف كثيرين يتكلمون ويزعقون ويضحكون. من غرفة الكرار يأتي صوت جماعة كبيرة من مواقد الكيروسين. وقف العيال قليلا مرتبكين ثم تبعوا مبروكة ناحية غرفة الكرار.

الجدة محمرة الوجه مشمرة الأكمام منهمكة تمامًا. رائحة الطبيخ زاعقة. حلل هائلة على الأرض وأخرى على المواقد الطنانة. أم شوكت في الركن عاكفة على نقاوة الأرز. الخالة حكمت تلبس جلبابا جميلا، مكحولة تضع في شفتيها أحمر وتضحك جدًا، شهرت تحمل المفطومة وتلاعبها. جرت عفت لبدت في جنبها. نظر شوكت إلى مبروكة التي تتأمل ما حولها بنظرات سريعة فاحصة.

فجأة تضع الجدة يديها على عينيها يخضّ جسمها البكاء وهي تحدث أم شوكت:

ـ لعلّها الآن تعاني من المخاض يا روح أمها..!

أم شوكت ترد كالهامسة:

ـ خففي عن نفسك يا بنتي.

شوكت يقترب من الخالة شهرت سائلاً:

ـ مَنْ هذه يا خالتي..؟

وتنقضّ عليه الجدة زاعقة بإجابة شرسة:

ـ خالتك امتثال يا حبيبي..!

يصفرّ وجه أم شوكت تجمد يداها على صينية الأرز في حجرها. أدرك شوكت أنها لو كانت قريبة منه للكزته، بادلها النظر خائفا. صمت الجميع إلاّ طنين المواقد العالي كأنها شياطين تتناحر.

فرغت أم شوكت مما في يدها بسرعة. أسلمت الصينية إلى الجدة. قامت تنفض الأرز المتجمع في حجرها. مالت حملت جودت الرضيع الذي كان نائمًا على فرشة بجوارها وأخذت حكمت الصغيرة بيدها وطلبت من مبروكة أن تحمل شهرت المفطومة ثم ساقت العيال جميعهم إلى الغرفة. هيأت الغرفة للنوم وأنامت جودت الرضيع. بقيت شهرت المفطومة تنز قليلا نامت وكذلك حكمت الصغيرة.

مبروكة وشوكت وعفت جلسوا في دائرة. مبروكة سمّت شوكت جَدْيًا وعفت عنزة وسمّت نفسها العجوز صاحبة الدار. السبابات الثلاث وضعت على الأرض. مبروكة تحرك سبابتها قدمًا أو تراجعًا إذا سرحت إلى الحقل أو رجعت إلى الدار. تفعل ذلك وحدها أو تأمر الجدي أو العنزة أو هما معًا أن يصحباها. مَنْ أخطأ في فهم أمرها أو تلكأ في تنفيذه خبطته على يده ويكون لذلك ضحك وكركعة.

رافق شوكت أمه، الأم مطرقة شاردة مهمومة. ضجة الضيوف في غرفة الجلوس تزداد توهجًا. وشّ مواقد الكيروسين يزداد إلحاحا. عاد شوكت إلى أمه فوجدها ما زالت مهمومة مكروبة. لم يستطع أن يفهم شيئا.

فتح باب الغرفة ودخلت الخالة شهرت تلبس جلبابا أسود وطرحة. قالت لـ«شوكت»:

ـ تعال معي نشترِ شيئا من الدكان..

قال شوكت:

ـ نعم يا خالتي..

والخالة قبلت عفت الصغيرة وقالت لها:

ـ سأحضر لك حلوى معي..!

ثم ربتت رأس مبروكة وقالت:

ـ وأنت أيضًا..!

شوكت جرى محاولاً اللحاق بالخالة شهرت على السلم. عند باب الشقة التي تحتهم فتحت شراعة الباب وأطلّ وجه شاب. جفلت الخالة شهرت وللحظة بقيت مكانها لا تريم. شوكت تسمّر في مكانه. تكلم الشاب وابتسامته تُرى في العتمة:

ـ مساء الخير..

ردّت شهرت مرتبكة:

ـ مساء النور..

وسأل الشاب:

ـ إلى أين..؟

وردّت شهرت وهى تتحرك نازلة ممسكة بيد شوكت:

ـ سأشتري شيئًا من الدكان.

وضحك الشاب قائلا:

ـ هل تشترين لي حلوى معك..؟

وردّت شهرت وهي توليه ظهرها خارجة تسحب شوكت من يده:

ـ إنك لست صغيرًا..!

سأل شوكت:

ـ مَنْ هذا يا خالتي..؟

قالت مستعجلة:

ـ ابن مصطفى أفندي أبو سليمان صاحب البيت.. لا تقل لأحد إنني كلمته..!

ردّ شوكت متواطئًا:

ـ حاضر يا خالتي:

طول السكة وشوكت منشغل بما حدث. لم يع من الطريق شيئًا في الذهاب ولا في العودة. كانت الشراعة لا تزال مفتوحة والولد هناك. كلم شهرت:

ـ هل أحضرت لي الحلوى..

وسألت شهرت دهشة وصوتها يشي بالسرور:

ـ ألا زلت هنا..؟

في هذه اللحظة انصفقت الشراعة مغلقة والخالة وشوكت التفتا وراءهما وخيزران الخال نزلت على شهرت مصفّرة كأنها قسمتها نصفين. انكفأت على وجهها وشوكت أغمض عينيه وصرخ رعبا. حينما فتح عينيه كانت أمه وجدته وخالته حكمت يرفعن شهرت ويسندنها لتصعد السلم والخال واقف يشير إلى الشراعة بخيزرانته ويقول للجدة:

ـ كانت تكلم هذا الولد..!

قالت له الجدة بحدة:

ـ اغربْ عن وجهي وليحرق الله قلبي عليك..!

أرقدت شهرت على السرير منكفئة على وجهها عارية تماما. جسمها أبيض وردي اللون تقده العصا نصفين بخط أزرق فيه قطرات دم. وضعوا منديلا مبلولا تحت أنفها الدامي. دهنت الجدة ضربة العصا بالزيت. بدأت فجأة تبكي يخضّ جسمها البكاء وهي تقول عن الخال جودت:

ـ فليأخذه الله لأرتاح منه..!

ثم مشت هي والخالة حكمت إلى غرفة الكرار، بقيت أم شوكت ممسكة بيد شهرت تنظر لها وهي شاحبة الوجه كالميتة. الخالة عفت

الصغيرة تتلفت في ذعر. انفجرت فجأة في البكاء ثمّ مالت على الوسادة وأغرقت في النوم. مبروكة تنظر مستغربة وشوكت مكتئب وصامت وضجة الضيوف لا تزال عالية.

ارتفعت ضجة الضيوف فجأة كأنما انفتح باب غرفة الجلوس. تصورهم شوكت يخرجون وأنهم الآن في الصالة خلف باب الغرفة مباشرة. تسلل هو ومبروكة في غفلة من الأم المنكبة على شهرت إلى الصالة. كانت غرف الجلوس مفتوحة وفي الصالة أمام الباب الحاج سرحان يغسل يديه في الطشت والخال جودت يصبّ عليه الماء من الإبريق. الجد واقف يتكلم مع الحاج سرحان ويضحكان. تناول هذا المنشفة من على كتف جودت وبدأ يجفف يديه. كلم الجد ابنه جودت ووجهه متورد من الضحك:

ـ ناد للوالدة تسلم على الحاج..!

جاءت الجدة ووراءها الخالة حكمت ناكسة الرأس خجلا. سلم الحاج على الجدة وقبل يدها والجدة قبلت رأسه. سلمت عليه الخالة حكمت وقبلت يده. أمسك هو ذقنها وقبلها من خدها. ضحك الجد والجدة والخال. الحاج أخرج من حافظته ورقة نقود كبيرة وناولها لـ«حكمت». ضحكت مبروكة كالمجنونة وفرّت عائدة إلى الغرفة. تبعها شوكت يتصور شفتي الرجل لزجتين على خد الخالة ويتحسس خده هو في المكان الذي قبله فيه الرجل. حينما فتح عينيه في صباح اليوم التالي كانت أمه لا تزال جالسة بجوار شهرت ممسكة بيدها ومنكبة عليها وصامتة تماما.

دخلت الجدة والخالة حكمت ومعهما سيدة ريفية تلبس أسود

وفي يدها صرة، جلست على حافة السرير بجوار شهرت. أم شوكت مدّت يدها وخلعت منديل رأس شهرت وناولته للمرأة في الملابس السوداء. وبدأت هذه ترتّل بصوت عال، وتقيس بالشبر والفتر والقيراط وتعقد في منديل رأس شهرت عقدًا. ثم أخرجت من صرتها حقا فيه أوراق حمراء كأوراق الورد وضعت منها في فنجان به قليل من الماء فتلوّن الماء بلون أحمر. أخرجت قلما من الناب وورقات. رسمت مربعات وكلمات في الأركان وحروف كثيرة حتى امتلأت الصفحة تمامًا. نقعت هذه الورقة في طبق به ماء وأمرت أن تشرب شهرت هذا الماء فشربته شهرت متغصصة. أجرت المرأة نفس الشيء على ورقة أخرى وأمرت أن يُرَشّ نقيعها مكان ما سقطت شهرت. ثم قامت وهي تقول:

ـ الشفاء من الله..!

حزن شوكت، كان يظن المرأة ستقول إن شهرت ستشفى حالا. سلمت المرأة ومشت وبقيت الجدة جالسة على حافة فراش شهرت تبكي ويخضها البكاء. الخالة حكمت واقفة في شفتيها بقايا أحمر وفي عينيها بقايا كحل. قالت لها الجدة بحسم:

ـ خذي العيال إلى الكرار ليفطروا..!

وبعد أن أفطر العيال شالت الخالة حكمت على رأسها صفًّا هائلاً من حلل الطبيخ ونزلت بها ووراءها العيال إلى غرفة الفرن لتغسلها. مكان سقوط شهرت على السلم مرشوش بالماء المقروء عليه. الشراعة مغلقة وصامتة. انتاب شوكت خوف غامض. تلفت حواليه وجرى مسرعًا ليلحق بالخالة ومبروكة وعفت.

كانت لمّة عيال في الفناء الآخر عبر السور الواطئ قد بدأت في اللعب فعلاً. انطلقت مبروكة وخلفها شوكت وعفت يهللون في فرح وينظمون العيال. فورًا أخذت مبروكة دور الرياسة. لعبوا أشياء كثيرة واللعب حمي جدًّا. بنوا دورًا وعملوا عرائس وعرسانا. سافروا إلى المدينة واشتروا أشياء من الدكاكين. خاطوا ثيابا وطبخوا ولائم. أطاع الكل مبروكة طاعة كاملة. لهثوا وراء اقتراحاتها وبدعها. رددوا وراءها الأغاني التي جاءت بها من البلد. لكنها فجأة توقفت وقالت وهي تغز سبابتها في صدر شوكت:

ـ أنت العريس..!!

ضحكت عفت جدًّا وتورّدت وجنتاها. أجلستها مبروكة جنب الجرار هي وشوكت. رسمت حولهما دائرة كبيرة بخط من التراب وسمّتها البيت. كنست البيت ونظفته وأجلست العيال فيه يغنون بقيادتها. رسمت دائرة أخرى أصغر حول عفت وشوكت وسمّتها غرفة الدخلة. قالت مبروكة إن العريس والعروسة لا يتكلمان معًا أبدًا. استمر الغناء.

ظل شوكت جامدًا في مكانه ناظرًا للأمام لا يجرؤ أن يرمق عفت. كان مهتاج المشاعر إلى أقصى حد لا يعرف إنْ كان فرحًا أم خائفا. كانت كلمة العريس بالنسبة له غامضة. تذكر العرسان الذين رآهم في البلد مخضبي الأيدي بالحناء. وفي وجوههم شحوب بعد حبس سبعة أيام في غرفة الفرح. مبتسمي العيون وفي وجوههم دماثة تليق بالعرسان ثم الجلاليب الجديدة والأحذية الفاقعة اللون. شيء غامض ورائع ومخيف هذا العريس وهو لا يدري.

فجأة هتفت مبروكة لـ«شوكت».

ـ الآن تأخذ فلاح العروسة..!

صُعِق شوكت أمّا عفت فقد ضحكت دون فهم. جاءت تساؤلات العيال على مبروكة من كل جانب:

ـ كيف.. كيف.. كيف..؟!

لم يسمع شوكت شيئًا من هذا. كان الصمت في داخله وحوله. تذكّر ليلة فرح أخيه الأكبر. بعد الفرح وزفّة العروسة إلى العريس نام إلى جوار أبيه على الفرن في القاعة الداخلية. نامت أمه وحكمت في الناحية الأخرى من الفرن. لكنه في الليل قام مفزوعًا على صراخ زهرة. وجد أباه صاحيًا ينظر. سأله مرتجفا:

ـ زهرة تصرخ يا أبي...؟

ردّ الأب رصينا مبتسما:

ـ أعرف..!

صمت شوكت غير فاهم شيئًا. قلب بصره حوله. أمه جالسة شاردة مكتئبة كعادتها. كانت الليلة دخلة زهرة. لم يفهم شوكت لماذا تصرخ مفزوعة في ليلة دخلتها، ولم آذاها الأخ الأكبر في مثل هذه الليلة!! لم يجد إجابة ولم يبرح السؤال رأسه. حمله معه في الأيام التالية. سمع بعد ذلك أن أخاه الأكبر في تلك الليلة أخذ فلاح زهرة، لكن لم يفهم تمامًا ماذا يعني ذلك.

لكنه أدرك كل شيء حينما سمع زهرة تحكي ذلك لنساء أخريات

لم يأبهن لوجوده وحكين عما لاقت كل واحدة في تلك الليلة. بعضهن كنّ ضاحكات سافرات لكن زهرة كانت مريرة حاقدة. قالت عن أخيه:

ـ إن أصبعه كالفأس...

وتفكّر شوكت كل مرة رأى فيها الأصبع السبابة لأخيه الأكبر. كان هذا الأصبع غليظا محرشفا كفرع سنط. تصوّر ألم زهرة إذا يدفع أخوه هذا الأصبع في فرجها فيتفجر الدم وهي تصرخ متوجعة مرعوبة.

أمسكت مبروكة ركبتي عفت وفرّقت بين وركيها قائلة:

ـ اجلسي القرفصاء هكذا..

شحب وجه عفت المتورِّد. قاومت يد مبروكة قليلا ثم خضعت مفرِّقة وركيها.

رآهما شوكت ناصعي البياض وسراويلها بينهما قان. قالت له مبروكة:

أنت خذ الفلاح بأصبعك..!

زاغت نظرات عفت وهي تستند بكفيها على الأرض خائفة. مدّ شوكت أصبعه السبابة يتحسس فرج عفت تحت سراويلها القاني. لهاث مبروكة وتنفس العيال مسموع متهدِّج. مشى بطن سبابته في أخدود بين نتوءين شديدي الهشاشة. صرخت مبروكة فرحة. تصور شوكت أن الدم تفجر وأن عفت زعقت، لكنه لم يرتعب كما ارتعب من صراخ زهرة. قام ببطء واقفًا. لم ينظر إلى أحد من العيال تصور نفسه أعلى قامة منهم جميعًا.

مبروكة أمسكته بكفيها من ساعديه ونظرت بعينيها البنيتين الواسعتين في عينيه صارخة:

ـ أنت أخذت فلاح العروسة..!

رأى شوكت في عيني مبروكة للمرة الأولى اعترافا وودًّا حقيقيا، لكن ذلك لم يفرحه. كان حزينًا وصامتا تمامًا في داخله. فقدت الأشياء سحرها بالنسبة له. صنع العيال موكبًا لزفّة العريس والعروسة. رددوا خلف مبروكة أغانيها. مشى الموكب قليلا. شوكت وعفت صامتان.

وحينما نادت عليهم الخالة حكمت من الشرفة عرفوا أن المساء قد حلّ، الخالة حكمت أطعمت العيال في غرفة الكرار ثم قادتهم إلى الغرفة. كانت أم شوكت جالسة بجوار الخالة شهرت على السرير وعلى كتفها جودت الرضيع. حكمت الصغيرة وشهرت المفطومة يلعبان على الأرض. الخالة شهرت في يدها كوبة شاي، أنفها أزرق وفي فتحتي منخاريها آثار دم. تحلّق العيال حول السرير ينظرون للخالة شهرت. نظرت لهم جميعًا ثم قالت لـ«شوكت»:

ـ هل أنا عملت شيئًا يا شوكت..؟

ثمّ انفجرت في البكاء وأم شوكت صامتة. زحم قلب شوكت حلقه حتى كاد أن يختنق. انفجر في بكاء حارق. قال مولولا:

ـ لا يا خالتي..!

أجهشت عفت أيضًا بالبكاء ومبروكة نظرت مندهشة. نزلت أم شوكت ببطء من على السرير وجودت الرضيع على كتفها. سوّت

الفراش ووضعت فيه العيال وغطتهم. غرقوا سريعًا في النوم إلا شوكت بقي صاحيًا ينظر حواليه..

بعد قليل جاءت الخالة حكمت وقالت لأم شوكت:

ـ ألا تجلسين مع أبيك قليلا.. إنه هنا هذا المساء..؟

قالت أم شوكت:

ـ نعم..

ثم تحدّرت نازلة من على السرير ببطء. وقفت تنظر إلى شهرت قليلا وشهرت نظرت إليها أيضًا. تنهدت أم شوكت ومشت دون أن تقول كلمة. تسلل شوكت وراءها يتبعها.

كان الجد في غرفة الجلوس يجلس على الكنبة التي في الصدر وإلى جواره الجدة وبينهما وسادة يتكئ عليها الجد. اللمبة الكبيرة في السقف ملأت الغرفة ضوءًا باهرا ونشرت جوًّا احتفاليًا، لكن الجميع صامتون. تقدّمت أم شوكت قبلت يد الجد وكذلك فعل شوكت والجد دعا لهما وأشار إليهما ليجلسا. جلست أم شوكت وفي حجرها جودت الرضيع وإلى جوارها شوكت وعلى الكنبة المقابلة جلست الخالة حكمت.

سلّم الخال جودت داخلا. أعطى الجد نقودًا. عدّها هذا ووضعها في جيب جلبابه دون تعليق. ثرثر الخال قائلاً:

ـ أعطيت عبد التواب أفندي الحوالة موقعًا عليها من حضرتك وهو أعطاني النقود..؟

لوّح الجد بيده في وجه الخال جودت قرفًا دون أن ينبس ببنت شفة. وقف هذا محتارًا قليلا ثم قال:

ـ سأمر على أصحابي يا أبي..؟

والجد أعطى الخال يده ليقبلها دون أن ينظر إليه. قبّل الخال اليد الممدودة وأقرأ السلام وخرج. حلّ صمت ثقيل وشرد شوكت متفكرًا في أشياء عجيبة. أرعبته فجأة زعقة جده:

ـ الله حيّ..!

نظر الجميع للجد متوجسين والجدة تمتمت:

ـ يا ستار يا رب.

تململ الجد في مجلسه متوثبًا كأنه يوشك أن ينقضّ:

ـ هذا الكلب يسرقنا!

كأنما يكلم شخصا واقفًا أمامه:

ـ يسرق الوقف ويلقي إلينا بالفتات هذا الناظر الحقير..!

ظل الصمت كئيبًا وقالت الجدة متململة:

ـ فليحرق الله كبده..!

كنس الجد كلامها جانبا وهو يجعّد أنفه قرفًا منها. تصور شوكت ناظر الوقف هذا رجلا بشعا يلقي لجده وجدته فتاتا وهما يلقطانه من الأرض كالكلاب. حل صمت بلا نهاية. جودت الذي صحا على زعيق الجد بدأ يبكي وأم شوكت تهدهده بلا جدوى. كلمت الجدة الجد متوسّلة:

ـ يا افندي.. ألا ترتّل في أذن جودت الصغير الأذان الشرعي.. ولد عند أهل أبيه ولم يُعنَ أحد بهذا.

والجد تحولت ملامحه إلى تذلل عجيب وتهدّج صوته وهو يكلم أم شوكت:

ـ هاته يا بنتي..!

قامت أم شوكت تحمل جودت الباكي. حينما جلست إلى جوار الجد وربت هذا على رأس الصغير أخلد إلى سكون. أذن الجد تمامًا مثل الأذان على ظهر مسجد القرية لكنه خفيض الصوت. بقي الجميع صامتين حتى فرغ الجد. قال لأم شوكت:

ـ حفظه الله لك يا بنتي.. حفظه الله لك..!

عادت أم شوكت إلى مكانها، وعاد الجد شاردًا، وعاد الصمت ثقيلاً مستطيلاً بلا نهاية.

بدأ الجد حديثًا لين العبارات وهو شارد مستغرق:

ـ هذا الكون طبقات بعضها فوق بعض.. أخفها أعلاها وهو الهواء.. فيه يعيش الإنسان والحيوان والطير.. وبعد ذلك الماء وفيه يعيش السمك وغيره من حيوان البحر علمه عند الله. وبعد ذلك الطين وفيه الديدان وغيرها.. وفي قلب الصخر تعيش مخلوقات يأتيها رزقها من عند ربها بمقدار..!!

وهنا تهدّج صوت الجد حتى كاد يصير بكاءً خالصًا والكل صامتون. لم يفهم شوكت شيئًا لكنه مبهور. تخيل أطيافًا غريبة تهيم متراقصة على الجدران. زعق الجد زعقة مهولة:

- حيّ..!

نشب شوكت أصابعه من هول الصدمة في لحم ورك أمه. اختلطت في عينيه المرئيات ومادت الغرفة. أرقدته أمه على حجرها أغمض عينيه وراح في سبات عميق.

كان الصباح عجيبا، أيقظت الأم شوكت ملهوجة:

- قم.. سنسافر اليوم..!!

وردّ شوكت على الفور وهو بعد لم يستيقظ تمامًا:

- طيب..!

فتحت أم شوكت باب الغرفة إلى الصالة، متجنبة الباب إلى غرفة الجد والجدة. خرجت لابسة جلباب السفر الأسود، سلتها في يدها وجودت الرضيع على كتفها، تدفع أمامها مبروكة التي تحمل شهرت المفطومة وشوكت الذي يمسك بيد أخته حكمت الصغيرة. في فتحة الباب وقفت ساهمة تنظر إلى الخالة شهرت التي جلست في سريرها تنظر في أعقابهم وإلى جوارها عفت الصغيرة. نكّست الخالة شهرت رأسها واحتضنت عفت الصغيرة. تصوّر شوكت أنها ربما تداري دموعها. كانت أم شوكت قد رجتها ألّا تبكي بعد أن بكت هذا الصباح حتى تقرّصت جفونها. خرج شوكت وفي يده حكمت تكاد تخنقه كربته.

كان الجد يوشك أن يخرج ذاهبًا إلى شونته مرتديًا حلّته وطربوشه والجدة خلفه تودعه على الباب. أقبلت أم شوكت عليه وقبلت يده وقبلت يد الجدة كذلك. تكلم الأب وهو في غاية التأثر لـمّا رأى أم شوكت متأهبة للسفر:

- هل آن الأوان يا بنتي..؟

وردّت أم شوكت كالهامسة:

- ما باليد حيلة يا أبي..!

قال كأنه يولول:

- لا حول ولا قوة إلّا بالله..!

وحلّ صمت قليل عاد بعده يقول:

- اقعدي يا بنتي حتى أعود..!

توسّلت أم شوكت:

- ربما في السفر الباكر خير يا أبي..!

قال الجد وهو يمضي خارجًا:

- سوف تنتظرين حتى أعود.. ولن أغيب عليك..!

صمتت أم شوكت مغلوبة على أمرها. خرج الجد وانخرطت الجدة في بكاء يخضّ جسمها خضا. مشت الجدة تمسح دموعها بمنديلها وأم شوكت واقفة والخالة حكمت أخذت جودت عنها. أتت الجدة لأم شوكت بأشياء كثيرة، ملابس ومناديل رأس ومناشف. شكرت أم شوكت الجدة ودعت لها. دللت الخالة حكمت جودت الصغير وقبلته في شفتيه. أتت عفت الصغيرة بأشياء وقصاقيص قماش ملوّنة لـ«مبروكة»، نظرت هذه دون مبالاة وضمّت قبضتها على الأشياء. سمعوا الخالة شهرت تأتي من الغرفة ثقيلة الخطو. تعلّقت بها نظرات أم شوكت، وهي وضعت يديها على رأس حكمت الصغيرة وشوكت

وعفت الصغيرة ضمتها بذراعيها. نزل الجميع السلم ذاهبين إلى غرفة الفرن.

في الطريق إلى غرفة الفرن قالت عفت الصغيرة لـ«شوكت».

ـ أنا حزينة أنكم مسافرون..!

تعجب شوكت من الكلمة الحلوة ولم يستطع أن يبادلها مثلها. سكت مكتئبًا مقهورًا. في غرفة الفرن جلسوا جميعًا على الحصير. السلّة في الركن أصبحت ممتلئة وثقيلة.

بدأت الجدة تبكي يخضّ جسمها البكاء. قالت أم شوكت:

ـ لا تبكي يا بنتي.. إنها إن شاء الله بخير..!

وخمّن شوكت أن الجدة لا بدّ تبكي الخالة امتثال. واصلت الجدة ولولتها:

ـ تعاودني يا بنتي ذكرى ذلك الصبح عندما وجدت فراشها باردًا..!

وعلا نشيج الجدة ونكّس الجميع أبصارهم إلى الحصير صامتين. وهي ولولت:

ـ خرجت من دار أبيها فارغة اليد ليس عليها سوى جلبابها الأسود..!

أصبحت الجلسة مأتمًا. ارتعب شوكت وزاغت عينا حكمت الصغيرة حتى لبدت في حضن أمها وجودت الصغير بدأ يصرخ. واصلت الجدة بكاءً وعويلاً شرسًا:

ـ صرخ أبوك أنها مرّغت شرفه في التراب.. والرجل يا بنتي كتب كتابها ليلة وصولها له لم ينم معها ليلة في الحرام..!

كاد شوكت أن يصرخ، أن يخرج جاريًا لولا أن وصل الجد. جاء الجد أحمر الوجه مترب الحذاء يمسك طربوشه في يده وخلفه عمران العجوز يحمل قفّة كبيرة. ساعدته الجدة حتى أنزل القفة بعناء. قال الجد لأم شوكت:

ـ هذا أسبوعك يا بنتي.. لحم وأرز وصابون..!

قالت أم شوكت خجلة:

ـ أتعبت نفسك يا أبي..!

تهدَّج صوت الجد وتحدّرت دموعه. أسرعت أم شوكت قبّلت يده شاكرة. امتلأت عيون الجميع بالدموع. والجدة جسمها يخضه النشيج. أخرج الجد ساعته وكلم أم شوكت:

ـ امضي الآن في حفظ الله يا بنتي..!!

قبلت يده مرة أخرى. قبلت يد الجدة. قبلت الخالة حكمت وهذه قبلت يدها. احتضنت شهرت وهذه بكت وقبلت يدها. حضن الجميع شوكت والعيال وحتى مبروكة ثم مشى الموكب الصغير. الأم تحمل جودت على كتفها وفي يدها السلة الثقيلة. عم عمران يحمل القفة. مبروكة تحمل شهرت المفطومة. شوكت يمسك بيد حكمت الصغيرة مشوا يتلفتون ويلوِّحون. الجد والجدة والخالات على باب السور عيونهم مليئة بالدموع. رأى شوكت عيني أمه معلقتين بعيني

الخالة شهرت. رمق هو أيضًا عفت للمرة الأخيرة وأخذ يد حكمت الصغيرة ومشى.

عم عمران يئن تحت القفة الثقيلة. من خلال أنفاسه اللاهثة سأل شوكت:

ـ هل تعود لنا مرة أخرى يا شوكت..؟

انتاب شوكت الحزن والارتباك قال:

ـ لا أدري.. لا أدري..!

سأله العجوز مرة أخرى:

ـ هل أحببت بلدنا يا شوكت..؟

تأمل شوكت أقدام الرجل الغليظة تتنقل على الأرض باصمة بثقلها على التراب. ثم قال:

ـ آه.. إنها بلد طيبة..!

مضى الشارع صعدًا. عرف شوكت ذلك في كفاح قدمي عم عمران الثقيلتين كخفي جمل. قال في نفسه: الآن سوف ينتهي الشارع إلى المقبرة. توًّا بدأ حجم التل الهائل يحجب الأفق عند آخر الشارع. مقبرة عجيبة ليست أبدًا كمقبرة بلدتهم. تذكر هذه وامتلأ قلبه خوفا. وهج الشمس المسلط والظلال القليلة والصمت المخيم وطنين الذبابات الخضراء اللامعة ظهورها في ضوء الشمس. مقبرة بلدتهم بعيدة جدًّا عن الدُّور. القبور حجومها جسيمة مدهوكة بالطين. الصبارات نابتات في طين شرق متشقق في أصص متربة مكسورة،

لكنها تبدو في القيظ دسمات مكتظات. شواهد القبور الطينية صفوف صفوف مكتوب عليها أن تبقى هكذا لا تريم تحت وقدة الشمس المنصوبة.

تذكر يوم أن خطر له أن يرى المقبرة. زوجة أبيه تذهب كل آنٍ وتعود تحكي حكايات عجيبة تملؤه استغرابا. عزم على الذهاب ومشى فى السكة الطويلة تحت الشمس الظهرية حتى شارف القبور. ثم تجاسر أن يقترب أكثر وأكثر وقلبه يرتجف في صدره رعبًا حتى أصبح هناك. شواهد القبور حولت ناحيته تحت تلك الشمس السوداء عيونا وملامح طينية. ثم إن تلك الشواهد كلمته بشفاه الطين تلك. كل الشواهد تكلمت، وكان الكلام همسًا متوجعًا أليما. كان الكلام جماعيًّا كأنه ترتيل قرَّاء. ثم بدأ الكلام يعلو ويعلو حتى صار هزيمًا مزلزلا.

تلبّسه ذات الرعب الذي تلبّسه حين زار المقابر وحده. تفصّدت مسام جسمه بالعرق وهو يمشي في موكبهم الصغير وفي يده أخته الصغيرة حكمت. فإنه يومها استدار ناحية الدور وأطلق ساقيه للريح. طار عائدًا إلى الديار. حينما رأته أمه فزعت وسألته ملهوفة:

ـ أين كنت..؟

وهو أجاب:

ـ كنت في المقبرة..!

ورأى شوكت وجه أمه يشحب كأنها يوشك أن تقع ميتة. أخذته

من يده وربّتْ له دقيقا في كوز ماء وسقته. شرب متغصصًا. قالت له أمه وفي صوتها بحّة البكاء:

لن تذهب مرة أخرى أبدًا.. أبدًا..!

لكن هذه المقبرة لا يخاف منها العيال. يلعبون عليها طول النهار. كذلك العنزات والنعجات. ولقد ذهب مرة وشارك العيال لعبهم، من هنا ارتقى التل صعدًا. تعجب لما رأى أشجار السنط الكثيرة وطيور مالك الحزين الآمنة. الطيور ناصعة البياض صفراء المناقير على ظهورها خضاب حنائي قليل. تعجّب لها كيف تسير آمنة يندفع رأسها الدقيق مساوقًا تنقل خطوها. السيقان نحيلة سوداء والقراق متخالط لكنه ليس قبيحًا ولا مفزعًا. ولقد رأى أعشاشًا فيها بيض أو فراخًا عارية من الريش عمياء العيون تخبط بمناقيرها في كل صوب. والرجال في الظل عند أقدام الحيطان في الجهة الأخرى. طنين ذبابات أو اختلاط كلمات لكن لا خوف.

يومها ارتقى التل صعدًا هو ومبروكة والعيال. كانوا يريدون شراء لحم لطبيخ الفرح وكان عرفة ابن الجزار قد علّق ورقة هائلة من أوراق التين الشوكي في فرع شجرة سنط يقطع منها بمنجل قديم في يده ويبيع للعيال الذين يريدون لحما للعبهم. ساومته مبروكة باقتدار وجاءت باللحم فرحة. شوكت كان يتأمل السكك السارحة في جسم التل. يتأمل القبور المتناثرة هنا وهناك بلا وقار. وشواهدها ساقطة وكثير منها بلا صبارات. العيال يلعبون عليها والنعجات والعنزات بلا خوف. سأل شوكت نفسه: «هل يا ترى هذه البلدة بلا عفاريت؟ أم أن العفاريت هنا تسكن ناحية أخرى..؟».

عجب جدًا وعجب كذلك لطيور مالك الحزين الآمنة. هي الآن أيضًا كما كانت دائمًا. وهو آخذ بيد أخته الصغيرة حكمت مرهفًا السمع لخطوات عم عمران الثقيلة على التراب الناعم. أحسَّ قلبه ثقيلا وأحسَّ بود كبير إلى الرجال الذين يجلسون عند أقدام الحيطان. كفّ الرجال الكلمات المتفرقات الكسولة ورفعوا إلى الموكب العابر سحنًا لوّحتها الشمس. تحت الجباه البنية تبرق عيون صغيرة كالخرز. يتأمل شوكت أصابع الأقدام الضخمة. دون أن يدري وجد نفسه يحيي جماعة الرجال في وقار وحزن.

ـ السلام عليكم..!

حدث تردد قليل وجاءت الردود مبعثرة يسمعها شوكت ورعدة الخوف تمشي في جسده.

ـ عليكم السلام..!

رمق ظهر أمه بسرعة. لمح ارتجافها وارتباك خطوتها لكنها لم تلتفت ولم يضطرب مسارها. صرف من الارتباك نظره ناحية شجرات السنط والتل الصاعد إلى أعلى مرشوقة في جسده القبور. عادت عيناه تتأملان طيور مالك الحزين تمسحان على خضاب ظهرها وتفتشان عن الأعشاش على التراب عند أصول الأشجار. يتابع بأذنيه همهمة الرجال برد السلام ومصمصة الشفاه تعجبا من طفل صغير يلقي السلام كالكبار. ما زالت في جسمه برودة خوف مما فعل، لكنه ظل في تأمله كاسيًا وجهه قناع حزن.

لقطت أذنه كلمات ودودة ودعوات من الرجال الجالسين له:

ـ الله يفتح عليك يا بني..! ولد مبروك..!

وعم عمران تحت القفة الثقيلة يقول:

ـ هيه.. هيه.. سيفتح الله عليك يا شوكت.. وتكون مبروكا.. وتذهب للجامع وتقيم الصلاة في المواعيد..!

لم يدرك كلمات عم عمران جيدًا. تصور الرجال في قريتهم يمشون من الدور حتى الجامع في ثياب نظيفة غير ثياب العمل في الغيط. على جباههم غبرة من أثر السجود وفي أيديهم المسابح يلقون السلام. لم يفهم شيئًا. وهو لا يعرف كيف تؤدّى صلاة أو تُتلى قراءة. امتلأ خوفا وعدم تصديق، لكنه لم يدع ذلك يبدو على وجهه. مشى ناظرًا إلى الأمام لا يتلفت. يقول في نفسه: «إن الواحد قد يكون خائفًا، لكنه لا ينبغي أن يكلم الناس عن خوفه».

الشارع يدور حول التل الكبير وجماعات آخرون من الرجال يرفعون الوجوه ناحية الموكب العابر. التفتت مبروكة ناحية شوكت. ربما تتوقع أنه سيقرئ الناس السلام مرة أخرى. لكنه لم يفعل. وربما لحظ في عينيها ابتسامة شماتة. لم يأبه لها. حرف عينيه عنها سريعًا. إنه يريد الآن أن يكون وحيدًا. سحب حكمت يستحثها بجذب رفيق من يدها حتى لا يتخلّف عن عم عمران. والرجل يواصل كلماته التي كان قد قالها منذ مدة:

ـ أليس كذلك يا شوكت.. يا بني!

وشوكت يقول في نفسه «نعم» خافتة لا تُسمَع ويهز رأسه موافقًا وهو حزين إلى درجة البكاء ويتصور نفسه في جماعة الناس الذاهبين للصلاة في المسجد.

تكشّف عند نهاية الشارع امتداد الحقول الشاسع والسكة التي تشقه ماضية إلى المحطة البعيدة. بدأت كآبة ثقيلة تزمم صدره وتخنقه وأراد أن يبكي بحرقة. التفت بسرعة إلى القرية التي تتصرم وراءه مبتعدة. الآن أصبحت الزيارة لبيت الجد فائتة ومنقضية. رأى أن الأشياء تغيم خلف غلالة الدموع التي تملأ مآقيه. دموع دافئة تتحدر من عينيه على وجهه وهو صامت. بكاء آخر لم يجرِّبه قبل ذلك. ترك الدموع تتحدر فلا أحد يراه.

وجد صعوبة في تذكر الأشياء في بيت الجد. الحكايات متداخلة والوجوه والكلمات وهو يقف وسط هذا الاختلاط غير عارف ما يصنع. لا يعرف مَنْ يحب ومَنْ يكره. هم جميعًا كشخوص الحلم وهو كالنائم الذي تيبست أعضاؤه من الكابوس. واصلت دموعه الانحدار وأحس نفسه يقول: «إنني أحبهم جميعًا، هم ناس طيبون وأنا أحبهم جميعًا». وتصوّر كأنهم يسمعون هذه الكلمات وكأنهم يرفعون إليه الوجوه. والحلم يملؤه حزنا غريبا لم يجرِّبه قبل هذا.

لكن الرغبة لم تساوره في الرجوع. في الحقيقة لم تساوره رغبة من أي نوع. إنه فقط يريد أن يبقى وحيدًا. وهو يسير الآن عائدًا لأنهم ينبغي عليهم أن يعودوا إلى القرية.

تأمل جلبابه. اكتشف أن الجلباب لم يعد جميلاً كما كان أول ما لبسه. بعد أن غُسل فقد جدته وبهاءه وصار قصيرا. مسح دموعه بكمه. رأى أن مبروكة تنظر إليه. ضايقه هذا. صرف نظره إلى الناس الذين يعملون في الحقول. إلى سارحين متأخرين أو إلى ناس يبكرون

بالعودة. وهذا جعله يحسّ بالانقباض. تلك الكمية من الصمت المعلّقة على امتداد المسافة في هذه الصنة الضحوية.

قال في نفسه إنه إذا عاد إلى البلد فسوف يكون دائمًا وحيدًا. لن يتكلم مع أحد. سيذهب إلى كل مكان وحيدًا وسوف يلعب وحده أيضًا. وإذا نصب العم والأخ الأكبر آلة العذاب تلك تحت النخلات فسوف يذهب. وسوف ينازل العيال وسوف يحاول جهده ألا يقع. سوف يثبت قدمه في الأرض بكل قوة وبذلك لا يقع. وهذا التصور ملأه فخرا. واصل سيره مباهيًا يحلم أنه لا يقع في نزاله مع العيال وأن العم والأخ الأكبر ينظران إليه ذاهلين.

لكن حكمت الصغيرة بدأت تبكي ولم تعد تستطيع السير. جاءت لها الأم تنظر للمسافة الباقية وتكلم شوكت:

ـ هل تستطيع أن تحمل أخاك جودت قليلاً..؟

حمل شوكت أخاه جودت يسنده إليه بكفه. وأم شوكت تكلم الحمّال العجوز.

ـ هدّت حيلك هذه القفة يا عم عمران..؟

والرجل يعتل حمله مثقلاً قدميه.

ـ حمّال الحمول هو الله يا بنتي... ولقد وصلنا والحمد لله.. لم يبق سوى فركة كعب..!

حملت الأم حكمت الصغيرة ومشت. مبروكة الآن تسبق متقدمة والأم تمشي بجوار العجوز وشوكت يمشي متخلفًا حاملا أخاه.

وصلوا إلى المحطة. عبروا جميعًا جسرًا صغيرًا على ترعة قليلة الماء وانحرفوا يمينًا إلى مصلى محاط بسور واطئ ومفروش بالقش في ظل صفصافة تتدلى فروعها في الماء كامرأة تغسل شعرها. وعلى البعد رشقت لوحة أسمنتية كبيرة تحمل اسم البلد.

أعانت أم شوكت عم عمران ليضع حمله. تنهّد الرجل تنهيدة عميقة وهو ينظر إلى القفة الجاثمة على الأرض. رفض أن يعود حتى يعين أم شوكت على ركوب القطار. أخرجت صرّة منديلها فكّتها عن قروشها وأعطت الرجل شيئًا منها. قبل النقود ووضعها في جيبه وشكر أم شوكت ودعا لها:

ـ ولتعودي إلينا كثيرًا يا بنتي بسلامة الله..!

نظر شوكت لهذا ساهمًا في نوع من عدم التصديق. وحينما صاحت الأم في ضجة القطار تقول لعم عمران: «سلّم لي على والدي» لم يسمع الرجل ومشى عائدًا على نفس السكة.

الركاب قليلون. لا متسولون ولا باعة. فقط صبي صغير ماسح أحذية يمشي بين صفي المقاعد متكاسلاً ويخبط بالفرشاة على الصندوق خبطات متباعدة. جلست أم شوكت تضم جودت إلى صدرها وتحضن حكمت إليها. شهرت نائمة على حجر مبروكة والقطار يصلصل حديده وهو ينفخ زفرات متقطعة مبتدئًا مشواره. نظر شوكت من الشباك. عم عمران على السكة آيبًا صغيرًا على البعد. قاس شوكت المسافة إلى القرية. بعد طويلة.

مرة أخرى انفطر قلب شوكت. نظر إلى أمه، جامدة الوجه مزمومة

الفم غائبة في تفكير عميق. حوّل وجهه إلى الشباك وقد نسي مبروكة تمامًا. لكنه استحوذ عليه تصوره أنه إذا اكتسى وجهه بالجهامة هكذا وهو ينظر من الشباك فإنه في هذه اللحظة يشبه أمه تمامًا. ملأه هذا الإحساس كبرياءً وأنفة وشعورًا بالمسئولية.

غمره الحزن، حزن لا يريد أن يتخلّى عنه عمره. يتوحّد قلبه وجسده مع هزيم القطار المندفع. يتصوره طائرا. يطير القطار صعدًا وتبقى الأشياء متخلفة عنه. القرى والجميزات العجوزات والناس والبهائم. في القرية البعيدة بيت الجد، نقطة صغيرة موجعة وسط زحام من أشياء أخرى. على هذا الأفق، على نثار من نتف سحب تحتها خط من رسوم أشجار ومنازل، كانت هناك عينا مبروكة. بنيتان كبيرتان سود الأهداب. تطلّع فيهما دون خوف. يخالط جمالها انكسار كان عليه أن يراه من الأول.

باسم الشمس

مصر بضعة انفتقت من رتقها وبقيت تتبعها مهيضة مغلوبة ساخنة عرقانة زاهقة الأنفاس. والشمس أم مأحونة تمدّ إلى قلب الأرض أذرعا ناحلة وأصابع معروقة مرتجفة بحرد الحب. الفصيل يضنى باللبان المسمومة ما ينهض حتى ينهار، تظل العينان البهيميتان معلقتين بالأعلى، غاشيتين لا تبصران. والحر شديد حتى تساوي الحياة الموت في عدم القدرة على التجدد. والضوء باهر حتى تساوي الظلمة النور وحتى يستوي الأبيض والأسود في مزاج من الذهول والخدر ينبض في عمقه البعيد إيقاع جنائزي، كهنة حليقو الرءوس في ثياب من الكتان الأبيض يؤدّون رقصة الموت. موت كالغمض. موت عذب ينعم به القلب، يحضنه وينغلق عليه.

شجرات السنط والجميزات منشورات الفروع كالبيارق فوق رءوس زرافات الحاجين إلى المزارات والسائرين في الجنازات. تهمي الأوراق الشاحبة والنوارات الصفراء على التراب. الطرق على جوانب الترع ما تمضي حتى تنقطع وما تستقيم حتى تميل. انبهمت الغايات واختلطت المقاصد فتشابكت المسالك. ينكسر الشوق آيبًا إلى نقطة البدء ويستحكم استبداد قدر الدوائر المقفلة.

وفي الناحية الشرقية قبالة الأفق تقف سراي الباشا محروسة بالخوف كأنها أسوارها الساقطة البياض أوراق صفراء في مصحف قديم. فإن الواحد ينسى الحكاية، تنفرط سطور كلماتها من قلبه ويبقى الرعب متكورًا في ذلك القلب حتى ما تستقيم القامة ولا ينضر العود. الناس مكسورون شاحبون. الناس سمر وناحلون، وهم قلقون فزعون كالطيور، وهم صامتون ومنطوون. قلوبهم ما عادت تتسع لكل هذه الحكايات، ينسونها ويبقى الخوف كالأحجبة الحافظة التي يكتبها في الغرف المعتمة الشيوخ العميان، لتُعلَّق جنب القلوب.

كان الباشا رهيبا. كان عنده عبيد سود حمر الأفواه بيض الأسنان. كان العبيد يصرخون صراخًا مرعبا ويطيرون على ظهور الخيل في أنحاء الزحام يسوطون ظهور الفلاحين. كانوا يسلبون وينهبون. كانوا يسوقون الأنعام غصبًا إلى سراي الباشا ويسحلون الرجال. كانوا يضعون القطط في السراويل ثمّ يعملون السوط فتنهش هذه في اللحم الحي وتبدأ ملحمة العويل الفاجع في وسط حلقة من ضحكات الباشا وعبيده حمر الأفواه بيض الأسنان.

هدأ هزيم الذكريات في القلوب مخلّفا العاهات الأبيدة. والسور الشاهق ما زال قائما. سقط بياضه لكنه ما زال قائمًا ممتلئا غموضا وأنفة. يحيط بمساحة هائلة من الأرض. يحيط بسر عويص لا تبدو منه إلا جريدات النخلات الشواهق المحملات بالبلح الأحمر والأصفر. وإلا فروع أشجار المانجو المحملات بالثمار الفوّاحة بعبير آسر.

لا تسأل أين الباشا فالأرض له. سره باتع عظيم وإليه تُجبى المحاصيل ومن أجله تُدَّخر القروش. وزرافات الفلاحين يمشون حتى قرب السراي. هناك مبنى صغير فيه مكاتب وحاسبون

يستأدون الواحد كل ما عنده حتى ما يبقى له ما يسد رمقه. يعود الرجل من التجربة المخيفة لا يحكي ولا ينقل خبرًا. لا تسأل أين الباشا فلا يؤمن أن يقوم. ينطلق عبيده سود حمر الأفواه بيض الأسنان يزعقون وينشرون الرعب. أيامها لم يكن كل الزمام معمورًا على الحواف. كانت وحوش الخنازير البرية والذئاب والثعالب والضباع. كانت الحياة زعيقًا مرعبا في الليل والنهار. لكن الباشا لن يقوم. وإن قام فسيكون صالحا. فقد كان في الزمن القديم رجل عاص تطلبه الحكومة وهو يفر منها ويراوغها. تنكر العاصي في ثياب الأئمة ودخل على الباشا وعظه. والباشا عرف. عرف العصيان وعرف الموعظة. الباشا بنى في عاصمة الإقليم المساجد والمدارس والأسبلة والبيمارستانات. الباشا قبب القباب ونقش النقوش وملأ القلوب بالمخافة. الخوف صلاة وأدعية وطوابير الحجاج إلى عاصمة الإقليم في أيام الفصول. الباشا صلاة وتراتيل. الباشا صالح. الباشا طالح. الباشا خوف قائم مرصود يمنع أن يرقص القلب طربًا أو أن يستقيم العود قائمًا.

لكن السور يحيط بمساحة هائلة من الأرض، بسر عويص هامد. في الناحية الغربية قبالة الأفق أقيم مبنى نقطة البوليس. طراز البناء إنجليزي. سلم يصعد إلى باب من الخشب والزجاج والحديد على جانبيه عمودان شاهقان. وعلى الشبابيك أدنيت طنف تحمي داخل الغرف من وهج الشمس. ثم إن المبنى عمر بالعساكر. وسبكت كعوب أحذية العسكر بالحديد تصفق وجه درجات السلم في الصعود والهبوط تتجاوب الآفاق بأصداء هذه الصفقات. تتراجع أكواخ الفلاحين إلى الخلف رويدًا رويدًا حتى تتم حول مبنى نقطة

البوليس دائرة فسيحة. وهذه الباحة ظللت بأشجار ذقن الباشا فأصبحت وكأنها الفردوس ظلًّا وطراوة.

من حظائرها خلف المبنى تصهل خيل الحكومة. سلالة إنجليزية في نواصيها الشر إلى يوم القيامة. على ظهورها عساكر صفر الثياب صفر الوجوه صفر الطرابيش يعملون في الناس السياط. يسلسلونهم في الجنازير ويعودون بهم طوابير يودعونهم سجن النقطة. والأهل يأتون. لفوا في المناديل أرغفة الخبز وحبات الملح. يجلسون تحت أشجار ذقن الباشا. تمامًا مثل جلستهم جنب الجامع في عاصمة الإقليم يرقبون مغفرة الله لذنوبهم. يرقبون الآن عفو ضابط النقطة عما اقترفه ذووهم.

وفي مبنى النقطة. في الغرفة الداخلية يقف صيوان هائل مليء بالثقوب تلك الثقوب مرشوقة فيها الخوابير. أمام الصيوان يجلس عسكري على كرسي وعلى أذنيه مسماعان. العسكري ينقل الخوابير بين الثقوب ويدير في الجنب كرنكًا معدنيا ويلقي بالزعيق والشتائم والبيانات. من تلك الغرفة تخرج أسلاك الهاتف. محمولة على مئة ألف صارية. ماشية في أرجاء الدنيا. في الليل وفي النهار. تحت الشمس وتحت المطر. لا تكل ولا تمل. كأنها عبيد الباشا حمر الأفواه بيض الأسنان في الزمن القديم. زعيقها معدني مدمدم صارم يتحاشاها الناس. يخلون الدوائر حول كل آلة هاتف عند دار شيخ القرية ويرقبون صامتين متوجسين.

باسم الشمس فليتوهج القرص الأقدس، وليسخن قلب الأرض حتى يصير نارًا، وليظلم الأفق من شدة الضوء ومن كثافة الغبار.

لتنتشر بيارق الخوف في أيدي العبيد السود الحمر الأفواه البيض الأسنان. في أيدي العساكر الصفر الثياب الصفر الوجوه الصفر الطرابيش. ولتنبسط هذه الأرض تحت السنابك المغيرة. ولترتجف القلوب بذكرى الزعيق الوحشي، بدمدمة معدنية مكتوبة في أسلاك الهاتف، بأهازيج دينية في أضرحة الرجال المقدسين حول أهلّة القباب المنقوشة. ليتقدّس الخوف، إنه النظام. إنه أمان هذه الحياة المهيضة. أن تموت... أو أن تحيا.

مصرع الفرحة السمراء الصغيرة

لكن المساحة ما بين سراي الباشا والنقطة فسيحة منبسطة. والأرض معطاء. التراب وسم كثيف تبرق فيه جسوم غريبة. إذا دفن الواحد فيه يده اشتاق أن يأخذ منه يدعك به صدره ووجهه ويهيل على جسمه. يخرج الناس من تكدس الأكواخ إلى انفساح الحقول. يقضون النهار يحفرون في الأرض منصرفين حتى يجمعهم المساء إلى قيعان الدور. عندئذ في الظلمة، بين قلوب أفعمت بهشاشة الثرى، تولد لحظات الشوق. رجال خشنون ونساء كالبقر. لكن اسكتْ. إنك لا تعرف. فمهما تكن خشونة المرأة فإنها تخفي في طيّات ثيابها شيئًا ناعما تبديه لزوجها في الليل. ومهما تكن سلاطة لسانها فإن في صرّة منديلها بضعة كلمات حلوات تسكبهن في أذن رجلها النائم على ذراعها كطفل.

ولقد مَنَّ الله على الدنيا بنعمة الحمير. آه لها هذه المخلوقات الحبيبة! الإناث نحيلات مهزولات مجروحات الظهور من ثقل

الأحمال، تمشي تكدح الطرقات في رحلة أبدية، تدفعن أمامهن هامات ثقيلات ساقطات. والذكور معروقون مجوفو البطون لهم نهيق مروِّع وآلات عظيمة وشبق نحو إناثهن الكئيبات لا يرتوي. وإن الواحد ليرتاع إذا ما جاء الموسم وتلبس أجساد الحمارات المنهوكات شبق عارم. إذ ذاك تتجاوب الآفاق بنهيق الذكور ويشيع في الكفر روح داعر لا يُرَدّ. المجد للخصوبة، عيال وجحوش. المجد للذرية. إنها ترث الأرض.

ولقد كان الرجل ينظر إلى حمارته المهزولة العرجاء الدامية الظهر الساقطة الهامة وهو يمشي وراءها من الحقل إلى الدار ذهابًا وأوبة. هذا الرجل في طبعه لكاعة. وابتسامته تكشف عن ثنايا ساقطة وأنياب تالفة. وتقيته دائمًا متزحلقة عن رأس أصلع. وهو بشكل ما يعرف. يرمق الأشياء من حوله من تحت حاجبين كثيفين متأنيًا في خباثة، لكنه لا يقول.

ولقد كان. وفي الموسم تلبَّس جسد الحمارة الهالك عفريت الشهوة. الرجل يبتسم في غموض. يُخَلِّي بين الأنثى وذكر أسمر من الحمير كالجن. ثم يقودها إلى الدار. يتأملها، ينصت إلى نبض كيانها ليرى أيّان رست المتعة الوجيزة واستقرت وكيف تنمو جرثومتها وتخصب. وهو في هذه الليلة اشتاق أن يحس على خشونة فخذيه الناحلين نعومة فخذي امرأته اللحيمة ثم أسلم لليل الحبيب قلبًا حالما.

ثم كان جحشا أسمر رقيقا. جنت لبان الأم المسكينة بعد هنيهة. بدأ الجحش يهزل وتجدب فروته. يتسكّع في الجرن ثمّ يتجاسر

ويخطف الأعواد من أطراف حقول الناس. وكان صاحب الحقل رفيقا يأخذه إلى حيث يتضرر منه عند أصحابه ويحذرهم أن يتكرر منه هذا الفصل. يضحك صاحب الجحش ويعجب بجسارته، يخفيها في هزاله هذا الماكر كما تخفي أمه شهوتها العارمة في هزالها.

أما صاحب الحقل فقد وقف على رأس غيطه مقهورًا. العيدان الغضة تُقْضَم بلا رحمة. يجفُّ مكان القضمة ويصفر ما بقي من العود. تتعرّى الأرض ويبدو من بين العيدان شبح الخراب. ومن ورائه يأتي الجحش متهاديًا عارفا. يلملم بشفتيه الغليظتين المليئتين بالشعر ورق العيدان ثم يقضم بقواطع عريضة حادة. يجن جنون صاحب الأرض. يهوي بمنجله على رقبة الجحش يفصل رأسه عن جسمه. يرى صاحب الجحش مصرع فرحته الصغيرة السمراء. يُذهل عما حوله. يحضن الرأس المقطوع إلى صدره. يخضب الدم جلبابه ووجهه ويديه وذراعيه. يحس بغربته عن الناس وعن الأكواخ يمشي بحمله الدامي إلى النقطة مثل رجل كربته الدنيا فولاها ظهره ويمم وجهه شطر بيت الله.

وبقيت جثة الجحش ملقاة في الجرن. وهو جرن حافل بجثث الحمير. فإنه لمن العجيب أن الحمير وهي تنشر الدعارة في القرية في المواسم، تنشر الموت في مواسم أخرى، تملأ جثثها الأجران والمصارف. ترقد الجثة في الأول مهزولة معفرة زجاجية العينين تزن حولها أسراب الذباب. ثم تنتفخ رويدًا رويدًا حتى تنتصب القوائم الأربع والذيل وتفوح منها رائحة الجيفة يكاد يسقط من بشاعتها طير السماء. يكون الأمر الآن أن تنقض عليها الكلاب أو

سلّاخ الحمير الطائف بالأجران يجمع جلود هذه الجثث لصناعة الغرابيل.

الرجل يمشي في الأجران محاذرًا مثل ذئب. تفوح منه رائحة الجيفة كأنه جثة حمارة ميتة مبقورة البطن تمشي على رجلين. لحيته وشعر رأسه وثيابه ملبدة بدهن جثث الحمير والوساخة. عيناه تبرقان في ارتياب. في يده مدية مرهفة وعلى ظهره خرج فيه أدوات كاره. باقي جماعته قد نصبوا خيمتهم بظهر الكَفْر. أضرابه في الوساخة والنتانة. قد نشروا حولهم الجلود التي لم يتم دبغها بعد. منهم مَنْ يشرِّح الجلود المدبوغة خيوطا رفيعة. منهم مَنْ يبرم هذه الخيوط على المغزل ومنهم من يملأ طارات الخشب بشباك من هذه الخيوط لتصبح غرابيل. كلهم منهمكون يستعملون لغة مبهمة. لا يألفون الناس ولا يألفهم الناس. يأخذون منهم الغرابيل وينقدونهم الثمن ويمضون هاربين من الرائحة الزاعقة والسيماء الغريبة.

السلّاخ يحوم حول جثة الجحش وهو يرمق حواليه محاذرًا، يريد أن يستأمن حتى ينقضّ. وإذا بشرذمة من العيال كأنما نبتت من تراب الأرض تتقدّم وتحيط به. عيال صغار وعيال كبار. كلهم نحيلو السيقان نحيلو الأذرع منتفخو الكروش حليقو الرءوس تسد حفر عيونهم وأنوفهم وأفواههم جموع الذبابات. جلابيبهم لا تستر. حماماتهم تبدو صغيرات متقلصات تحت الكروش الكبيرة وبين الأوراق النحيلة.

يحيطون بالرجل في صمت متأمل. المدية في يده مرهفة ماضية. جثة الجحش أمامه. هو مفرود الجناحين مطوي الساقين يتلفت

مذعورًا كحدأة. الذباب والغبار فوق المشهد سحب كثيبة. يخبط الرجل بعرض السكين على جثة الجحش مجربًا. تتم ارتجافة صغيرة في الجثة وفي أجساد العيال. تضيق حلقتهم رويدًا وتزداد وجوههم كآبة وحزنًا.

صفع جثة الجحش مرة أخرى بعرض السكين سخطًا. في داخله طراوة أنثوية تبكي دموعا دافئة. أليسوا ناسا مظاليم يحملون وسخ الأرض على الرأس وعلى اللحية. في الجسد وفي الروح. إنهم استمرءوا التوحش يرمقون عالم الناس بعيون مكسورة يأخذون النجاسة على أنفسهم. يطهرون منها الجلود ويصنعون منها غرابيل تُعلَّق كالشموس على حيطان الدور. آه.. تهمي دموع داخله. هي الشيء الباقي فيه الذي لم تلحقه النجاسة.

بحركة يائسة يمد الرجل يدًا سوداء عرقانة ملونة بدهن جثث الحمير في جيبه. يستخرج حفنة من حبات الحلوى. يمد يده باسطًا كفه للعيال. تمتد أيديهم النحيلة واحدًا بعد واحد. كل يأخذ لنفسه حبة. يضعون الحبات في أفواههم صامتين. الحلوى مذاقها يقلب الأمعاء. يبصقون من أفواههم الوسخ من حلو الحبات. الآن حلا ريقها. بدءوا يستطعمون الريق الحلو الذي يمصونه في انصراف واستمتاع. الرجل ضرب سكينه في بطن الجحش انفجرت. بدأ يعمل سالخًا الجلد عن الجسد الهزيل. العيال يمصون الحلوى وينظرون. الآن تكاثرت الكلاب تحيط بالمشهد من بعيد. تنتظر حتى يمضي الرجل بالجلد فتقبل هي على وليمتها.

هكذا. ثم تُعرَّى العظام. تعرِّقها دواب الأرض أو تحتُّها تقلبات الشمس والريح والمطر. تتفرق في الأرض عظام الحيوان والناس

النافقة. كأنما الكفر مقبرة دراسة تدوس على مدائمها الأقدام الحافية. إذ ذاك يكون القبر الدار والدار القبر. تنتفي الغربة بين الحياة والموت. يتحاضنان في حجر واحد في قلب رحم الأرض. هناك متسع لكل الأفراح السمراء الصغيرة.

القلب الحافظ

دفتر مهترئ الغلاف ناحل اللون. فرغم خفق القلب وارتجاف الأصابع إذا تلمسه، إلا أنه يهرم ويزداد كآبة. عدد الصفحات يرجع إلى أول الزمان، حيث إنه في البدء كانت الكلمة. والكلمة لما خلصت من رحم الاستبهام واستوت جمدت متجسدة في فكرة. صارت الفكرة شيئًا، ثم صار الشيء حرامًا، ثم صار الفعل جريمة والنية ذنبا. قلّب البصر في صفحات الدفتر من الغلاف إلى الغلاف. قلب الفكر في الوقت من الساعة الأولى حتى الساعة الحالّة. ليس سوى قدر الرعب مرسوم بتعاريج الخطوط ووخز النقط وصرامة الشرط.

فالإنسان كُتِب في أم الكتاب شقيا. وقد أوكل الرؤساء والأولياء بقسمة الشقاء. ينصبون على الناس الوجوه الجهمة. يستأدونهم طاعة أولي الأمر منهم. يمسكون الدفاتر وسجلات الذنوب. في دور نصبت فيها آلات العذاب وقببت ظلمات السجون. دار من تحت دار من تحت دار حتى تلك النقطة في ذلك الكَفْر في قلب دلتا نيل مصر. هناك استقر دفتر الأحوال على مكتب الضابط.

على مكتب الضابط بجوار دفتر أحوال النقطة كان يوجد خنجر عثماني. المقبض من القرن المزين بالفضة والقراب من الفضة

المشغولة. وإن الواحد ليدهش من جمال هذه القطعة الباهر. يحس بثقلها ورسوخها وهي مستقرة في مكانها. ويدرك أن زخارف المعدن النفيس لا ينبغي أن تكون محض زينة، إنما هي تلاوات قدسية. هي طلاسم القوة وتعاويذ المهارة والفتك، هي الابتسامة المهذبة والانتفاضة الخاطفة.

بل إن في هذه النقوش أنوثة مترقرقة، يراها الواحد في انحناءات رقيقة كالشعر ونتوءات ناعمة كآهات حالمة تثير الشوق لتحسس هذه القطعة النادرة واحتضانها في الأكف. عندئذ يجرب الواحد صلادتها وثقلها. آلة القتل هذه. مفعمة برجولة في غاية نضارتها. رجولة مرداء ما كاد يخط شاربها. نبيلة الجبين متقوسة الحواجب لها عيون عسلية وشفاه قرمزية وأنامل وردية. تلك آلة جميلة، آلة فاتكة شرقية.

وما تكاد في حذر تنضو القراب عن النصل حيث تتوتر العلاقة بين المقبض والشفرة. يمتلئ عظم القرن صلادة وتصميمًا وحردًا. والنصل بارد معقوف عليه لمعة معدنية غبشة. وكأنما هو مبلول. لا يجرؤ الواحد على امتحان هذه البلولة الموهومة بأنامله. يحوشه رعب الحكايات عن السموم الشرقية التي تُسقَى بها شفرات الأسلحة فيكون قدرها إن خرجت أن تقتل.

والنصل من حديدة هندية مدقوقة في أناقة معقوفة في رشاقة. ما بين الحدين المرهفين، في الوسط الممتلئ يجري نهير نحيل محفور ينضب قبل أن ينعقف النصل. إذ ذاك تكون الحافة الدائرة حولها العقفة مجوَّفة من ناحيتها حتى تصير في رقة الموسى. هذا التكوين كله تلمّه العين في ومضة وترتعب منه في الومضة التالية.

على النصل توقيع باسم الصانع وتاريخ الصنع يستغلقان على القراءة وإن كانت كلمة القاهرة بازغة الحروف. يكون العجب من قدرة المعلم المصري القديم أن يستنطق المعدن كل هذا الحسن وكل هذا الحرد. أيكون الجنين في رحم الفن هو الرغبة في القتل. أم أنه إحساس المعلم بالذل وهو قابع في قعر دكانه وسنابك خيول المماليك تزلزل سكك الجمالية. رغبة في القتل يحملها نصل مسموم مجلبب بنفيس الفضة.

على جدران غرفة ضابط النقطة لوحات خشبية عُلِّقت عليها كلبشات وجنازير وسلاسل. عُلِّقت في نظام جميل. وهي لامعة لم يلحقها الصدأ. صناعة إنجليزية. فلتسقط الدمامة. ولتسقط الغلظة والجلافة. صار السلطان في مصر أناقة. إبهاظ معاصم المسجون بأكوام الجنازير بربرية شرقية. الآن هو الكلبش. مرسوم مثل سوار المرأة الحسناء. إذا يغلق نسمع له تكة معدنية، ثم اللاشيء هامد غائر الصمت.

منذ ما بدأت رسل المملوك الكبير ترحل إلى الغرب. جلسوا إلى الطبالي العالية. شمّروا أكمام الجبب والقفاطين وكبشوا الطعام بأيديهم. لوّثوا اللحى والشوارب ولم يذوقوا الخمر. ضحك السادة الغربيون وقالوا إن الباشوات ظرفاء. وبدأت صفافير السفن في ميناء الإسكندرية تدخل على الناس من شبابيك البيوت في باب شرقي. هل علم الحمالون أن الصناديق الثقيلة تُفرِّغ من سفن الإنجليز حمولتها كلبشات وجنازير وسلاسل. لم يعلموا. لم يسألوا، فالحمل فقط يكون ثقيلا. يستوي ما في داخل الصندوق.

وجاءت اللجنة. من تحت الطربوش. بين الجلدة والشعر تسيل قطرات العرق. في الآذان أقلام الكوبيا وفي الأيدي استمارات الجرد. مصر أقسام معلومة. وكل قسم مقسوم إلى أقسام معلومة. لا ضلال. لكل يد طالت كلبش. وقد جاء الصندوق إلى النقطة في الزمن القديم. وعُلِّقت قيود الحديد على لوحات الحوائط في نظام جميل. كلبشات حسنة مرسومة مثل أساور النساء الحسان. من معلقها هنا يصل فعلها حتى قلب المؤمن القانت في عتامة المسجد الجامع في الكَفْر. اللهم اكفنا السوء فإنها تنطبق على المعصم. ثم تكون تكة معدنية، ثم يسقط الواحد في بئر الخوف، يهوي مكسورًا بلا أمل في الرجوع.

جدران الغرفة شاهقة شاحبة الصفرة والسقف بعيد أبيض، طنف الشبابيك تكف وهج الشمس. تبقى الزمتة خانقة. وطنين ذبابات خضراء. يثقل على القلب جو قباب القبور الريفية. مكتب الضابط صغير في قاع هذه الغرفة. تمتد أمامه سجادة صغيرة يبكي التراب من نسيجها الصوفي الخشن. يرفع الضابط رأسه إلى الباب الكبير المفتوح. يرى كم سترة العسكري الحاجب.

يقلِّب الضابط البصر في فراغ الغرفة. ليس فيها سوى مكتبه في القاع الغائر. يصرف بصره عن السقف والجدران. إنها كالحة. وهي تمرق مبتعدة عن القاع الذي يهوي بلا قرار. يستعيذ بتهاويل الفضة على قراب الخنجر. تتحسسها أنامله لائذة. يندفع من باب الغرفة فلاح ملوث الثوب والوجه واليدين بالدماء. يحمل في حضنه رأس جحش مقطوعة. دلف من الباب قبل أن يحوشه العسكري الحاجب. يزعق الفلاح مستغيثًا بالضابط:

ـ يا سعادة البيه جاري ذبح جحشي..!

يتأمله الضابط صامتًا. الآن تخايله بقعة الدم التي رآها على سراويله الداخلي صباح اليوم. تكبر وتكبر حتى تشمل مجال الرؤية جميعًا. يتهاوى الفلاح قابعًا. يتداخل في نفسه فرقًا. يعول شاكيًا متذللا:

ـ جاري ذبح جحشي يا سعادة البيه..!

يحول الضابط رأسه بطيئا إلى كوة صغيرة في الجدار بين غرفته وغرفة التليفون:

ـ نادي على الكَفْر وقل لهم يرسلون الفاعل.

والعسكري العامل على جهاز الهاتف أدار كرنكًا صغيرًا في جنب الصيوان الهائل المليء بالثقوب. ثم إنه أخذ خازوقًا صغيرًا موصولا بحبل لطيف وأولجه في ثقب ثم بدأ ينادي على الكفر ولا يسمع ردًّا.

سالت قطرات من الدم على السجادة، لكن عيني الجحش بقيتا زجاجيتين لا تأبهان للدم النازف من الرقبة المقطوعة. الفلاح أراح كفيه على شعر الرقبة الناعم وتضاءل متداخلاً في نفسه مرعوبا. والضابط يحجب بصره عن الأشياء دوائر حمراء دموية متداخلة تدور في سرعة مذهلة. يكرر ملتاعًا ملحًّا: «نادي على الكفر وقل لهم يرسلون الفاعل» لكن صوته لا يخرج، فلا يسمعه أحد.

قدر العذاب

تطير الأسلاك، محمولة على الصواري، مطاولة الشواش، عابرة الترع. تمضي قاطعة الزمام. لا تتوه مع السكك والمدقات. كل فردة

سلك إلى قلب كَفْر، حيث في غرفة عند دار الشيخ تنتصب آلة هاتف. دمدمتها معدنية صارمة يتحاشاها الناس، يخلون حولها الدوائر. يرمقونها والقلوب مفعمة كراهية ورعبًا. وإذا تشتد وطأتها ينفر من بين الناس واحد. يكون أن ينفجر زاعقًا: لا. فإن رعبه أكثر مما يشيله القلب، وكذلك كراهيته. بذلك يولد، ويكون قدره العذاب.

مَنْ أبوه؟ كان علجًا عفنًا مأفونًا يقضي سحابة يومه مركونًا على حائط تتجمع أسراب الذباب على فتحات عينيه ومنخاريه وفمه. لم يملك مساحة أصبع من الأرض ولم يستأجر ولم يؤجِّره أحد على شغلة أدَّاها له. بقي طول عمره مملقًا يأكل إذا تذكره الناس ويجوع ويتلفت ككلب مسعور إذا نسوه.

ومَنْ كانت أمه؟ امرأة أخرى من هاته المهزولات الكادحات كنمال الأرض السود. حمارة أخرى ضامرة ساقطة الهامة مجروحة الظهر. بلهاء باكية مولولة مفزوعة. من صلب هذين خرج أو سقط كما يسقط الآن من حلبة العيال. عيال قلوبهم خامدة، مائت فى أرواحهم ذلك الضرام الذي يعذبه. سوف يكون لكل واحد منهم دار وبهيمة وبضعة قراريط لكنهم لن يكونوا أبدًا على شاكلته وفيهم أبدًا لن يستمر نسبه الغريب.

سقط من صلب هذين كما سقط من صلبه هؤلاء ولم يعنه الكل. مضى على وجه هذا الدهر يصحح نسبه الغريب. شيخ ابن شيخ ابن شيخ. من يوم أن كان في الزمان عسف وإلى يوم أن يُرْفَع العسف من هذا الزمان. رجال يعرفون بالسيماء. لا تغرنك رثاثة العمامة ولا خلق الثوب، إنهم البصر إذا سادت الظلمة والرأي إذا اختلطت المعالم.

فالواحد إنْ قال مرة في حياته «لا» وضع الله في صدره قلب ولي من أوليائه. وفي ضميره خسّة لص، وفي جسده شهوة عار ذكر أو قط سارق، وفي روحه تحب امرأة عاهرة.

ملعون هو. يدور يشمشم في نساء الكفر المهزولات كإناث الحمير. الخشنات المنتنات. يشمشم فيهن. يبحث عن مساحة ناعمة مخبوءة، عن رجفة، عن كلمة مرتعشة ترضي أبوته العارمة. يدور بين الدور في الحارات الضيقة الملتوية. مهزول ضامر مفرج الساقين هائل الذراعين شائه الوجه. يركب الأجساد الخانعة الذليلة في القيعان المعتمة. يقوم عنهن يرفسهن في قرف. نساء بليدات. حزام قلبه لم يُسق. يوليهن ظهره. عيونهن في لحمه مفعمة مذلة وجمالا. يمضي تحضنه هذه العيون. هن نسيج عباءته.

وهو أنوف نزق. يمرضه أن يملأ معدته بالخبز والبصل. ينط فوق سطوح الدور. ينفذ إلى خزائن اللبن كما تنفذ إليها من الشقوق نسائم الهواء. بأصابع سارقة يقشط الدسم من على وجه اللبن. ثم يفرّ. من دار إلى دار تهديه خياشيمه إلى فرخة مطبوخة أو فطيرة مخبوزة. أصبحت له في كل طبخة لحسة وفي كل خبزة لقمة وفي كل طرحة ثمرة وفي كل قرش مليم. وتريد الناس أن تماري، لكنه غضوب كأب كبير، نزق كابن مدلل، وهم لا يريدون أن يعقوه، ولا يريدون أن ينكروه. اللعنه عليهم أجمعين. أغبياء زكائب بلادة وسخة. يمشي في الدرب يحس نظرات امتعاضهم في لحمه. هي نسيج عباءته.

وإنه ليعييه التساؤل عن حرد قلبه. لمه؟ وبمه؟ ولو أنهم اجتاحتهم العبيد السود الحمر الأفواه البيض الأسنان تحت سنابك الخيل وفرقعة

السياط. ولو أنهم زلزلتهم زلزالا إشارات الهاتف وساقتهم مكبلين بالرعب إلى باحة النقطة ليساموا العذاب الأليم هؤلاء المأفونون، الأكداس من الغباء والنتانة. يتساءل عن حرد قلبه إذا نزلت النازلة وقفز وقف أمام صفهم المرتعد المذعور كأنه قرد. يحاور ويداور، يكيد ويحتال يدفع عنهم غائلة السوء. لمه؟

وإنه لتملأ قلبه مهابة تلك الوسامة النبيلة في جبين ضابط النقطة. ذلك الترفّع في تقوّس الحاجبين وعسلية العيون. تلك الرقة في الشفتين القرمزيتين. الأناقة في الأنامل الوردية. لماذا إذا رآه قادمًا على الحصان الأصهب في عاصفة من تراب الطريق وحوله العساكر قفز أمامه معترضًا سكته كقرد. ينط مترقصا ويداور ويحاور مأحونا غليل النفس. يتحسس بذكائه ذلك الحول المتسنم ظهور الخيل. حتى يستأنسه ويربت على ظهره. يحوله عن الفتك قبل مقدار شبر من وقوع الفتك. يعيده من حيث أتى. يغمض عينيه. يعييه أن يدرك حرد قلبه.

في ذلك الخلاء بين العسكر يوجد. خُلِق ليكون في ذلك الخلاء المخصوص لجلاد الفرسان الأفراد. يصولون ويجولون ويأتون بالخوارق العجيبة المذكورة في كتب السيرة القديمة. يحولون بين التحام العسكر ويمنعون أن تنتهي الحرب. يرقصون رقصاتهم المعجزة على إيقاع الرعب في قلوب الخلق. رعب معلق مقدور يثقل على الأرواح ويحني الهامات.

لم تلده امرأة، إنما لحظة فريدة يخصب رحمها الظلم فتلد الرجل الثائر. لا تسأل عنها في الدور النتنة ولا في صفحات العقول المأفونة.

بل في قلوب الفقهاء الحافظين الموكولين بالحكايات العجيبة. مصونة في الصحائف الصفراء. تُتلى في بيوت رفعت. أعتمت جنباتها والناس ناكسون مبهورون.

إنه ضرورة محصلتها تصاول العسف والبلادة منذ الأبد دون أن يلتحما. إنه ضرورة شائهة لكنه كائن وراسخ ومستقر كما يستقر العابد على سجادة صلاته، مفعم الروح بالصفاء مفعم القلب بالوحدة. الوحدة قدره، إن تجاوز دائرتها هلك. يمشي تحت هذه الشمس لا تترك قامته ظلا. يقبل عليه الفلاح صاحب الحقل، يداه ملوثتان بالدم، ساقط الفك وعلى ملامحه الرعب. عند ذلك مشى إلى غرفة الهاتف ليسمع الإشارات. فلما سمعها قال للرجل:

ـ امش ورائي.

لم يع قلبه شيئًا مثلما وعى إيقاع تلك الخطوة، مشية المتهم إلى المساءلة، مشية المقبوض إلى العذاب، مشية المحكوم إلى الحبس، أو مشية العابد إلى أداء الفرض ولم يرتجف قلبه لشيء مثلما ارتجف للتسابيح والصلوات الخائفة. إذْ ذاك تستفزُّ مهارته. تتوتر عروقه كحبال قلاع المراكب الموسوقة. أي رياح سموم تدفع الحمولات الثقال على نهر القدر إلى المهاوي. أترى تكون نجاة؟ أيكون ثمة مفر؟

سيلعنه الناس بعد أن يموت ويقرءون على روحه عزائم الهلاك، لكنهم رهائن ضرورة وجوده، يلبسونها ثيابًا أخرى تطل منها روحه العارفة كروح ولي من أولياء الله أو روح شيطان مريد. وإذا دخل في ظلال أشجار ذقن الباشا حل به سلام وسقت جفاف جسمه بلولة الثقة حتى رأيت على وجهه حلاوة الابتسام.

قفز على درجات السلم الرخامية. أقدامه لا تحدث صوتا. دخل من الباب وحيًا العسكريَّ الحاجب. ثم وقف على باب الغرفة وخلفه الفلاح صاحب الحقل. الغرفة شاهقة الجدران بعيدة السقف. تنزل جهامتها على الأشياء. لا مفرّ. رأسا الضابط والفلاح صاحب الجحش على خط واحد. بينهما الرأس المقطوع وبركة الدم.

القلوب الموجوعة

أنامل وردية، مصبوغة الأظافر، رفيقة ناعسة، تناولت الأسطوانة. وضعتها على قرص الحاكي. حررت الإبرة على أول سطر واللحن خرج «زاد وجدي والبعد كاويني». فردوس الغياب. التعالي عن حزن الحقيقة إلى حزن الغناء. السرادق منصوب. الضوء غاسق والريح طيبة والروح مشتاقة وكل المنشدين حاضرون وكل الأناشيد حزينة. موال ريفي عن الليل الطويل الحالك، قارئ يرتل آيات التخويف من عذاب الآخرة، ربابة تصف كيد الأعداء للفارس البطل. طقطوقة متوجعة عن صد الحبيب. رق وعود وناي وقلوب موجوعة. لا تسل مَنْ. هنا الذي تعذب وهنا الذي سام العذاب. الكل هنا مكسور مهزوم ينشد أن يريق دمعة قبل أن يئوب إلى نهار الكدح على جانب من جانبي ملحمة العذاب التعيسة على هذه الأرض. لا ضرّ. السرادق رحب والبكائيات بليغة والمفاجأة أزلية. وهي تتمنى أن تبقى هناك بلا إياب.

انتهت الأسطوانة وروحها ما زالت أسيرة الخدر، السكر من تجريب اندحار الأشواق، من معاناة الموت. خصلات شعرها كستنائية

تحيط برأسها على المخمل القاني لكرسي وثير. جبينها أصفى من قطرة ندى صبحية على ورقة وردة. عيناها مكحولتان نائمتان تحت قوس حاجبيها. على وجهها صفاء ساعة الغروب وسكونها. سمع قلبها تلك النقرة الواهنة على الباب. أشرق وجهها. قامت خصلات الشعر الكثّ حول وجهها وعلى كتفيها. رشيقة في رداء نومها الحريري. يرتجف النسيج من همسات أنوثتها، يوشك أن يتأوه.

تحب غرفة نومها، ستائر المخرمات الوردية والمخمل الثقيل القاني تجعل الضوء غسقًا ناعمًا أبديًّا. خزانة ملابسها الهائلة بمراياها الكبيرة، السرير الوثير الشاسع ووسائده المزينة. مائدة زينتها وعطورها. ثم مضطجعها الناعم وإلى جواره الحاكي ونفيره الكبير. فرحت بغرفتها الوردية حتى كادت تترقرق في عينيها دمعة. لقدولدت في أحضان الحب وبقيت طول عمرها مضمومة إلى الصدور تمرغ خدودها في الدفء مغمضة العينين. آه ما أقسى وحدتها الآن! تحدّرت من عينيها الدموع.

والشمس أداخت المعيز والكلاب، رقدت في ظلال الجدران القميئة تجتر أو تلتهي مغمضة العيون. ومشت الأبقار والجواميس تحت نير الشغل مثقلات الخطو تفور الرغاوي البيضاء من الخشوم. وتدلّت هوام الحمير المهزولة، يكدحن السكة مثقلات بالأحمال.

والشمس أودت بأسراب الذباب إلى الجنون، أطبقت طنانة غاضبة تنهش بضراوة في فتحات العيون والأفواه والمناخير. ومن الشقوق خرجت هوام الأرض تسعى في كل اتجاه، نمال ودود وما شاء الله من كل شيء. وأطبقت الزنابير الحمراء على أكوام النتانة

وجثث الحيوانات النافقة في الأجران. وعلى شواش الأشجار الجامدة وقفت طيور مفرجة المناقير لاهثة وغربان سود تنعب يتردد نعيبها في هذا الصمت الظهري.

والمرأة الحافظة خرجت تدبّ من الزقاق. الشمس على رأسها والكتاب تحت إبطها كليلة البصر لا تكاد ترى. حافية تحاذر أن تدوس في نجاسة تخرق الطهر الذي هو حفاظ روحها وجسدها. طهر محيط تجهد أن تبقيه عليها. ما أن ينثلم حتى تسرع ترأب الثلمة بالتطهر والغسيل والتسابيح. إذْ ذاك تدركها طمأنينة البرء من شوائب هذه الدنيا. طمأنينة كالكبرياء في عيني المحموم الذي فسد ريقه فعاف الطعوم جميعها.

تستعين على السكة بالتلاوة. فردوسها أشكال الحروف وألوان الأصوات وبقايا الحكايات وجميل المواعظ. لا تني تجوس الدروب الظليلة. ها هنا لا يحوشها كل بصرها، تتبع روحًا عارفة لا تضل وقلبا واعيًا. وتجرب الفرح. فرحا مجتاحًا كنزوة ظالم. سر الكلمات يأتيها بذوي الحاجات، المرضى والمكسورين والعقم ومَنْ أصاب أرواحهم مس. تلين لهم الجانب وتمسح على مواجعهم بسر الكلمات.

عبرت ظلال أشجار ذقن الباشا إلى بيت الضابط الواقع في حديقة النقطة الخلفية. خرجت من كمها يد سوداء معروقة نقرت باب بيت الضابط والباب انفتح. وقف الشبحان متقابلين. لا تسل أيهما الشوق وأيهما الموجعة. فإن لوعة البعد هي التياع عناق اللقاء. تنحلّ مادة العنصرين في حقيقة الفرحة. افترّ ثغر زوجة الضابط عن أسنان

لؤلؤية. والمرأة جهرت بتلاوة مؤسية. مشيا عبر الردهة إلى غرفة النوم.

تربّعت المرأة على البساط الناعم والشابة تمددت على مضطجعها الوثير من المخمل القاني. ساجية ملامحها وسط هالة من خصلاتها. جسمها رقيق لدن على امتداد متكئها. انزاح الرداء الحريري عن ساقين رائعتين مرهفتين وفي قدميها نعل منزلي ذهبي. بدأت المرأة تتلو صلواتها. دماثة الضوء الوردي في الغرفة تملأ روحها. تشف مادة كيانها حتى يتوحّد الداخل بالخارج وتكون القراءة كأنها صادرة من ألسنة الهباءات غير المرئية. والشابة أراحت خدود قلبها على وسادة القراءة الوثيرة. أغمضت عينيها. تحس أنفاسًا دافئة على رقبتها.

خادم صغيرة فتحت الباب ودخلت تحمل في يدها أرنبا صغيرًا أبيض. وضعت الأرنب جنب سيدتها الشابة على متكئها. الشابة ثنت ذراعيها حول كيان الأرنب الناعم الهش. لبد هذا في جنبها حتى أحست بهمسه وتردد أنفاسه. احتملته في يديها إلى صدرها وأغمضت عينيها منصتة إلى تنفسه ناعمة بملمس فروه في رقبتها. الخادم مشت إلى خزانة الملابس. أخذت واحدًا من سراويلات سيدها الضابط وأعطته للمرأة. أخذته هذه ونشرته على حجرها وبدأت تقيس أبعاده وتطويه وتنشر الطيات وهي منخرطة في قراءات وصلوات. والخادم خرجت وأغلقت الباب. بعد قليل عادت مرة أخرى وفي يدها سكين أبيض صغير أعطته للمرأة، وضعته هذه جنبها على البساط.

حملت الشابة الأرنب في حنانيها. أحست به في يدها يلبد وينكمش خائفًا. مدّت ذراعيها به إلى المرأة. مغمضة العينين معلقة الذراعين في الهواء يغمرها إحساس رقيق بالفراء الناعم. رويدًا رويدًا عاد الذراعان إلى جنبيها. في إغماضها تسمع وصوصة الحيوان الصغير. كأنه طفلها الذي ولدته لتوها، وكأنها تنعم بإرهاق ما بعد الولادة. يفترّ ثغرها إذا يزداد صوته فزعا، حتى يخمد. حينئذٍ تشملها راحة أم أخلد وليدها إلى النوم.

بطيئا مدّت أصابعها حلّت حزام ثوب نومها الحريري، انسدلت ضفتاه على جانبي جسمها على المتكأ. تعشق أن تتعرّى، وتشتاق لأن تحضن. أحست قطرة الدم تسقط عليها تبلل سراويلها، والمرأة تقرأ التعازيم بصوت قوي. فتحت عينيها من المفاجأة وقامت نصف قومة. من رقبة الأرنب المذبوحة قطرت حمرة الدم على سراويلها الناصع البياض حتى النضوب. في اليد الأخرى للمرأة سراويل الضابط عليه قطرة حمراء بليلة. أخذته بين كفيها. قامت مشقوقة الثوب، مشعثة الشعر، مسبلة الجفنين مفترّة الثغر. في الخزانة ثياب زوجها. تأملتها قليلا ثم أغلقت الباب. عادت جلست على حافة المتكأ. رفعت رأسها تنظر للمرأة الواقفة. وجهها المشوّه مليء بحنان غريب.

مدّت يدها أمسكت بيد المرأة الخشنة. جذبتها برفق حتى جلست إلى جوارها. تحس بسعادة غامرة أنها عارية وأنها مشمولة بكل هذا الحنان. والمرأة بدأت تتلو. أبدًا لم يكن صوتها هكذا عذب وقراءتها حزينة. جاءت الخادمة وأخذت جثة الأرنب الصغير.

الخنجر العثماني

بسط الضابط كفيه على الخنجر الموضوع أمامه. التفّت أصابعه حول الجسم المعدني. هكذا قبض عليه حينما أعطاه إيّاه يومًا وصمت. أنصت والأب يقرأ في وثيقة متهرئة سطورًا بها يخصهم في وقف قديم. لم يفهم الكلمات العثمانية، لكنه أحس بكبرياء مَنْ يسمع الحكم بإعدامه أمام محكمة عليا. هكذا يُفرَز الواحد ويمتاز. حينئذٍ يكون عليه أن يحمل قدره وحده، يمضي لا يلتفت وراءه.

من يومها بدأ يمجّ الخروج، ويألف البقاء في البيت المكفوفة عنه أضواء النهار، وضجة غوغاء الشارع بالستائر الثقيلة. الآن يرى الأشياء تشوبها حمرة الدم التي تأخذ عليه آفاق بصره. تتحرك شفتاه بأصوات لا تخرج، بينما تجلجل في داخله الكلمات آمرًا عامل الهاتف أن ينادي على الكَفْر ويقول لهم يرسلوا الفاعل. ثم يحلّ الصمت وتطن الذبابات الخضراء قرب سقف الغرفة. ينكس بصره فرارًا من أن يثقل على قلبه جو قباب القبور الريفية.

ثمة خط مستقيم بين رأس شيخ الكفر والفلاح صاحب الجحش ينتهي بالرأس المذبوحة وبقعة الدم على السجادة. في عيني هذا الحيوان النافق وسامة طفلية، كأنها عيني أمه. تقابلها أكتاف أبيه شامخة تطاول لوحة الجنازير والكلبشات والسلاسل، وكأن هذه أوسمة ونياشين تحلّي صدره. وجه الأم عند أقدامه يريح خده على الأرض، والأب ضائع الرأس في فراغ الغرفة. كأنها تنزف عيون الأم الوسيمة.

يجب أن تصل كلماته إلى عامل الهاتف وأن يخطر هذا الكَفْر

بإرسال الفاعل. فإن أمه كانت تطارده بحنانها وكلماتها الذليلة. تطارده بعاطفة مبلولة عرقانة ساخنة تكاد تقلب أبعاده. يفرّ إلى جوار أبيه النظيف الصالح الطيب الريح. يغمض عينيه. وإذا يفتحهما يجد الأب ما زال هناك والأم والفلاح صاحب الجحش وشيخ الكفر. هذان اقتحما ركن البيت وها هما يتأملان المشهد الفاجع بعيون لصوص. يريد أن يمتلك الجهامة التي كان يمتلكها أبوه ليلقي الرعب في قلوبهم.

لكن هذه غرفة بلا ستائر مفضوحة للضوء وشبح أبيه ضائع الرأس في الفراغ. وبين آنٍ وآخر يخايله من هذه الشبابيك وجه من تلك الوجوه الريفية الشائهة الخلقة الغامضة العيون. وفي بيته ترسل زوجته على آثارهم بخادمتها الصغيرة، سحرة وكاتبي أحجبة ومؤاخي الجان. يرى آثارهم الغريبة في كل ركن ذات أشكال وروائح تنشر في جسمه الرعب. وصباح اليوم، إذا يرتدي ثيابه وجد على سراويله بقعة مسمّرة من الدم.

تحسس الرسوم على قراب الخنجر، يتشبث بطلاسمها ليوقف الجنون. في عيني الحيوان المذبوح وسامة عيني الخادمة الصغيرة تطلان عليه من كل ركن منطويتين على الخيانة والغدر والهزء. في عيني الحيوان وسامة عيني زوجته تطلان عليه من على وسادة السرير الحريرية المزينة بالمخرمات وهو محصور يريد أن يفرّ من إلحاح شبقها الساخن المبلول. يكاد يقيء، يكاد يصرخ! احتجاجًا على ظلال الهزء المتكومة على الطرفين الناعسين.

ثم إنها ترسل على آثارهم بخادمتها الصغيرة. البنت تدور في

الأزقة. تتسكع جنب الحيطان. تقرب أنفها الصغير من أنوف مجعّدة وسخة. تهمس بالقذى والشين. تتفزّع الذبابات وهنًا ثم تعود تحطّ تنهش في المآقي والأفواه المشدوهة. تخرج العجوز السوداء من الدرب. الفتحات النازفة في الوجوه الشائهة تناضل الذباب وترجف بالسوء. العجوز تملأ البيت بقراءاتها الشريرة. تنثر أشياءها الصغيرة المسحورة جنب الحيطان وعلى العتبات.

صرخ صرخة مدوية بقيت في داخله لم يسمعها أحد. لم يسمعها أبوه المنتصب شاهقًا في جوف الغرفة ضائعة رأسه في الفراغ مزين صدره بالكلبشات والجنازير والسلاسل. تتحدّر عيناه نزولا على الجسد الأب إلى الرأس المهينة جنب بقعة الدم على السجادة. إنه يعرف عجزه ويعرف أنه لو قال «لا» مرة واحدة لتحرر.

انتصب واقفًا. التقط الخنجر من على المكتب. أحكم قبضته عليه. تنتشر صلابة القرن في عروق لحم يده حتى يتحجّر. استل السلاح من القراب. يد منشورة بالنصل ويد تحتضن طلاسم النقوش. لمعت الشفرة الرصاصية قبالة عينيه ابتسم لها. ثم قفز. أصبح في وسط الغرفة. تلك رشاقة مخزونة في خلايا لحمه لم يجربها قلبه أبدًا ولم تمتحنها جسارته. شُدِه شيخ الكَفْر والفلاح الجالس جنب رأس الجحش. جاء العسكري عامل الهاتف. الكل ينظرون معلقي الأيدي ضارعي الأكف.

لكنه لم يكن يراهم. كان يجرِّب لحظة عبقرية يغيب فيها ابتذال الضوء الفاضح خلف غسق الحلم. تملك الأقدام القدرة على أن تكون أجنحة. وتكون اليد المسلحة شرارة وامضة والجسم لهب

لطيف. كان يجرِّب لحظة التحرر من كيانه والتحول إلى صورة عبقرية على جدار قصر قديم.

أمراء مماليك. الجسم وهم والشفاه قرمز والعيون صبح والعمامة سحابة، يوم تياه بشمس مشرقة. أمراء يتوثبون اقتدارًا ورشاقة. تضجّ صورهم على الحيطان مُرُوَّة وفحولة. تسمع بحات صدورهم وصنج خيولهم. ترسل صلصلة معادن أسلحتهم في القلوب رعدة. يقفز في الغرفة من جانب إلى جانب تتبعه عيون الناس الثلاثة.

كان يؤدّي للحارس قرشه ويمشي صعدًا إلى القصر القديم. يقف مذهولًا أمام الصور أوقاتا طويلة ثم يثوب يبقى في تلك العتامة الغسقية التي تحبسها الستائر في منزلهم مأمونة من فضح الضوء. تتوجّع روحه من حبسها في صندوق جسده اللحيم الرخو. من أب إلى ابن إلى حفيد يحكم زخم اللحم على لألاء الروح حتى يقبر بلا رجاء. ثم يسلمه أبوه الخنجر العثماني.

هاهوذا يثوب. لم يركد قط ذلك السيل الجارف من السنابك والغبار. صنج الخيل وصليل الأسلحة وبحّات صدور الفرسان. القلب موصول بطلاسم النقوش على قراب الخنجر. بتلك الذؤابة المتلألئة في طرف النصل كأنها نجمة هاذية. صرخ صرخة مدوية وقفز قفزة هائلة أصبح على رأس الفلاح صاحب الجحش. الآن سقطت حمرة الدم عن الأشياء وأصبح يرى بصفاء ووضوح. ركل الرأس المذبوحة بسن حذائه وهو ينظر بازدراء واستخفاف وترفع.

الفلاح حلّت به نوبة رعب وهذيان. انفجر في زعيق وولولة متفجعة. قام واقفًا يتراجع بظهره إلى الحائط أمام الضابط. الضابط

يتبعه مصوِّبًا إليه سنّ النصل ويده الأخرى مرفوعة خلف رأسه ممسكة بالقراب. الفلاح يوغل في ولولته المرعوبة والضابط يتبعه مصممًا. العسكري عامل الهاتف والعسكري الحاجب وشيخ الكَفْر يرقبون المشهد ولا يفهمون ماذا سيؤدّي إليه.

وصل الفلاح في تراجعه إلى الحائط. ارتكن إليه مرفوع اليدين مرتجفًا رعبًا. الضابط لا يزال مصوبًا سن الخنجر إلى حلق الرجل. فجأة زعق زعقة مدوية وهجم على الفلاح هجمة لا تُردّ.

توقيــــع

إنه الرقيب الموكول بالعذاب. لا يمارسه تلذذا ولا يقبل عليه وهو محزون. الأمر لديه أن النقمة حفاظ النعمة. وأن التعذيب سياج المتعة. وإلّا كانت الفتنة وما اطمأنت الجنوب في المضاجع. فاضرب، السياط أقلام الحق تسطِّر على هذه الأجسام التعسة حكمًا قديمة. ولا تأخذنك شفقة، فإن هذا لهو اهتزاز اليقين. ولا تفرحْ، إنك إذنْ تقضي مآرب نفسك ولا تخدم الناموس.

وهكذا يعرف وجيف قلوب أهل المحابيس تحت أشجار ذقن الباشا إذا يدخل في الظل ماضيًا إلى باب النقطة. لا يستخفه الفرح ولا يبهظه الحزن، إنما يطمئن. فالقلوب إذا ما لم يعمرها الخوف تربع الشيطان فيها. قلبه مركوز على حذاءين حكوميين يضربان الأرض في إيقاع رصين. يصعد الدرجات. يلج من الباب. باب غرفة الضابط على اليمين. يستدير. يحيي تحية عسكرية ضاربًا الأرض بكعبه، بسطة كفه منشورة للأمام والسبابة مركوز أنملها على الحاجب الأيمن.

ثمّ يجمد في وضعه هذا. وهو قادر على أن يبقى هكذا بلا حراك ألف عام. غارق في طمأنينة صوفية لا يؤرِّقها تأخر إذن الضابط له بالانصراف.

وإذا جاء الإذن فهو ليس تخفيفا، بل هو إشارة ببدء واجبات اليوم. يلج المفتاح الكبير في باب غرفة السجن ينهضون من الأركان. أشباح تعسة مكسورة. الوجوه لزجة بالعرق والعيون مخبوصة بالحمار والأجسام فائحة بنتانة العرق. لا يشمت فيهم ولا يحزن لهم. إنما يحس أبوّة عميقة كأنه الراعي الصالح يكلم شعبا وقع في الخطيئة. يخرجون وتبدأ دورة العذاب.

في البدء يكون تنظيف بيت النقطة. الرقيب يرى هذا الطقس أساسا في تربية القلوب. إنه معرفة البناء معرفة صحيحة كما ينبغي أن يعرف الابن الصالح بيت الرب. إذْ ذاك تقبل النفس على العذاب وقد أُذِلَّت. وإذا تكون القدرة على إدراك جسامة المخالفة والانسلاب في الألم. بهذا لا يكون إيذاءً، بل خلاصا تنصاع له الروح والأعضاء في تساوق لا يربكه حمق التمرد.

يقسم المحابيس على العساكر، كل عسكري موكول بمساعدته خمسة منهم، والرقيب من فوق هذا شاهد عليم. وبإشارة من يده تبدأ المجزرة. من المحابيس مَنْ يعذَّب بالسياط أو بالجريد الأخضر على الظهور أو على الأقدام. منهم مَنْ يحمل بالأثقال ويؤمر بالجري بلا توقف في فناء النقطة. منهم مَنْ يغرق في خزان المراحيض، فإن رفع رأسه ناشته السياط. منهم مَنْ يجرِّب أنواعًا أخرى، لكنه على أي حال لا بدّ ذائق سم الأصناف جميعا. كل ذلك في إيقاع مطرد

سريع لا يتوانى ولا يتلكأ. الرقيب ملاك هذه الحركة اللاهثة العرقانة ودولابها الجهنمي لا يدعها تهن ولا تترهل في جزء من أجزائها. السياط والعصي تخرط كالسكاكين في الأجساد المكروبة المولولة واللحن بشع تقشعرّ منه الأبدان.

يغمض الرقيب عينيه على طمأنينة قلبه. يحسّ بتلك اللحظة الرائعة حين جلس في قاع المركب وامتلأت القلاع بالريح وسارت الجارية على صفحة النيل. إذْ ذاك صدقت التجربة المقولة ورسخ الإيمان وتوثقت جوانب النظام وصار العمر لحظة تقطرت فيها كل اللحظات في مزاج بلّوري غير مشوب رائق.

النهر يجري كما تجري مسألة الحساب. منطق أزلي لا يعرف البدء ولا ينتهي إلى ختام. صدق صارم يصرع الخطأ وينفيه. يقول الأب، في أذنه القلم وكفّاه مبسوطتان على الصفحة قدام ناظريها. يقول الأب، يرسم الابن واحدًا من الحفظة. الأب كاتب في إدارة ضبط النيل. والابن إذا امتلأ قلبه بأصول الحروف وأسرار الأرقام فإن عينيه عشقتا التحليق وجفت أن يكون لها منزل على شيء من الأشياء.

قال الابن لأبيه، بعد أن بارك الرب، إنه صاعد في النيل. النهر يبدأ من قلب القارة، ويدلق مادة عند حافتها الدنيا، والدولاب خالد. على الشاطئين شعوب موحّدة تجيد الفلاحة. لا يسألونك من أين ولا يمتحنون لون جلدتك. يعطونك فأسًا لتزرع أو قلمًا لتحسب مطلوب السلطان أو سوطًا لتنشر الخوف وترسي قواعد النظام. الابن ذاهب. تباركت الرحلة. النهر منساب والماء فيه صول. لا يسأل متى ينزل. اشتبهت الطيور والسحب وشواش الأشجار واجتماعات نبات

الحلفاء وسيقان النساء الجالبات الماء من الموارد والرجال الساقون حيواناتهم. سيعرف القلب لحظة اكتمال المسرّة. عندئذٍ جمع أشياءه وداس على اللوح المرن من القارب حتى الشط.

وهو لم يسأل ولم يتردد ولم يرتب ولم يفرح إذا وضع في كفه سوط وكسي لباس الشرطة الأصفر. ارتكز قلبه على الحذاءين الحكوميين ومشى راسخًا مؤمنا. يفتح الرقيب عينيه. تباركت الأشياء. السياط تخرط في الأجساد كالسكاكين. وعلى وجه الزمام تعمل الفئوس في الثرى الطري. والأقلام تحسب في الصحائف البيضاء تقدر المقادير وما يؤدَّى إلى السلطان والنهر يمشي بين الضفتين في جلال وفي ربوع الوادي القديم يستتب النظام وتوأد الفتنة في قيعان قلوب فئة ضالّة تُنصَب لها في نقط على امتداد الوادي آلات العذاب.

لكن الفلاح صاحب الجحش إذا هجم عليه الضابط هجمته التي لا تُرَدّ وصرخ هو صرخته المدوية، صكّت الصرخة سمع الرقيب ـ لم يرتعب. وإذا توجهت إليه أنظار المعذبين والموكولين بالعذاب جاوبها برسوخه الأبوي. وأشار أن يستمر كل شيء في طريقه المرسوم أمّا هو فقد قام بطيئًا ليرى ما كان.

وإذا ما دخل غرفة الضابط كان هذا يرفع عينيه بالخنجر إلى أعلى، وإذا ما نظر كان الخنجر قد أهوى وفصل رأس الفلاح عن جسده. تدحرجت استقرت قريبة من رأس الجحش. تتقابل أربع عيون عبيطة مفتوحة غافلة عن دم جمد مسودًّا في واحدة ولا يزال حارًّا متدفقًا في الأخرى. أمّا جسد الفلاح فقد انهار قاعدًا جنب الحائط وما بين الكتفين جرح هائل يطرطش دمًا.

قفز شيخ الكَفْر إلى وسط الغرفة صارخًا «لا» لم تكن صرخة ثورته بل ولولة عجزه. إن ما حدث شيء لم يحط به ديوان تجربته والمسألة تعييه فما يسعه أن يبتدع الجواب. لقد كان يعرف أنه سيموت، ولكنه لم يحسب أنه سيعجز حتى يكون فضلا زائدًا لا نفع فيه. حدّق أمامه ساقط الفك.

الضابط يتقدم في يمينه الخنجر وفي يساره القراب ـ أكثر ما يكون صفاءً وجمالا ـ إلى ما بين يدي الرقيب. الرقيب أخذهما من يديه هادئًا وأقرّهما على المكتب. أخذ قيدًا حديديًّا من اللوحة وقيده وأزاحه. أوقفه إلى جواره متأخرًا عنه قليلا كأنه في حماه، سكن هذا وادعًا مسبل الجفنين.

التفت الرقيب إلى شيخ الكَفْر وكلّمه وقورًا نافذ الكلمات:

ـ إننا سنضع الضابط في السجن، ونرى في أمر الجثة ونخابر الجهات العليا حتى تنظر في إعادة الأمور إلى نصابها!!

ينظر من عليائه إلى شيخ الكَفْر الذي بقي واجمًا مصدقا. يضيف مرتّلًا كأنما هي سطور في كتاب مقدس قديم:

ـ عندئذٍ لا يكون إلّا أن تُضاف سطور قليلة في دفتر الأحوال..!!

ثم خطا إلى المكتب. وقف إلى جواره لا يجلس إليه. أمسك الدفتر المهترئ الغلاف في إجلال. فتح الصفحة وأثبت التوقيع.

عبد الحكيم قاسم
برلين الغربية

رجوع الشيخ

مهداة إلى الإخوة الأصدقاء أعضاء اتحاد الكتاب المغربي، شكرًا وتحية

في ذكر مدينة «فاس»

ولما جاءني الكتاب فرحت. ازدهيت لما أحاط بي عيالي يسألون؛ أليس من حقي أن أرى في عيونهم مرة شيئًا غير الرثاء لي؟ جلست على الديوان الكبير في غرفتنا ساكنًا، راضيًا، قريرًا. أكبّ العيال على أذنيّ، يلقطون الشعيرات منها، ويسوّون لحيتي؛ كم ابيضّت! ضحكوا. مررت بيدي على شيبتي راضيًا، وسوّيت شاربي، وحكيت: دعاني الصحاب إلى فاس، المدينة الجليلة، ذات المشاهد البهية؛ قالوا: «أما بعد، فإننا عقدنا العزم على أن نسلم قلوبنا للمناسك المبرورة في المدينة القديمة. وإنا لنرجو أن يكون في ذلك شفاء للصدور من التباس الحقائق، واستعصاء المسائل. فَشُدَّ رحالك إلينا، والحق بجمعنا». جرى العيال في الأركان. جمعوا حاجاتي. عقدوا صرّة سفري. وقفوا حولي، ينظرون مشفقين. عليهم أن يسلموا الأب للطريق، وعلى الأب أن يقرب لبنيه معنى الجرأة والمغامرة.

خرجت. أسلمت نفسي للروع والضجيج والدخان والصخب. صُمّت أذني وسُدَّت مسالك نفسي، لكنني واصلت سيري. لا تلمني؛ أنا غريبٌ عن منجزات هذا العصر، فهو ليس وقتي. كل شيء فيه ينكرني ويقهرني، فلا أجد سعادة قلبي. نظام من أفلاك متداخلة، متراكبة،

متقاطعة، تدور فيها هذه الدنيا صدئة، وسخة، مترِبة، مقعقعة. العمائر شواهد، وجوه مجدورة، مسمولة العيون، يطل من شبابيكها الفزع والشحوب، تشتبه عليّ السكك، وتستغلق عليَّ اللافتات، والإشارات، لكنني أمشي قدمًا ولا أسأل. ضيقة ثيابي، تضغط على صدري، وتحزم على بطني وتعطّل مجرى الدم في عروقي. أنسى ذلك وأفرح. أمشي متراقصًا، مختالًا في سراويلاتي وقفاطيني الخيالية. أبسمل، وأحوقل، وأستعيذ، ولا أصعّر خدي. أطوّح ذراعي، وألوح بيديَّ، وأقرئ السلام ناسًا ملهوجين، وآخرين ذاهلين، وآخرين طائشي الألباب، وآخرين متخشبين في شبابيك العرض الزجاجية. «فاس»، يا صندوق حليّنا، يا صدرًا حفظ سرنا، ووعى حكاياتنا القديمة، أنا قادم إليك، وإلى صحابي. من غربتي في داري يسبقني إليك السلام.

ولما اقتربت من الميناء الجوي، تذكرت آدابي، وسنّة قومي: لا أدخل منزلاً معمورًا قبل أن أطرق وأسْعُل. فإذا فتح لي، ناديت الستّار، وذكرت اسمي، وقرأت السلام. لكن الذي حدث أنني ما وازيت الباب، حتى انفتح لوحده بكهرباء كامنة فيه، حاسمًا، قاطعًا، أطار طمأنينتي، وأنساني كياستي. توقيت المصاريع، حذرت أن تلحق طرفًا من أطرافي أو فضلة ثوبي؛ إنها إذا انغلقت قطعت، وإذا انفتحت أقفز، لا أتلكأ. دخلت على التو. الأشياء هنا تحركها، كلها، إرادة خفيّة علينا، متعالية، كارهة، مشمئنطة، مشمئزة، تسوم الناس الحيرة، والارتباك.

أسْلِمْتُ إلى ردهات طويلة، مُضوَّأة، ملونة. باردة. في الأركان يقف الشُرَط والحفظة، والوكلاء، والعمال، والبصّاصون، والساعون

بالوشاية، والمسارعون بالفرى والشين. وجوههم مبقعة، وحركاتهم آلية، وابتسامهم معنيٌّ ببث الخوف في قلوب الخلق. هؤلاء كانوا بمخالفتي وسموني، في روحي، وظهري، وجبيني. وإن مرقت لحقوا بي، عيونهم عليّ، لا يفلتونني. لكنّ لي كبريائي. أبرزت الأوراق المطلوبة. ردّدت العبارات المناسبة. تفحصت التعليمات المطبوعة، وملأت الخانات الفارغة. وفي ذلك كله، لم يلهني خوفي منهم عن ذكر «فاس».

وما استقر بي الجلوس على مقعدي في جوف الطائرة حتى ضاقت نفسي بالحبس، وبذلك الإحكام والإصرار على ترويض مللي، واستئناس ضجري، وتزييف رغائبي واشتهائي. زفرت مستاءً، وقمت. تسللت من الكُوّة. لملمتُ قفطاني، وسويت شالي؛ لا حدّ لكبريائي. هذه السحب صحرائي، ومطيتي ناقتي، تمضغ ما تلتقطه من شوك الصحراء. تسير الهوينى، وأنا أهتز على إيقاع سيرها، وأغنى:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

هذه السحب حقولي. في أديمها تسرح السكك، والمدقات. ومطيتي حمارتي. قلبي موصول بقلبها. تمشي، تصفق بحوافرها تراب السكة، وأنا أهتز على إيقاع سيرها، وأغنى:

فاعلاتن فاعلاتن   فاعلاتن فاعلن

وجدتهم في انتظاري. أخذوني إلى صدورهم، واحدًا بعد واحد. قدموا لي الماء فاغتسلت، وعزموا بالقهوة فشربت. جلوس، والود هو

الود. منذ خمسة عشر قرنًا، والدفء هو الدفء، في محطات المسافرين وفي استراحات المتعبين. ذلك هو كبرياؤنا؛ كبرياء موزونٌ مقفّى.

ثم إننا ولّينا وجوهنا شطر «فاس». الطرق تهدمت، وتقوّض رصفها. الأسبلة على الجانبين سقطت قبابها، ونضب ماؤها. النواحي حولنا رثت ملامحها، وسِحَنُ الناس. لكننا استعنا على وعثاء رحلتنا بشوقنا لـ«فاس»، حتى وصلنا. وها هي المدينة البهية. نقف قدام باب بوجلّود؛ الجلال المزين بنقوش الفسيفساء الزرقاء. كيف بقي شوقي لهذا الحُسن نقيًّا غير مشوب، وأنا الذي شقيت، وألمت، وافتقرت، وهنت حتى غشي على البصر، وكادت تطمس البصيرة؟!

«فاس»، أيها القلب الحافظ. أدخل من بوابتك منحنيًا تبجيلاً، فإنه إذا كان من ملامحه يقرأ السر الذي يقف عليه الباب حافظًا، فإن بوجلّود، يقوم يقينًا دون عالم فذّ؛ هو الحلم في حياة شقية، وهو الرؤيا إذا تعذرت الرؤية. التفتّ إلى أصحابي. قلت لهم: «دعوني وحدي. خلُّوا بيني وبين مدينتي. طائري في عنقي، أؤدي فريضتي ونُسُكي». نصب أصحابي قبالة ناظريّ الوجوه الجهمة، ولاموني. وحينما أصررت رفعوا في وجهي سباباتهم وحذروني. لكنني عاندت، فتنهدوا، ثم استخاروا الله، ومضوا.

من رائعة النهار ملأ قلبي رنين نحاس الساقي. أكوابه تتدلى، مصطفقة من سلاسل تقسم صدره. بريق عينيه شرط وارد على ابتسام ثغره. أيها الطيبة؟ وأيها الخباثة؟ أيًّا ما كان الأمر، فإن الشروع في رحلة دون التزود بشربة من المسائل غير المألوفة. مشيت نحو ساقي نبالة ظمأى ينغمها جرس الأكواب والصحاف.

وهي أيضًا أقبلت. أنزلت نقابها عن شفتين عقيقيتين، وامتصت الماء من الكوب المنقوش. وإذا رأيتها، أحببتها، لا تلمني، واقبلني على طبيعتي. أنا أحب النساء، وكلما قابلت امرأة وقعت في غرامها، وأرقت، ومرضت، ونحلت، وعليه فإنني طول عمري مريض؛ أقوم من نوبة لتأخذني نوبة أخرى. وهذه ليست كالنساء؛ إنها امرأة فصيحة الشهوة، بليغة التشوق، لا تخفي عباءتها بيان جسمها. عشقتها، وهمتُ بها. سألتها: «ما اسمك؟». قالت: «زبيدة». قلت لها: «وأنا خدامك كمال». قالت: «وماذا تريد؟». قلت لها: «جئت إلى المدينة الجليلة حاجًّا حجة منذورة». قالت: «وهل تزودت لقصدك بالعزم والعزيمة؟». قلت لها: «لم يبق بعد الضنى والضوى، إلا شوق القلب. هل تأخذين بيدي، وتكونين دليلي ومطوفي؟». قالت: «إنني رأيت يقينك، وأنا أعطيك يدي».

ومشينا، أنا آدم، وهي معجزتي ونُبوّتي. من ارتطام ليونتها على صلابة عودي يتنزل على قلبي وحيٌ علوي، يلهمني البصر والبصيرة. وينحسر كمُّها عن يدها بيضاء من غير سوء، تشير فتكون المشاهد. «فاس»، يا وطن الروح والعقل والقلب؛ الإجابة الشافية على الأسئلة المستعصية. أأنا أطل في أنثاي، فتتجلى لي مدينتي، أم أنني أرى المدينة، فتشرق الأنثى في داخلي؟ مدينة أنثى، أم أزلية، غذتني، فتخلقت على مقدار رحمتها أمشاجُ عضلي ولواعج شوقي، امرأتي وأمي، التي سويتها على قدر جوعي واشتهائي، القديمة قدم طفولتي، الخالدة خلود تحناني وتضوّري، أنا لا بد في حضنك، تسفي علينا الرياح رمالها، وتعوي حولنا الصحراء وحوشها. بليت الجدران وما طمست نقوشها، وتهرأت الصحائف وما امحت كتابتها. أمي، افرحي بابنك الحافظ الذكور،

ورفهي عني شقاء رحلتنا الأليمة، من وقت مجيد كان إلى وقت مجيد سوف يكون. واحكي لي كيف سخّرت لنفسك الشمس والريح، فاستوْلَدْتِها الظل والنسائم، تطرين بها الأروقة، والأزقة، والزنقات، والباحات، في نظام من الرقة، والوسامة، والقسامة، والرصانة، مداره انقسام الكبير إلى أصغر منه، وتفرّع الفرع من أصله، وانتشار العمار على المساحة في جلال لا يؤرقه تدافع، ولا تزاحم، ولا هوجة. وفي ذلك، تقوم الجدران شواهد قائلة عنا؛ عن الحسن الفريد الذي في قلوبنا. جدران صموتة الأبواب، غير وقحة الشبابيك، لكن النوافذ أنيسة بالهمس، وبالضحك المكتوم خلف الخشب المشبك. إطلال على رجال ساعين في المصالح، وقلوبهم منذورة للعشق، ورجال عاكفين على الصنائع، مشغولين بطلب الحسن. بيعٌ وشراء وشغل. كدٌّ لإدراك لحظة رائقة. حلم تراه في بريق العيون، وفي رونق الوجنات، وعقيق الشفاه، وصلابة العضل، ولين الخصور؛ تراه في الناس، والعمارة، وأكوام البضاعة، وعبق عبقري لا تدري أيأتي من العطور، والبهار، أم من قلوب يحرقها الشوق.

أخذت زبيدة يدي، ومالت على سقاية النجارين. القنديل القديم يتدلى قدام رسوم من الفسيفساء الزرقاء والحمراء، وبرودة الماء على قدر حرقة الظمأ. شربت زبيدة وسقتني، ثم قالت لي: «ألا تزور قبر مولاي إدريس؟». نظرت إليها، يبدي جمال وجهها الخمار ومحاسن جسمها العباءة. قلت لها: «هل آن الأوان؟». قالت: «والسكة إليه عبر بائع الكتب».

كان جالسًا قدام جدار المسجد، عليه وسامة السن والمعرفة، وخلفه

مصفوفة، وقدامه مفروشة كتبه. أقرأته السلام، وخصصته بالتحية والإكرام، وجلست قدامه: «سيدي، ألم أرك وفرشة كتبك بجوار جامع أبي حنيفة النعمان في «بغداد»؟». قال «نعم، يا ولدي. وأنا رأيتك، وأذكرك» قلت: «سيدي، ألم أرك بجوار مسجد سيدي أحمد البدوي بـ«طنطا»، المدينة الجليلة؟». قال: «نعم، يا ولدي، وأنا رأيتك وأذكرك. لكنني في مشاهد أخرى كثيرة كنت، ولم أرك». قلت: «إلى هذه المشاهد رحل شوقي وقصّر عزمي، وربما يكون في العمر بقية» ثم قلت له: «سيدي إن تجاسرت فاغفر لي، وإن جهلت فأوسع صدرك لي، وقل لي ما بائع الكتب؟». قال: «إنه عبد موكول بالأفئدة، إن قرت وإن تحيّرت، يريد أن يكون بالكلم الهدى». قلت له: «سيدي، نوّر الله قلبك، قل لي عن الكتب». قال: «يا ولدي، الكتب دنيا ليست الدنيا، ولا هي شبهها، بل هي المجاهدة في مذاكرة أسرارها». قلت له: «سيدي، قوّى الله يقينك، أتحْ لي مناهل علمك، وقل لي بماذا تغاير كتبنا كتب سائر الأمم؟». قال: «يا والدي، بإعلائها على الحقيقة الصدق، وعلى الإبانة البيان، وعلى الزجر الحض، وعلى الخوف الرجاء». قلت له: «ويا سيدي، أطل حبال صبرك، وعلّمني ما القراءة؟». قال: «يا ولدي. القراءة أن تندهش عن الحال بما هو حال. إنك إذن تملك الوقت؛ وذلك هو الفضل». قلت له: «يا سيدي، علمتني، أحسن الله جزاءك. الآن لا أنصرف عنك حتى تعظني». قال: «يا ولدي، اقرأ!». قلت له: «سيدي، صدقتني الموعظة، نفعني الله بوعظك، الآن بعنى شيئًا من بضاعتك، واصدقني، أي كتبك أحسن؟». قال: «يا ولدي، أحسن الكتب ما أحسنت قراءته». ولما نظرت وجدت كتاب «رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه»، على الغلاف رسم جارية تشبه

زبيدة، ورسم كهل يشبهني. أخذت الكتاب فرحًا به. وزبيدة قبضت على يدي فرحة بي، وهمست في أذني: «إنني لك». أنفاسها روح سخنة تتلبسني. أغمضت عيني، على نعمة ارتجافة ملذة تشملني.

جلسنا قدام ضريح مولاي إدريس. زبيدة ملتصقة بي. يدانا متحاضنتان على كتابنا. يركب فخذي على فخذها. ينعم عضلي بليونتها. يتنفس صدري، ويجاوب مطاوعًا صدرها. يسأل حردي، ويجيب حنانها. أملكها في داخلي، فأصير بها مكتملاً، فرحان.

أنظر إلى الضريح متبتلًا، ورعًا، فإذا به يخرج أمير المؤمنين «إدريس الثاني بن إدريس الأول بن عبد الله الكامل بن الحسن بن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب». عمامة، وعباءة، وسيف، وجلال يصعّد في منبر يسمو إلى السحب، وخطبة تردد أصداءها السموات السبع: «... اللهم إنك تعلم ما أردت بناء هذه المدينة مباهاة، ولا منافرة، ولا سمعة، ولا مكابرة، إنما أردت أن تعبد فيها، ويتلى كتابك، وتقام حدودك، وشرائع دينك، وسنّة نبيك، ما بقيت الدنيا. اللهم وفق أهلها للخير، وأعنهم عليه، واكفهم مئونة أعدائهم وادرر عليهم الأرزاق، واغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق...». ثم إنه بعد أن انتهى الإمام، نزل الهوينى، جاء إلي. وقف قدامي، ينظر إلي من عليائه. من قعودي رفعت إليه بصري. جلاله كشمس الظهر تغشى العيون. نكست بصري. كانت الجارية على غلاف الكتاب تبتسم للكهل، والكهل ينظر إليها في رجاء. في الرسم رقة يحار الفهم أهي محدثة أم قديمة، ويسأل القلب أهي الوعد أم الفوات. تتحسس أناملنا خطوط التصوير. أبتهل إلى زبيدة: «إنني أخاف الموت!». التصقت بي، وقالت والهة: «لا تخف،

سأخفيك بين فخذي، في أكثر قيعاني سخونة وبلولة، هناك لن يدركك الموت!». رفعت بصري إلى أمير المؤمنين. وسيم رحيم. زعقت أجيبه فرحان: «آمين!». وهو ابتسم لي. ثم مضى الهوينى، منصرفًا عني، عاد إلى ضريحه. انغلق عليه. قمنا، أنا وزبيدة، خارجين، ننقل أقدامنا على البسط الوثيرة، وفي يدينا كتابنا.

في ذكر المصنّف

هو عالم الدهر وواحد العصر، بهجة الناظرين وترجمة حجة المناظرين، من له التكلم في كل فنّ كما شاء، الفاضل مولانا أحمد بن سلمان، المشهور بـ«كمال» وُلد لسبع خلون من شهر كذا، في عام كذا. كان الأب رجلاً ضئيلاً، رقيقًا، خفيض الصوت، لطيف العبارة، حجامًا بارع الصنعة، له دكان حسن وزبن محبون مداومون، ورزق موفور مبارك. وكانت الأم امرأة دقيقة الجرم، قمرية الوجه، عسلية العينين، مقوسة الحاجبين، بديعة اليدين، بلانة مشهورة مقصودة، وماشطة مدعوة إلى دور السادة، والقادة، والرؤساء، والتجار، وكل من له منزلة وذكر.

وذات ليلة، نام الرجل على ذراع زوجته غرارًا، وهي جنبه يقظانة تتأمله، وتتحسس بأناملها أسارير وجهه، وتناجيه: «نم يا حبيب، حناني فراشك، وتدليلي وسادك، وحبي دثارك، ولهفتي حارسك، وأعضائي تئن في انتظار صحوك». وبينما هي في ذلك، إذا بالرجل يفتح عينيه، يكلمها عذب اللسان، رقيق البيان: «يا زبيدة، إن الله أراني في منامي رؤيا هي خير، إن شاء الله. رأيتك عارية منورة كعود لجين. اقتربت

منك، فإذا عن نورك ينشق نور يملأ الدنيا بأسرها». ثم إن الرجل تعوذ وبسمل، وحوقل واستغفر، ثم حمد الله وأثنى عليه، وقال: «والله يا زبيدة لو أنك أمكنتني من نفسك الآن، لرزقنا الله في ليلتنا هذه غلامًا نجيبًا، يكون له شأن، أي شأن!». فلما سمعت زبيدة هذا الكلام، وفهمت هذه المعاني، تقطعت شوقًا وتحنانًا، وقالت لزوجها: «إني لأرجو أن يصدق الله الرؤيا، وهأنذا لك، فافعل بي ما تشاء». وفي ذلك، كشفت لبعلها عن كنوزها، وأمتعته نفسها، في وصال ألذّ من الحياة. وفي هذه الليلة المباركة، حبلت زبيدة من رجلها. وبعد تسعة شهور ولدت كمالا.

وما إن حال الحول، حتى طاف بالحجام طائف المنون، فانتقل إلى رحمة رب العالمين. حزنت زبيدة أشد الحزن، وعافت الزاد حتى ضويت وضنت. وعلى هذا الحال بقيت، حتى عاد المعاد. عندئذ، دخلت عليها ذات عصر جارة عجوز. رفقت بها، وسرت عنها، ثم كلمتها محاورة: «يا بنيتي، إن الله خلق دموع المرأة لبل حرقة أشواق الرجال، لا لسقيا صبّارات القبور». قالت زبيدة: «وما الرجل يا خالة إذا لم يكن للعين سرورًا، وللقلب نعمة؟». قالت العجوز: «يا بنيتي، وهل عدم الرجال؟». قالت زبيدة: «لقد عدم رجلي يا خالة». عند ذلك سكتت العجوز. لمّت ثوبها، ولبست مداسها، وقامت.

ثم إن زبيدة تفكرت، وتذكرت، حتى استعبرت. نظرت إلى صغيرها كمال، فإذا به كالقمر في ليلة التمام. عندئذ، حدثت زبيدة نفسها فقالت: «والله إن ابني هذا لرسول زوجي إلي في يومي هذا. والله إنني لن أبقى قعيدة داري حتى أهلك حزنا. والله لأقومن من ساعتي، وأسعى لرزقي، وأصل زبني، وأسهر على صغيري حتى يحسن الله نباته، فيكون

فيه عزاء لقلبي، وتحقيق لحلم رجلي». هكذا عادت زبيدة إلى مهنتها، بلانة، وماشطة، تذهب إلى زبنها، من الجواري والحرائر والمصونات، في حسان المقاصير. تمضي زبيدة إلى الدور، وعلى رأسها صرّتها التي فيها بضاعتها، وعدة عملها، وفي يدها ابنها كمال.

كبر كمال في الحريم. لعب وتمرغ في وثارة مقاصير الجواري. تدلل على صدور البنات من كل لون وجنس: بجاويات مذهبات، بيض صقلبيات وأعجميات، صفر مغوليات، سمر هنديات وسنديات وقندهاريات، وسود حبشيات وزنجيات. كلهن شغفن به، وأحببنه. ما إن يرينه حتى يأخذنه إلى صدورهن، يعانقنه، ويقبلنه، ويناغينه بكلمات حسان، أو بكلمات تضحكه لغرابة مخارج ألفاظها، أو تنعجم عليه وتستبهم. وبينا هو في ذلك، تفرش أمه بضاعتها، من المخمل، والحرير، والدمقس، والسندس، وأثواب الديباج، وما شاء الله من خيوط الذهب، والفضة، والطيوب، والعطور والزيوت، والدهانات، والبخور، والخضاب، والكحل، وكل ما يطيب النكهة، ويجلو الأسنان، ويُحسن لون الشعر ويرجله، وما يسمن البدن ويعبله. ترى الجواري هذه الأشياء، فيصرخن دهشة، وافتتانا. يأخذن القماش في أيديهن، يمتحن نعومته على خدودهن، ولونه على قدودهن. يتخطرن والحرير على قاماتهن، ثم يجربن الدهانات، ويشممن العطور، ويشترين، ويدفعن دنانير ذهبية، حمراء رنانة.

وزبيدة البلانة، الماشطة، الخبيرة، تعرف شوق الجواري للحمام. تأخذ المستحمة من يدها، رفيقة بها، حانية عليها، تحدثها بأجمل الأحاديث وأرقها، حتى تذهب عنها دهشتها أمام سلطان الماء. ثم تبدأ تنضو عنها

ثيابها، وكمال في الركن ينظر، والزنجية الخادمة تحمل قطع الثياب على يديها. فإذا ما تم ذلك، بدت البنت وكأنها طاووس نتف ريشه. تقف قليلًا مكسوفة، مسلمة شعرها لـ«زبيدة»، تحل الضفائر، وتمشط الشعر، وتلمه، وتعصبه. رويدًا رويدًا، يذهب عن الجارية خجلها، ودهشتها، وتنعم بعريها، وتشتهي أن تداعب، وأن تحضن. تدعو إليها كمالًا، تأخذه إلى عريها؛ تقبله في شفتيه، وتمرغ وجهه في ثدييها. ثم تمضي إلى حوض من المرمر مطموم بالماء، يتصاعد منه البخار. تصرخ فرحة، ثم تستسلم للماء، وليدي زبيدة العارفة، الماهرة، تدلكها وتكبسها. وكل آن يُبدَّل الماء؛ يغور في ثقب في قعر الحوض، وتدلق الزنجية، من قدر نحاسي مزين بنقوش الفضة، ماء ساخنًا، جديدًا. ثم يكون غسيل الشعر، ثم دهانه، وتطييبه، وتمشيطه، ثم يلف الجسد الذي يتصاعد منه البخار في مناشف ناعمة كأنها الزغب، وزبيدة تهنى بانتهاء الحمام.

فإذا ما مضى كمال مع أمه عن خدور الجواري، بقي قلبه معهن. تعود أمه إلى دارها متعبة الجسم، مفعمة الكيس بالدنانير الذهبية. تأوي إلى فراشها، وابنها في حضنها. إنها أم رائعة الجمال، وليس في جارية شيء إلا وهو في زبيدة بهيٌّ مكتمل. يدفن الطفل وجهه في صدر أمه، ويحبها أعظم حب. في قلبه حسن عينيها، ونضارة وجهها، ووسامة أنفها، وشهد شفتيها. إن جمال هذه الأم زرع في قلب الابن حب الجمال. وفي ذات مساء، أنصت لها تكلمت بصوت حنون، وكلمات حسان: «يا ولدي، إن الله خلقك بيني وبين أبيك، في ساعة وضع فيها الحب في قلبينا، والشوق في أعضائنا. وكبرت كل يوم بمقدار، وكبر معك سعدنا. ومات أبوك وعيناه معلقتان بك. ولعله ينظر إليك في جدك ولعبك، ويحب أن يراك على حصير الكتاب، تقرأ العلم». عند ذلك،

انقبض قلب كمال، وخاف؛ الآن تحرم عليه خدور الجواري، ويقسر على لزوم الكتاب. صمت طويلا، ثم قال: «يا أمي، قولي وليس لي إلا أن أسمع وأطيع، لكن اعلمي أنني خائف، محزون. وأسألك، لماذا تكون سكة العلم الخوف والحزن؟». ثم إن كمالًا صمت، دفن كيانه القليل في حنان أمه الغامر، وأغلق عينيه على خوفه.

قالت زبيدة لمؤدب الصبيان: «يا شيخ، إليك ابني؛ أقرئه الكلمات، علّه ينجو من خبث نفسه، ويزكو خيره، ويظهر فضله». قال الشيخ: «يا امرأة، لهذا كانت المدرسة. أسلمي إلينا ابنك، إنا سنقوِّم عوجه، ونثقف عوده بسر الكلمة». وجلس كمال مع العيال تحت شجرة السنط، والمؤدب قائم عليهم بالعصا. وفي المساء، عاد إلى أمه أصفر، مرهقًا، مكروبًا، وقال لها: «يا أمي، لقد شقيت في يومي، وتعست. وفي ذلك عرفت المؤدب، وعرفت الكتاب، وما أنا بعائد إليهما أبدا، إن شاء الله. يا أمي، إن المدرسة تميت الروح لتحيي النظر، وتميت الوجدان لتحيي الذكاء، وتميت القلب لتحيي الذاكرة، وتميت الصغار لتخلق منهم ناسًا كبارا. يا أمي، خذيني معك إلى خدور الجواري؛ هناك أحصل من العلم ما لم ينطو عليه قلب بشر أبدًا».

فإذا ما الجواري رأينه في يد أمه، فرحن به كأنما غاب عنهن دهرا؛ إنه دميتهن الصغيرة، القمرية الوجه، الرقيقة الأعضاء. ينتقل من صدر إلى صدر، ومن عناق إلى عناق، يفعم صدره من روائح العطور، والأجساد، ينعم خديه في غزل الشعور، وديباج الخدود. فرحان كما لم يجرب قلبه الفرح، ومولع بالجواري كما لم يولع بهن من قبل، ومراقب لهن لا تفوته منهن حركة، ولا سكنة، إلا وانشغل بها طويلاً، متفكرًا، ومتأملًا.

هذه الكيانات الرقيقة، الوسيمة، العطرة، ليست دائمًا متألقة فرحة. بل إنها كثيرًا ما يصيبها الوجع، يتقدمن لأمه زبيدة بوجوه خائفة. يشكين. يعرين من أجسادهن المواضع. تتحسس الأم، وتربت، وتجس، ثم تتنهد مشفقة، وتهز رأسها عارفة. ثم تصف الأدوية، والأغذية، والأطلية، والضمادات، والمسوحات، والحقن، والحمولات، والمعاجين، والسفوفات، والغسولات. والبرء يبدأ حالما تنتهي الأم من خلط الوصفة، ومناولة الجرعة. نظر كمال، ورحم، ولم يتعجب. الصحة والمرض، والسقم، النضارة والذبول؛ هذان وجهان لحقيقة المخلوق، لا تكمل معرفته إلا بمعرفتهما.

وتعاني الجواري من لوعات العشق. يشردن، ويعفن الزاد حتى يضوين ويضنين، فالسيد في مقصورة جارية أخرى، يرعى ظبيانه في بساتينها، أو هو غائب في سفر، والقلب يخاف عليه من وعثاء الرحلة وقطاع الطريق. أو هو قد ذهب متاجرًا، والقلب يخاف عليه من لؤم طباع الناس، وطمعهم، ومن بطش اللصوص، والهجامين. أو هو خرج مغازيًا، والقلب يدعو لجيش المسلمين بالنصر. التأوهات حرّى، والدموع سخينة، وزبيدة تسمع حنونة، أو تحكي مؤاسية فتخفف البلوى، وتمني الأماني، وتصرف الفكر عن الغم إلى الفرح. سمع كمال، ورحم، ولم يتعجب. العز والذل، الازدهار والحبوط، بلوغ القصد وفشل المسعى؛ هاتان حالاتان تتداولان الإنسان، لا تكمل معرفته إلا بمعرفة عنائه بهما.

والجواري يكتئبن، لا يعرف أحد لماذا. عندما ما تتمنى نفسها من دنياها، ومولاها محب لها، ومولع بها، لكن الجارية مع ذلك مكتئبة. ليست حزينة، ولا ساخطة، ولا متبرمة، إنما هي فاقدة الرغبة، كارهة،

قاسية، كأنها نار تريد أن تحرق، أو طوفان تود لو تغرق، أو وباء يسعى ليفتك، يتبارى الخلق حولها لمرضاتها، ولا يصلون. تقترب زبيدة، رفيقة، حذرة، تحدثها مخافتة، وجلة. وكمال ينظر ينعم، ولا يتعجب. النضارة والذبول، الإشراق والأفول، التطلق والهمود؛ مزاجا النفس، لا تكمل معرفتها إلا بخبرتها متقلبة بينهما.

هذه دنيا كمال، وقد عرفها كما يعرف الحافظ قرآنه؛ يرتل آياته، ويعتبر عبره، ويعقل حكمه. وفيما هو منشغل بهذا عن نفسه، كبر. انسلخ إهاب الطفولة عن كيانه، لتبدو من تحته ملامح رجولة مبكرة، غضة، لم تخف على أعين الحافظات والحراس. نظروا إليه نظرة قلقلة، كيف يتاح لذكر أن يمرح هكذا في الحريم؟ عرفت زبيدة، وخافت. شهقت الجواري إشفاقا؛ إنهن لا يحتملن فراق كمال. وفي حيرتهن، وقعن على حيلة عجيبة: أحطن بـ«كمال»، كحلنه، وخضبنه، وقمّعن أنامله، ورطّلن شعره، وألبسنه ثياب جارية. سبحان الخلاق العظيم! جارية فريد جمالها في العالمين، تدور مع زبيدة على الخدور، ولا يستريب في أمرها أحد. والجواري شغفن بالجارية كمال حبا؛ يقبلنها في الشفتين، ويحضنها إلى الصدور. بل إنهن أردنها أن تحممهن، وتمشطهن، وترى في مواجعهن، وأن تربت، وتجس، وتتحسس، وتنصت لآهات التشكي. وأرَدْنَها أن تعجب بحلاوتهن، وتقول عنها. وأنمنها على الصدور، نمن على صدرها، وهمسن في أذنها، واستمعن لهمسها، وذقن معها وصالًا حلوًا، كالوعد الذي وعد الله عباده المتقين. وفي ذلك، جربن ذكورة وسيمة، ناعمة، ملفوفة في الحرير، مكحولة، مخضوبة، معطرة، تمتع ولا تذلّ، تدعر ولا تدنأ، تقحب ولا تسفل، تنفذ ولا توجع، تطلق أنوثة الأنثى محبورة، مزدهية بنفسها.

هكذا، قيض الله لـ«كمال» علمًا بالنساء لم يسبقه إليه واحد في العالمين. ومن النساء عرف كمال الرجال كما لم يعرفهم واحد من قبله، ولا من بعده. ورأت زبيدة ولعه بالجواري، فقالت له: «يا بني، إن الله أقر عيني بك، وأبلغك مبلغ الرجال. وإني لأرى ولعك بالجواري، وولعهن بك. فهل لك في أن أشتري لك من حسانهن ما تشاء؟». ثم إن زبيدة قالت وفي عينيها دموع: «يا بني، أريد راحة قلبك، وسعادة نفسك، لا يفجعني الثمن مهما فدح». قال لأمه: «جزاك الله عني خير الجزاء، يا أمي. غير أنني لا أجد في شيء مما قلت راحة قلبي، ولا سعادة نفسي. لا أريد أن أحوز جارية أو أخرى، أو أنعم بوصال هذه أو تلك، بل المرأة مطلقًا أريد. أنا كلف بالنوع، أكون حيث يكون، أخرج من خدر إلى خدر، أحمم، وأمشط، وأطيب. وفي ذلك أعاقر مسألة مستعصية، ومقولة مستغلقة، وقضية مشكلة. فإن أردت فاشتري لي نساء الأرض طُـرًّا، إن نقصت واحدة فسد أمري كله. سبحان الذي خلق القلوب، وقسم عليها همومها، ومشاغلها! لست سيدًا يريد حريمًا، بل غواصًا يريد قرارا. وإني لباقٍ على مشغلتي وهمي حتى أبلغ قصدي، أو تبتسر ني عنه منيتي».

فلما سمعت زبيدة هذا الكلام، بكت أشد البكاء وقالت: «يا بني، افعل ما بدا لك. حرت في معانيك، وعباراتك. إنك لفريد في خلقك، وخُلقك. لقد صدقت رؤيا أبيك، وسوف تكون من الذين أنعم الله عليهم، ورفع شأنهم، وأعلى ذكرهم». وهكذا، فإن كمالًا اصطفاه الله، وعلّمه، وأفهمه، وهيأه لمهمة هو مقدرها، وحكمة هو بالغها، لتتم إرادته في ملكه، سبحانه وتعالى؛ قدر وقدر، وحكم فعدل، لا شريك له، وهو أحكم الحاكمين.

أما عن زبيدة فإنها كانت جارية مولدة، اشتراها صاحبها من قيّان عليم وهي بعد طفلة غضة، لما اتصفت به من جمال باهر، وعقل راجح، ورصانة، وركانة، ورقة عبارة، ولطف إشارة. ثم إن الرجل استقدم لجاريته أكثر شيوخ المدينة علمًا، وفضلاً؛ أقرئت على يده القرآن، والحديث، والسيرة، والفقه، وأبرع النُّحاة قرّب للجارية علوم اللغة والبيان، وسماسرة المتكلمين بسطوا للنجيبة مسائل المنطق والكلام، وأوسع الشعراء باعًا علمها صنعة القريض، وعرّفها محاسنه، ومواضع ضعفه، وفحوله، وأقدارهم، ومنازلهم. وكذلك، فإن أشهر مغني العصر علمها طبائع الآلات، ومواقعها في النفس، ثم دربها على أحسن أصوات جهابذة الفن، فما إن بلغت زبيدة الحلم، حتى كانت قد جودت كثيرًا من القرآن الحكيم، واستظهرت حصيلة وافرة من الحديث، وألمت بالسيرة، وبرعت في مسائل الفقه، وتفوّقت في النحو، وبهرت مستمعيها بحذقها المنطق والكلام، وفاجأت الشعراء بعظيم محصولها من عيون القصائد، ودقائق أخبار الأوائل والأواخر، ثم بسرعة بديهتها في المطارحات والمساجلات، كما أنها علمت علمًا كثيرًا بآلات الغناء، وأجادت العزف على العود، وحفظت معظم الأصوات الشائعة في عصرها. هكذا، خرجت اللؤلؤة من صدفتها، وصقلت الجوهرة، فصارت خريدة عصرها، وفريدة زمانها.

وإنها، إلى جانب علمها، وظرفها، وبديهتها، وأنسها، وعذوبة حديثها، كانت ـ رغم دقة تكوينها ـ باهرة الجمال، سوداء الشعر والعينين، بيضاء اللون والأسنان والمفرق، حمراء الشفتين، وردية

الوجنتين، مقوسة الحاجبين، واسعة الجبين والعينين، صغيرة الفم والكعبين والقدمين. هكذا كانت؛ نعمة على صاحبها، وسعدًا، وقرة عين. اشترى لها دارا بديعة العمارة، فيها ماء جار، وزروع، وزهور، وأطيار، وفيها غرف حسان فيها زرابي مبثوثة، ونمارق مصفوفة، وستر، وطرف، ومصابيح، وتعاليق، ومن كل نادر وشائق وباهر وثمين. وجعل في خدمتها زنجيات لطيفات، وجعل وصائف لها بجاويات، مذهبات الألوان، حسناوات الوجوه، ملس الأجسام. وبالجملة، فإن الرجل لم يبخل على جاريته بفرائد الجواهر واللآلئ، ولا بنادر الحرير والدمقس والديباج والمخمل، ولا بثمين العطور والدهون والخضاب، فكان أن تجلت بدرًا تامًّا في ليلة صيف صافية، وملأت قلوب من تجلت عليهم سعدًا ونعمة.

فإن دار زبيدة أصبحت عش قلب صاحبها؛ يذهب إليها كل مساء مع أصحابه وخلانه وندماه، فتوطئ لهم زبيدة مجلس أنس يليق بالملوك، تكون هي زينته وملاكه وبهاه. تجلس وصيفاتها البجاويات إلى الضيوف بأباريق بلور مليئة بعتيق الخمور، وصحاف ذهب محملة بصنوف النُّقَل، ما يمل الضيف حتى يسرَّى عنه بلطيف الكلام، وجميل الابتسام، وما يفرغ كأسه حتى يمتلئ. وزبيدة من فوق كل هذا، محدثة أنيسة، وعالمة عليمة، وفاتنة بهيجة. يتذاكر الشَّرْب الأخبار، ويروون السير، ويتحاكون الطرف والنوادر، ويتقارضون الشعر، وسيدة المجلس روح هذا الأنس، لا يركد، ولا يسخف، ولا يسف، ولا ينزق. فإذا ما أخذ السرور بمجامع القلوب، تناولت زبيدة عودها، وغنت حتى طارت الألباب من بديع الغناء. فما ينفض المجلس، إلا ويعود كل واحد إلى داره، وفي قلبه بعض من جوهر زبيدة العديم المثال.

فإذا ما أصبح الصباح، قامت الجارية من نومها متعبة، هامدة، خابية، مشتاقة النفس إلى الحمام، وإلى كمال. إنها كانت عرفته إذ جاءها مع أمه، ماشطتها، وفي ذلك عرفت تحت ثياب تنكره، رجولة أكثر رقة من دمعة متحيرة على خد أسيل، فكان أن أسلمت له نفسها إسلام الواحد جسده المتعب لوثير الوسائد. تتعرى له، لا خجلانة ولا وجلانة، بل طُمَيْئنةً مرتاحة. يحممها، ويمشطها، ويدهنها، ويخضبها، ويقمع أناملها، حتى يلفها في دفء المناشف، ويحملها إلى متكئها يتضوع عطرها من لفائفها. إذ ذاك، يجلس كمال إليها، يدلكها ويكبسها، يرى نظام أعضائها ورقيق تركيبها. تأخذ يده إلى مواضع وجعها، ومواقع التذاذها. تهمس له مغمضة بنبض عروقها وخفق قلبها. وتحسّ السلامة والعافية حيث ربت، وتحسس، وجس. ثم إنها نظرت إليه، وكلمته: «يا كمال، أتقرأ؟». قال كمال: «يا سيدتي، أدام الله سعدك، أعرف كثيرًا ولا أقرأ». عند ذلك، التفتت زبيدة إلى وصيفاتها، فأسرعن إليها ملبيات، فأمرت بقلم ودواة ولوح، فأحضرن لها ريشة من ريش النعام، ولوحًا من ناصع الخزف، ودواة من الجمان.

ثم إنها كلمت كمالاً: «يا كمال، خذني إليك؛ أجلسني على حجرك». ثم إنها قالت له: «تقوس عليّ، وضمني أشد ما يكون الضم حتى ما يمتزج دفئي بدفئك». ثم إنها قالت له: «لف ساعدك الأيسر حول بطني، والصق قماش خدك الأيسر بقماش خدي الأيمن، وأمسك بيمناك يدي اليمنى». ثم إنها قالت له: «يا كمال، إنني أريد أن أكون فيك؛ أن أكون لك العقل، والقلب، والعين، واليد، واللسان». ثم إن زبيدة غمست الريشة في الدواة، وعلى اللوح كتبت: «اقرأ». ثم إنها سألت كمالًا: «يا كمال، ماذا ترى؟». قال: «كتابة». قالت: «نعم،

والكتابة خطوط، والكاتبون موكولون بإجرائها على مثال حُسْن موهوم غائب. وكلما ازدادت جودة المثل ازداد قربه من المثال، في دأب لا ينتهي حتى تجف الأقلام وتطوى الصحف». سألها كمال: «وماذا تقول الكتابة؟». قالت له: «اقرأ، وهي من الكلمات المعجزات، اللواتي تحار في فهمهن العقول والألباب. والأقرب أنها إرادة خيرة، متوجهة إلى كرام النفوس، تعالٍ من الحياة الأدنى إلى الحياة الأعلى، الكلمة. الكاتبون موكولون بتحريرها على مثال موهوم غائب، وكلما ازدادت جودة المثل ازداد قربه من المثال، في دأب لا ينتهي، حتى تجف الأقلام وتطوى الصحف».

عند ذلك، أخذ كمال القلم، وكتب جنب كلمة «اقرأ» كلمة «أقرأ». فأخذت زبيدة منه القلم، وكتبت على السطر ذاته عبارة: «إن شاء الله». هكذا، قرأ كمال على زبيدة أصابيح بلا عدد، أوقاتًا فردوسية وعد الله بها العقول النابهة، والقلوب المشتاقة. نظر كمال في الأشياء من حوله، فسماها بأسمائها، ثم إنه عدها، ثم إنه نسقها أنساقا؛ الشبيه إلى الذي يشبهه، والأليف إلى الذي يؤالفه، والنظير إلى الذي يناظره. ثم إنه نظر في التشابهات، والتآلفات، والتناظرات، وأحصى التطابقات، والتوافقات، والتخالفات، والتناقضات. بذلك خلصت له المعاني مشيرة إلى معنى كليّ أعلى. إذ ذاك، أدرك كمال جوهر روحه، وعرف الكبرياء الحق. عندئذ، نزل رويدًا رويدًا، المعنى الكلي منقسم على المعاني. والمعاني حاصلها التطابق، والتوافق، والتخالف، والتناقض، متحصلة من أنساق أشياء متشابهة، ومتآلفة، ومتناظرة. وهكذا، فإن الشيء أحاط به الإدراك، فتجلى فيه العالم. وعند هذا الحد من حكايتنا، قامت زبيدة إلى كمال، وقبلته بين عينيه، وقالت له: «يا كمال، إنك عرفت الحب،

وعرفت القراءة، وهذان هما العدة لكل مهمة جليلة، فاخرج إلى الناس وتحدث عن لواعج الشوق».

خرج كمال من عند زبيدة وهو من التعب، وحيرة العقل، في حال لا يحيط بوصفه يراع. العين ترى من الأشياء أشباحها، ومن الألوان خلبها، ومن الأضواء بهرها، والأذن تسمع من الأصوات اختلاطها، والأنف يشم من الروائح عبيرًا عبقريًا، مسكرًا، يملأ جو الخان المعروش الذي تصطف على جانبيه المتاجر، ويزدحم فيه الناس، والفرحة بالبيع والشراء، ورقبى مساء واعد باللذة والمسرة. الفكر استبد بالكيان حتى شف وخف، فطوحته وطيرته العواطف والميول. ذلك سكر بخمر يتيحها الله للصفوة من عباده ليكشف لهم في الحق الحقيقة. وكمال فراشة مذهبة تعبانة. طائرة في سماء الخان، تتطلع في وجوه رجال سمر، وسيمي الملامح، مفعمي العيون بالشوق، والقلوب باللهفة على حسن مصون في أقمطة الديباج والدمقس، قريب المأتى، بعيد المنال، في إلغاز يستعصي على النهى. قلب كمال منذور لهؤلاء الناس، لأمة متاجرة، صانعة، محاربة، شاعرة، وعاشقة، تعزّ عنقاء سرها على القنص والمطاردة.

ألقى كمال بأثقال تعبه في مضجعه. فلما أخذ النوم بمعاقد أجفانه، رأى، فيما يرى النائم، أنه يموت. وقف سيدنا عزرائيل إلى جوار فراشه، وقال: «يا عبد الله، إن الله يختارك إلى جواره، فأسلم روحك إلى صاحبها، جل جلاله». فما كان من كمال إلا أن تشهد، وحوقل، واستغفر، وحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «يا ملك الموت الذي خصه الله بسر من أسراره العظام، اقبض روحي إلى بارئها بإذنه تعالى». صعد الملك بالروح مخترقًا السموات السبع إلى قدام العرش. وبعد السؤال،

والحساب، منّ الله على عبده كمال بغفرانه، وأمر به إلى الجنة. بابها لا يحيط البصر بجسامته، مصنوع من نقي الفضة، ومزوق برائع العقيق، ونوادر الزمرد، وفرائد اليواقيت. وقدام الباب رضوان حيًا وبيًا، وفتح الباب للعبد المحبور.

فردوس الله ترابه تبر، وماؤه خمر، وريحه مسك، وشجره فيروز ورقه ذهب، وثماره جوهر، وأهله رجال زانهم الله بالوسامة، ونساء زانهن الله بالحسن. وبينما كمال في ذهول، إذا أمامه حورية لو أن الله استغنى عن خلق السموات والأرض بخلقها، لكان ذلك شاهدًا على ربوبيته. وإذ تحقق كمال وجودها، صرخ: «زبيدة» وكان موشكا أن يكمل: «أمي»، لأمر سبق في علم الله انحاش لسانه، وزبيدة تبسمت قائلة: «يا عبد الله، أهلًا بك في فردوس الله».

ما تكتمل المعاني في خاطر زبيدة، حتى يحيط بها قلب كمال، في صمت لا تؤرقه بنت شفة. قالت: «يا عبد الله، تذكر قول الله: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾، وفسرت قائلة: «وحاصل ذلك رد الخلق إلى لحظة واحدة، هي ميلاد جديد من رحم القدرة، بلا أمومة، ولا أبوة، ولا قربى، ولا علة موروثة ولا مكتسبة؛ ميلاد يتحرر به جوهر المخلوق من قيود التحريم، ومن آفتي العجز والنفور. بذلك تصير العبدة إلى أصفى ما يكون معنى الأنثى، والعبد إلى أصفى ما يكون معنى الذكر. عند ذلك تكون حكمة الله في خلقه، التي أراد أن يكون شقّاها الذكورة والأنوثة، وأراد لها أن تكون العشق متاعًا فردوسيًا في جنة الله، التي جعل للمتقين من عباده». سمع كمال حتى تعلم، فلما أن تم له ذلك، أُذِن بأن يخطو أولى خطواته في فسيح الجنان.

لكن النهار تسرب إلى رؤى النائم، فشحبت، رويدًا رويدًا، حتى شفت عن جدران غرفة كمال، وشبابيكها، وزينتها، وتعاليقها. قام من نومه فرحان بما كشف الله له، وفتح عليه. أسرع إلى زبيدة، يطير في الخان مثل فراشة ذهبية جذلانة. أيحمله الجناح، أم الهواء، أم أنفاس قلوب تواقة، محروقة في مجامر البخور؟ والسر يتأوّد في عباءات الحرير، مراوغًا التلاوات والعزائم. والعشق لحظة يخفيها المساء في غلائله. هل قُدِّر لـ«كمال» أن يكون نبي هذه اللحظة وكاهنها في أمة عهد الله إليها بحكمته؟

ما إن مثل كمال أمام مولاته، حتى تطلعت إلى وجهه؛ أنثوي جميل كما لم يكن جمال الأنثى كاملاً وناضرًا. فبقيت عينا زبيدة معلقتين بالملامح الحسان. إنهن اليوم واشيات بخبر يغمض على الفهم، ويعز على الحدس. تفكرت الجارية. إنها خبرت أئمة عصرها من سادة الكلمة والمعرفة في الدنيا قاطبة. ألا يبدون هكذا إذا وقعوا على أعظم قرائحهم، أو أتموا جليل مصنفاتهم؟ كتمت زبيدة هواجسها، وبدأت تتعرى لحمامها؛ تتعرى لـ«كمال»، لا كما تتعرى السيدة للماشطة، أو الجارية للسيد، بل كما تتعرى الأنثى للذكر الذي يجيب عن أسئلة أنوثتها بلا بقية.

تسندت زبيدة ماشية إلى الماء الدافئ، وكمال يسندها، عُرْيُ ساعده على عري خاصرتها. وهناك أسلمت نفسها لسخونة الماء. أغمضت الجارية عينيها على حقيقة خادمها في نسيج لحمها، وهو قائم جنبها، يعنى بها، حتى انتهت. مشت في مناشف دافئة، يتصاعد منها البخار، إلى متكئها. تمددت. رفعت عينيها إلى الوجه الوسيم، حيث اليدان

مشغولتان بالتدليك والتكبيس. سألت زبيدة كمالًا قائلة: «يا كمال، ما نعمت بحمامي كما نعمت به اليوم، أي سر سكت عنه لسانك، وقالته لجلدي ولحمي يداك؟». قال كمال: «ما كتمت عنك سرًّا أبدًا، يا مولاتي. الأمر عندي أن الاجابة تأتي غبّ السؤال» قالت زبيدة: «أما وقد سألت». وعند ذلك اعتدلت جالسة، ورنت منصتة.

قال كمال: «سيدتي، لقد كشفت عن بصيرتي بما علمتِني؛ في ذلك رأيت أن أمتنا على حال من الفضل لا تدانيها فيه أمة أخرى من الأمم. وحاصل ذلك الجهد وراء مثل أعلى، مناطه إعلاء عنصري الرجولة والأنوثة، وإعلاء مثالهم، وتنقيتهما من كل ما يشوبهما ويعكر جوهرهما. هذان هما شقا الحقيقة الإنسانية، واجتماعهما الباه الذي هو معنى المعاني، وحقيقة الحقائق». انبهرت زبيدة مما تسمع، وتنهدت قائلة: «صدقت سيدي، أتم الله فضلك، وأعزك، وكرّمك. إنني سمعت وفهمت». وأكمل كمال قائلا: «وإذ فتح الله عليّ بهذا العلم، فإنني عزمت على أن أسمي الأشياء بأسمائها، وعليه فقد صنفت كتابا سميته: رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه». وإذ ذاك، أخرج كمال من صرّته أوراقًا إلى زبيدة، التي أكبت عليها تقرؤها، فيما هو يواصل كلامه قائلا: «كان ديدني أن أصف الرجولة الحقة، وأعرف ما يعرقل اكتمالها، ويضرّ بها، فأضع لذلك الآداب الصحيحة، وأبيّن مضار السلوكيات الدنيئة، ثم أضع للعلل أدويتها، وللأوجاع الدهانات والطيوب المناسبة. ثم كان عليّ، بعد ذلك، أن أصف الأنوثة الحقة، وأن أعرف ما يشوب جوهرها، وأصف السلوكيات الصحيحة، وأضع لكل علة دواءها، ولكل وجع دهاناته وطيوبه. ثم إنني وصفت لحظة الوصال، محاولاً أن أعزل عنها ما يؤرق التنعم بها. وحمدت، في ذلك، السلوكيات

النبيلة، وذممت السلوكيات الرديئة، ثم قصصت ما وعاه قلبي من حكايات، فحواها وحاصلها وحكمتها المتعة والإمتاع. لقد جهدت جهدي، قاصدًا مقصدي، والخير أردت، وما توفيقي إلا بالله». وعند هذا الحد من كلامه كانت زبيدة قد أتمت قراءة «رجوع الشيخ» في واحد وثلاثين بابًا، وتقدمة، وخاتمة. وضعت القراطيس على حجرها، وعليها مفروشة يدها، وأشرعت عينيها إلى كمال، مؤمّنة، مصدقة، تقول: «سيدي، ألا إنك بلغت، وقلت في أمر الشوق كلمة فصلًا، لا ضلال بعدها أبدًا».

عدت من حجي إلى داري. طرقت بابي، انفتح. طفلاي في مناماتهما، وأمهما في القميص. قفز الطفلان، تعلقا برقبتي، وزبيدة واقفة تنظر، اللون في وجهها، وعيناها ناعستان، وشوق في جسمها يعانق شوقي الآيب من الرحلة. تتقدم، تقبلني، فتقول لي شفتاها عن شوقها. حتى تعب العيال، وناموا، وامرأتي تنظر: «ماذا أحضرت لي معك؟». قلت لها: «جئت، هأنذا، ومعي كتاب رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه». رأيت فرحتها في وسامة وجهها، وفي نضارة لا يستطيع أن يخفيها قميصها. كل هذا لي، وأنا صاحبه. والذي أراه الآن رأيته قبل سنين وسنين، وكانت زبيدة ـ بعد ـ طفلة تلعب في حارتنا. قلت في نفسي: «هذه هي، وهي لي، وأنا الحويط؛ أنا قاعد لها حتى يطيب قطافها، فلا يسقط إلا في حجري!».

على غلاف الكتاب رسم جارية ذات حسن، وكهل ذي فحولة. سألتني زبيدة: «هل يقول الكتاب عنا؟». قلت لها: «يقول عن الحب». قالت: «وهل بقيت عن الحب كلمة لم تقلها لي؟». قلت

لها: «هأنذا يسترفد حبي حبنا القديم، وأجيئك مطيبًا بطيب «فاس»، مبخرًا ببخورها، لأكون حقيقًا بوصالك». قالت: «أنا التي لم تحج إلى المناسك». قلت لها: «إنك ستقرئين». تطلعت إليّ، هذان نهدان رأيتهما قبل أن ينبتا، وقعدت لهما حتى بزغا. حكت لي عن حينذاك، قالت: «أحسست البلوغ في جسمي، فتحيرت. وحينما برز صدري، فرقت. تلفّت. وجدتك متربصًا بي، تنظر إلي. ناديت جسمي أن يتفتح، وينضر، ليكون لك». قلت لها: «عرفت أنه لي، مذ كان الهمس غيبًا، حتى صار النداء بيانًا بليغا».

حينذاك، كتمنا سرنا، والعيون والآذان من حولنا كانت موكولة بالكتمان، تستنطقه السر. تساءلنا أهو الخوف منا أم علينا؟ ولكنه كان الوجل أمام سر مبهم لقوة غامضة، تكسر قصر البذرة، وتطلق سراح النبتة، فتنتشر أشرعة صغيرة، خضراء، على أديم حقل الذرة الأسمر، والناس تنظر في صمت مبتهل. أنا وزبيدة الكبرياء والفرح. كيانان مشحونان يرقصان رقصة قديمة مقدسة، يدوران في أفلاك لا تني تتقاطع، فيطرقع التلامس بكهرباء القلبين.

وكان لا بد أن نقول. لبست مداسي، وعدلت تقية رأسي، وسوّيت طوق ثوبي، ومشيت إلى عمي: «إنني استخرت الله العظيم وعزمت على أن أتخذ زبيدة، بنت عمي، زوجة لي وأمًّا لعيالي». والعم تنحنح وتنهد، وهمهم وهينم، وأسبل جفنيه وكسا وجهه وقارًا وحكمة. صمت طويلا، وأخيرًا قال: «يا بني، أمهلني إلى أجل قريب». قلت في نفسي: «ليكن. دعه يصطنع تريثًا وفتورًا. إنني ابن أخيه؛ قطعة منه، كل عرق ينبض في جسمه يرن في قلبي. وأنا أعرف أنه يتريث، ويريد

لو يعجل، ويصطنع الفتور وهو مهتاج سرورا». وعليه، فإنني بقيت أراقب إجابة عمي واثقًا، عارفا. إنما كانت كلمة حروفها ملامح فرحانة في وجوه أقاربي وأهلي.

رجال خشنون، ونساء كالبقر. وزبيدة كانت لي في أم الكتاب من رحم إلى رحم، كيف حفظت هذا الحسن الأصداف الخشنة؟! نظرت إليها. حدثتني قائلة: «إني فرحانة بجسمي؛ إنه كان لي قبل كل الأشياء، وكلما تأملت وسامته امتلأت به فرحًا، ولك شوقًا. أريد أن أدفن حسني في ديمومتك. أريد أن أموت فيك، مثل حدوتة تسمعها، وتشتاق إلى سماعها من جديد».

قلت لـ«زبيدة»: «اسمعي لي، أقص عليك ما جرى بيني وبين عمك. إنني، وبعد أن ذهبت إليه، جلست قدامه صامتًا أدبا، ناكسًا توقيرا، مغمضًا مهابة. ثم إنني دعوت له، ورجوته. عند ذلك قال لي إنه يستخير الله، ويزوجني زبيدة بنت أخيه. وإذ سمعت الكلمة، أشرعت عيني إلى وجهه؛ رأيت في ندوب السنين على جبينه جمالاً فردوسيًّا. عندئذ، اشتقت إلى نعومتك المخبأة، وإلى ليونتك المخفية، لتصنع فيّ جمالًا يجعل الدنيا حسنة، والعيش نعمة».

وبدأ الفرح. في العصر اجتمع الناس بالجلاليب المغسولة، والعمائم البيضاء؛ اجتماع حاشد لم يتخلف عنه أحد. على قدر جلال الاجتماع شاد الجد الأكبر هذه الشرفة. وسّع وعلّا الحيطان، والأولاد جاءوا، والأحفاد، في الأعراس والمآتم، في الجبين ذى النبالة إن دمعت العين أو ابتسم الثغر. نحن جنس عجيب من الناس، أكثرهم دكنة، أقصرهم قامة، أكثرهم شحوبًا وهزالا، أقلهم جسارة، وأكثرهم صبرًا وثباتًا.

يقولون عنا إننا جئنا من الجنوب الوحشي، الغامض. أما أوراقنا، فإنها تنسبنا إلى أرومة جليلة. نقلّب الأوراق في الليل، ونتسارّ الحكايات، ونمتلئ يقينا، وإذا أذن المؤذن هرعنا إلى مضيفتنا. في البؤس وفي النعمة نحتشد، حتى وإن بقينا صامتين سمع هزيم كبريائنا، كبرياء موزون مقفّى.

ترقبت القلوب المأذون. تطامنت لوقع خطاه من عند داره إلى هنا. وقد جاء، وخلفه الرسول يحمل الكتاب في علبة من صفيح أبيض؛ كتاب محفوظ مصون، كل صفحة من صفحاته فيها خبر رجل وامرأة، وعزم معقود على العمار. قلّب الصحائف رجوعًا، وإنك لقارئ عجبًا، ومستعبر شجنًا. عناء وعناء، حتى جدنا الكبير جاء من الشرق على ناقة سمراء، وخلفه النساء والعيال. موكب رثّ، أنهكه الترحال، وأهلكه الجوع والخوف، وما أدرك ركبهم قاع المنخفض الذي فيه قريتنا، الآن، حتى كان أعجز من أن يواصل سيره. بذلك لبث. وهذه الأرض كانت فلاة تعوي فيها السباع والخنازير البرية، وتسمم هواءها نتانة المستنقعات، ويملأ جوها طنين الحشرات السامة، وتلتف فيها تسدّ مسالكها النباتات والحشائش الشيطانية. والجد هنا لبث. حفر هو ونساؤه وعياله عن الجذور ليقتاتوا. قرءوا العزائم بلهفة وحرد، وأحرقوا الأعشاب المباركة ليحوشوا عن عيالهم العلة والسقم. ولكن الموت ظل لابدًا لهم، متربصًا بهم، قريبًا منهم، ما يفتأ حتى يقفز، فينشب أظفاره في أحد العيال. يظل المحتضر يلهث محمومًا، مختوم الفم بالرغاء، يتلفت حوله مرعوبًا، حتى يموت. يخمش الجد الكبير وجهه بأظافره، يبكي دمًا، لكنه يتجالد. في العصر، يجلس للعزاء. وفي الليل، يأوي إلى امرأته.

كانت امرأة فارعة، قائمة القامة، هائلة الهامة، خشنة اليدين، غليظة الملامح، لكنها ـ فيما يحكون ـ كانت فيها وسامة تدخرها للجد إذا آب إليها. وكانت ـ فيما يحكون ـ تخفي تحت ثيابها وهزالها ليونة ونعومة. تتعرى في الليل لرجلها. تأخذه إليها. تهصره إلى حرمانها. تمرغ فيه ألمها، وعناءها، وجوعها، تصرخ في أذنيه قهرها. تعضه، وتخمشه، تنتصف منه لمذلتها. تمزقه مفتشة فيه عما ينقص اكتمالها، تردد الفلاة رهزهما وشخيرهما في الليل. فإذا ما كان الصبح، كان الجد قد تعزى عن مصابه، فخرج إلى النهار مرهقًا حبورًا، ومشرقًا أملًا، وممتلئًا رغبة في الفعل.

حفر الجد، ونساؤه، وعياله، بأظافرهم، يريدون أن ينتزعوا من عناصر البوار والتوحش في الفلاة أرضا. وهنا، تحالفت عليهم الآفة، وندرة الماء، وتقلّب الأنواء. يعود الجد من عمل اليوم محطمًا تعبا، مخبوطًا فزعا. تأخذه امرأته إليها، أم هزلانه، ثرة الثديين، لينة البطن، ناعمة الفخذين. تحيط به. تدفئه وتنعمه. تغلق عليه ظلمتها المبلولة. تحلب لبنها في عينيه، وريقها في جراحه، وسوائلها في قروح روحه. تهدهده وتهننه. تناغيه، تصل الماضي بالحاضر فيه. في الليل يسمع شوقه وحنانها زعيقًا ترتج منه الفلاة. فإذا ما كان الصبح، كان الجد قد تعزّى، يخرج إلى النهار، مرهقًا حبورًا، ومشرقًا أملًا، وممتلئًا رغبة في الفعل.

والجد ـ في نهاية الأمر ـ أصلح حقلًا حسنًا، وزرع قمحًا حصده، وكوّم المحصول كومة وقف جنبها فرحان، وحوله نساؤه وعياله. وحين رفع وجهه لله شكرًا، أبصر الأفق وقد سدَّهُ عمال الملتزم على جياد كألسنة اللهب. مزقوا ظهر الجد بالسياط. عبثوا قمحه في زكائبهم.

ثم كبسوا داره؛ قلبوا أشياءه، وكسروا آنيته، وسلبوه نقوده المدخرة، ثم قفلوا راجعين. بكى الجد قهرًا لا يوصف، ممزق الظهر والصدر والوجه واليدين. مضى بجروحه إلى امرأته، قبلت يديه، الأب الكبير الدامي. قادته إلى فراشها. وثرت له ودادها. داوت جراحه بدموعها، وضمدتها برموشها. حدثته بحبها. في صوتها رنة صأي فروج صغير، وفي جلدها نعومة الزغب. لبدت المرأة في حضن رجلها. أيقظت فيه قدرة على الحب والمنح. فرح بها قلبه، ورضيت بها نفسه. ضم زوجته إلى صدره، تكمل نقصه، وتنفي صغاره. يسمع الليل آهاته وولهها ترتج منها الفلاة. وفي الصبح يكون الجد قد برئت جراحه. يخرج إلى النهار مرهقًا حبورًا ومشرقًا أمله، وممتلئًا رغبة في الفعل.

قالت زبيدة: «إنني أغار من جدتي». قلت: «أنت في كتابها المعنى». قالت: «وماذا فيَّ من الحسن؟». قلت: «تسعينني حتى ما تساورني خارجك رغبة». قالت: «ولذلك أحببتني؟». قلت: «إنني شغفت بك». قالت: «وما شغفك؟». قلت: «أترحل فيك». قالت: «وراء الشوق؟». قلت: «وراء العماء». قالت: «وأنا النعمة لبطنك، وصدرك، ويديك، وشفتيك؟». قلت: «اشتبه عليّ الاثنان». قالت: «أحبني لينفصل جوهري عن جوهرك». قلت: «أنت عالم لا تتأجج له في الوجدان عاطفة واحدة» قالت: «وما شأنك؟». قلت: «أترحل فيك». قالت: «احك لي، إذن».

إن جدنا الكبير زرع في رحم امرأته، كل مرة، طفلًا. وجدَّتنا الكبيرة ضربت في عرصات الدار هائلة البطن بالحبل، حاملة على كتفها رضيعها، ومتعلقة في ذيلها صغارها. نحن جنس عجيب من

الناس عشنا على حافة الموت آمادا، ولم نمت، طالت سنون بؤسنا ونحن بعد قادرون على الحب والخلف.

يوم كتب كتابنا، جلس ناسنا في مضيفتنا ناكسين. المأذون، في الصدر، حمد الله وأثنى عليه، وروى عن رسول الله أنه قال: «تناكحوا تناسلوا، فإنني مباه بكم الأمم يوم القيامة». سمعت ذلك. وماد قلبي. أحببت النبي، ذلك الأب الكبير، مشى قدامنا، دائمًا، وجمعنا وراءه، عبر زماننا، عبر سنين المجد وسنين الهزيمة، عبر سنين الجوع وسنين الشبع، موكبنا لا آخر له، والنبي بيرقنا، ذاهب بنا إلى آخر الوقت وهو إذن واقف قدام الله، ومتحدث زعيقا: «يا رب، هأنذا، وها هي أمتي، خير أمة أخرجت للناس». جاوب الزعيق وجيب قلبي. يا سعدي! النبي فرحان بزواجي!

حدثتني زبيدة قائلة: «يوم كتب كتابي، رأيت دمي، ورأيت وجعي؛ فرحت بالجرح وبالألم. إنهما كانا فيّ منذ الأزل، خالطا نطفتي منذ كنت شوقًا دافئًا، رطبًا حنَّانًا إليك». قلت لها: «اسمعي أحك لك ما كان من أمر الجدعان. إنهم كانوا هناك جميعًا. أحاطوا بي؛ هم الإخوة وأبناء الأعمام. معهم، تحت غرف أعراسهم، اجتمعنا ـ دائمًا ـ ليلة دخلة العريس، تحت شباكه، ندقّ الكفوف، ونضرب الأرض بكعوب الأقدام، ونرج الليل ببحّات الصدور، حتى سمعنا الصرخة وصدق الوعد، وفتح الشباك، وطار إلينا المنديل أبيض ناصعًا، مزوقًا ببقع الدم الحمراء». ثم إنني قلت: «يا زبيدة. منديلك عمامتي».

أخذت زبيدة الكتاب في يديها. مسحته، وتأملت غلافه. قلّبت صفحاته، ونظرت في كلماته، ثم مالت عليّ قائلة: «اقرأ لي». سألت:

«ماذا أقرأ؟». قالت: «الباب السابع والعشرين في المحادثة، والقبل، والمزاح». قلت لها: «حبًّا وكرامة». ثم إنني قرأت: «عن الهندي أنه قال: الجماع بلا مؤانسة من الجفاء، والشاهد على صحة قولنا أن الذين تكلموا في طبائع الحيوان زعموا أن الحمام قبل سفاده يفرح، ويمرح، ويضرب بجناحيه، ويرفع صدره، فيجب على الرجل أن يتجمل بالفضيلة التي خصه الله بها، وزينه بكمالها، فإن المحادثة والمزاح يزيلان الحشمة، ويبسطان بشرة الوجه؛ ويوطئان الأنثى». قالت زبيدة: «إنني موطأة لك»، زعقت فيها من قلب فرحان: «وأنا الآيب من الحج مبرورًا، مطيبًا، مدهونًا بدهاناتنا القديمة».

فإذا بي أسمع نقرًا على باب غرفتي. سبقني الشوق إلى زبيدة، وأنا ـ بعد ـ في فاس، وثمة من يذكرني بوعدنا في جامع القرويين. مشيت في زقاق بوطويل، دخلت من باب الوفا. انضممت إلى حلقة الصحاب، جنب المنبر، قبالة المحراب، وفوقنا القبة. قال متحدث جماعتنا، بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أما بعد، فإنه كانت في القلوب بقية من عزم، وفي العقول بقية من فطنة أرادت لحجنا أن يتم. وهأنتم جئتم ملتمسين عبر المدينة...». لكنني ألهاني عن الخطبة ما رأيت.

رأيت تطل علينا فاطمة بنت محمد الفهري، وعلى يمينها الأمير يحيى بن إدريس، وعلى يمينه القاضي الكناني، وعلى يمينه السلطان مولاي سليمان، وعلى يمينه مولاي عبد الرحمن؛ وعلى يسار فاطمة الأمير علي بن يوسف، وعلى يساره السلطان أبو عنان فارس، وعلى يساره السلطان أحمد المنصور. وخلف هؤلاء خلق حاشد، حول أعمدة

للمسجد، تمتد بلا نهاية في ظلالها؛ أمراء، وعلماء، وجند، وتجار، وصناع، وبناءون، وزراع، وما شاء الله من شيء، الكل يرقبنا وينصت لنا.

ومتحدث جماعتنا أكمل: «... الآن عودوا بها في قلوبكم، وعقولكم، من علم». أنصت، وما زالت رؤياي في قلبي. فإذا ما انتهى المتحدث، تكلم كل واحد من الصحاب في دوره، قال: «إنني أرجع وأنا أقل ما أكون خوفًا من الموت». فلما جاء دوري، قلت: «نعم، أنا أيضًا كذلك».

في الحزن

لما طارت بي رجوعًا إلى الوطن الطائرة، تفكرت في أمرها. وفي ذلك لم أنشغل باستكناه أمرها، ولم أطلب تحصيل علم بها. الأمر بدأ عندي من حقيقة أن هذا المركب العجيب عبارة عن كيان جسيم، ثقيل، من الحديد، معلق في الهواء. وعليه، فاحتمال سقوطه وارد، لا محالة. وأنا باقٍ في انتظار هذا الاحتمال، لا يصرفني عنه إلى غيره شيء، ولا يدفع خوفي أن أذكِّر نفسي بما حفظته من قوانين محددة للعلاقة بين سرعة الجسم المنطلق في الغلاف الجوي، وبين نفوذ قوة جذب الأرض عليه. إن المسافة الممتدة بين ما يصدقه العقل وما يرتعب منه القلب شاسعة حتى لا يمكن عبورها.

جلست في مقعدي. تعلق بصري على الفور باللوح المثبت فوق الباب المستور، المؤدي إلى مقصورة المضيفات، وإلى مقعد الملاحين. على هذا اللوح ظهرت حروف حبرها الضوء الأحمر، لها قدرة على أن تكون فتكون ـ توًّا ـ من نظام الأعصاب والعضل، في مكان الإرادة

والتوجيه. وبذلك، فإنه لا يتحصل من مطالعتها علم بشيء، إنما هي أوامر ونواهٍ تبرق فتستجيب لها حركات الأعضاء، فور ظهورها. ولقد جهدت أن أستجمع في نفسي القدرة على المخالفة، ولم أجد العزم ولا الجراءة، إنما ارتجفت أعضائي بما وصف لها من الأفعال، وكان أنني وثقت نفسي بالحزام إلى مقعدي.

وهكذا، كان عليّ أن أواجه خوفي مربوطًا عاجزًا عن مواجهة ما يجد من أحوال بما يناسبه من أفعال. وملأني هذا بالأوهام عن الجزء من الطائرة الكائن خلف الباب المستور، وهجست لي الهواجس عنه؛ حيث قد ظهر لي، في همودي وقلة حيلتي، أن ثمة صلة بين ما يجري هناك وبين ما يبرق على اللوح من رموز. توهمت مؤامرات شريرة، حتى إنه لما انطفأ اللوح، بقيت عيناي معلقتين به، أرقب متوجسًا، ولا أجسر على تحرير نفسي من الحزام الذي يشدّني إلى مقعدي.

فلما خرجت المضيفات، يدفعن أمامهن عربات عليها الطعام والشراب، فَرِقْتُ من المفاجأة، ولم يكن في أسارير وجه واحدة منهن ود يزيل خوفي. إنهن - حيث كنّ - يتزينّ على طراز واحد في قص الشعر، وطلاء الشفتين، وكحل العينين. وهن يكشرن عن أسنانهن، فيما يشبه الابتسام، في ذات المناسبات، التي أعددن لها ذات الكلمات. وهن يضعن أمام المسافرين ذات الأطعمة، في ذات اللفائف، في ذات الوجبات. إن هذه سنة غريبة على البشر، الذين فطروا على اختلاف الأمزجة وأنماط السلوك. لا شيء يبدد وهمي عن هؤلاء النسوة، وأنهن جزء من نظام آلي يحكم الأشياء جميعها. بذلك، نمت بيني وبينهن غربة، فانكمشت على نفسي، وعفت ما قدمنه لي من طعام.

فإذا ما اختفين مرة أخرى، بذات النظام، استحكم وهمي بأن وراء الباب المستور تكون المؤامرة والشر. وإذ كانت أذناي قد صمتا بطنين، وصوت كعويل الريح، وإذ كنت ما زلت مربوطًا إلى مقعدي، فإنني أصبحت فريسة للهواجس بلا خلاص. وتلك حال مأتاها أن ظواهر العصر، جميعها، فادحة الوقع على عقلي وقلبي، تبهظ جهاز أعصابي ونظام خلايا جسمي، وتوشك أن تكون موجهة ضدي، وأمامها يقف فهمي للإنسان وللحكمة من الكون مندحرًا، عاجزًا عن أن يصنع شيئًا. لا محالة. لا دافع للثقل الجاثم فوق سمعي، ولا للصوت الشبيه بعويل الريح، ولا نهاية لتردد نظري بين اللوح المكهرب والباب المستور.

نظرت من الطاقة جنبي. السحب تحجب عني الأرض، لكنني أعرف وطني؛ في قلبي المدائن والقرى، والشوارع والطرقات، الحارات والباحات، والناس. هل تنبو بي الأماكن، وينكرني الصحاب، أنا الذي حججت وعدت مطهرًا مبرورًا؟ كيف أحج عنك يا وطني لتفرح برجوعي، أنا الذي حفظ الود ورعى العهود؟

شملت الركاب حالة من الإشفاق والالتياع. تقطعت بينهم الأسباب، من حديث، أو ابتسام، أو مؤاكلة أو تدخين. اشرأبوا جميعهم إلى اللوح المكهرب، لا تتحول عيونهم عنه، لا تفتر مراقبتهم له. خرجت المضيفات مسرعات من وراء الستارة، ورحن وجئن ملهوجات بين مقاعد الركاب. وفي حالهن هذا، كان طلاء الوجوه قد شحب عن حقيقتها، جهمة، عدائية، وكانت الكلمات قد أصبحت باترة ومفارقة. ثم إن المضيفات غبن نهائيًا خلف الباب المستور، ومن ثقوب في السقف تكلم صوت معدني خافه الجميع، لكن أحدًا لم يفهمه ولم

يعن بأن يفهمه. وأعقب ذلك أن صوت عويل الريح في جوف مركبنا تغيرت نغمته، مما أوحى بتغير في قصد المركب ومساره.

أحسست بتقلب الكيان الحديدي الثقيل، الجسيم، وقرقعة أعضائه ومفاصله. تصورته يهبط متسلقًا جنازير وسلاسل من الصلب، معلقة بين السماء والأرض، يقبض عليها بمخالب من فولاذ، وينقل عليها أقدامه حذرًا، متوجسًا، ولكنه سيئ المزاج، غاضب، حقود، يسمع نبض قلبه وزفراته الكظيمة.

من النافذة كانت السحب ترى وهي تطير راجعة، مسرعة مذعورة. أغمضت عيني حتى هبطنا على الأرض.

حطت الطائرة وبطلت ماكيناتها، وقمت مع الناس لننزل، مررنا بالمضيفات واقفات لنا على الباب. ابتسمن لنا، لكنني لم آمن لهن. حمدت الله على أنني نجوت وظننت أنهن يحفظن عليّ نجاتي. سرت مع الركاب طريقنا من الطائرة حتى المبنى، نحمل أمتعتنا في أيدينا، ونسير مرهقين، مكسورين، نشبه جماعة من الأسرى. تكسرت السيوف، وتقصفت الرماح، وأسرجت للأعداء الخيول السوابق، والجيش اندحر. كان يحلم بالدنيا وقد امتلأت سلامًا، وظلًا، وتراتيل. لكن الجنود أسلموا للذل؛ يسامون الوقت من الصبح إلى الليل في غرف كئيبة، في مدائن غريبة، قبيحة الأماكن والمسالك، وجثث الأحلام ممزقة على الأسلاك الشائكة، وحرائرنا يطللن علينا من شرفة المطار حاسرات، هالعات، ملوحات بالأيدي والمناديل. من بينهن عرفت زبيدة، ومعها الطفلان.

وصلت إلى المبنى. دخلت. بذلك غاب عن عيني وجه زبيدة والطفلين، وبقي في ذاكرتي وقلبي وهنا أحاط بي الشرط والحفظة،

والوكلاء، والعمال، والبصاصون، والساعون بالوشاية، والمسارعون، بالفرى والشين. أحكموا حلقتهم حولي. أعطوني أوراقًا قلت فيها الحق عن نفسي وعن حالتي. ثم إنني رفعت إليهم وجهًا طيبًا، راجيًا، لكنهم - رغم ذلك - نحوا رجائي بوجوه مصممة. بدأت أتقلق في مكاني، فما كان منهم إلا أن نظروا إلي غاضبين محذرين.

تقاربت رءوسهم كثيرًا. تحدثوا طويلاً، ثم ابتعدوا. ثم إن بعضًا منهم مشى في اتجاهات متفرقة، وغاب قليلاً، ثم عاد. ثم اقتربت الرءوس مرة أخرى. ثم اعتدلت القامات، واشرأبت الهامات، وبانت على الوجوه تعبيرات وحشية. ثم إن اثنين انقضا عليَّ، أمسكا بذراعي، والدائرة حولي صارت هلالا. ساروا بي إلى طاولة عليها حقيبتي مبقورة البطن، مبعثرة المحتويات. نقلوا بصرهم بين كومة كتبي وبيني، وفي وجوههم الكراهية، والاشمئزاز، والرغبة في الافتراس.

ثم إنهم، من وسط كومة الكتب، تناول أحدهم كتاب «رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه». رسم الجارية على غلاف الكتاب يشبه زبيدة، والكهل يشبهني، يدوران من يد إلى يد في الدائرة المحكمة حولي، وأنا أدور متلفتًا ومشفقًا، حتى استقر الكتاب في يد أحدهم. طواه أسطوانة، وقبض عليه، وأشار إلى اثنين مشيا بي خلفه. لقد مشيت هكذا، كثيرًا، يحرسني الأعوان. ومرات كثيرة ذهبوا بي إلى حيث أسأل. صدى الخطوة يرن على الجدران الأسمنتية، والنوافذ الزجاجية، والبلاط اللامع، شديد الانتظام والآلية، عنيف الإيقاع، يعمل في نفسي بسرعة ونفاذ، حتى إنني - تدريجيًا - انتظمت خطوتي، وعنف خبط كعبي. حاولت أن أقف هذا، وأن أمشي مشيتي التي فطر

الله عضلي وعصبي لها، لكن ذلك استعصى عليّ. آلمني أن أترقص - هكذا - على غير ما أحب، وعلى غير ما يليق بي، وقد كرم الله بني آدم. دعوت ربي ألا يسلط علينا، بذنوبنا، من لا يخافه ولا يرحمنا.

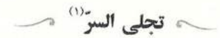
حتى إذا ما وصلنا، كنت من الخوف والعجز في غاية. سمح لي الرجل بالجلوس. وعلى المكتب، أمامه تقرير قرأه بإمعان. تأمل الكتاب طويلًا، وتصنع أن حسن الجارية ووسامة الكهل لا يقعان من نفسه موقع الإعجاب. رثيت لجهامته، حيث ظننت أنها ترهقه مشقة وعنتا. أصغيت له ودودًا، راغبًا في أن أجد مسلكًا إلى حقيقة وصدق نفسه. سألني الرجل: «سيدي، أين كنت؟». تعجبت أنه يسأل عما يعرف، وظننت أنه لا يريد خبرًا بقدر ما يرغب في قرار. أجبته: «كنت في فاس». قلت ذلك مستسلما، وهو واصل ملحا: «بأي قصد؟». قلت: «أردت أن أؤدي مناسك حجي». سألني: «أي الإيمان هذا؟». قلت: «إيماني بنفسي». سألني: «إذن، فيم ارتحالك في الأرض؟». أجبت: «وراء حقيقتي». تعجب: «وكنت أظنها لصيقة بك». شرحت: «لكني كمن يأخذ الكتابة إلى النور ليقرأها». سألني: «وماذا قرأت؟». أجبته: «قرأت سطور كبريائي». قال: «ذلك هو الانصياع للنظام؟». خالفت: «بل هذا خيانة الحقيقة». قال: «ذلك التمرد، إذن!». قلت: «بل الشوق للحقيقة». قال: «انظر حولك، إنها هنا في نظامنا وقيمنا، ومثلنا العليا». قلت: «إنني أنظر حولي، فأجد أمتنا وقد خسرت أولاها وآخرتها، وضيعت دينها. أراها انهمكت تطلي وجهها بالألوان، تعوج لسانها بالرطانات، وتقمط نفسها بأنواع الثياب، وتترقص في ألوان الأزياء، ذاهلة عن نفسها، مفتونة عن حقيقتها. بئست، وافتقرت، وتوسخت قراها، ورثّت وتداعت مدنها، وعرت شوارعها من الظل،

وانفضحت للشمس، وسادها الضجيج، والعدوان، والإجرام، والفضيحة، والقبح. ومساكننا ضاقت بأهلها، وعذبتهم بالكآبة، والجلافة، وفقدان الطابع. ومدارسنا غابت عنها حكمتنا، وهانت فيها كتبنا، والمؤدبون والمتأدبون تولّهوا بالمناصب والمكاسب، وتوسلوا لها بالغريب، والطريف، والشائق، والجديد. ومساجدنا زلزلت جدرانها مكبرات الصوت الكهربائية، فضاع الورع، والجلال، والترتيل. وفي ذلك، فإن ناسنا أصبحوا فإذا هم مخبوطون، سقطت عنهم موهبة النظر والتكلم، وفترت همتهم عن النشاط الصالح والمفيد، وحرموا نعمة القدرة على الحب، والقدرة على القراءة. وبذلك، سلط الله عليهم رؤساء فجارًا، يخربون مؤسساتهم، ويعطلون مصالحهم وأشغالهم، ويسرقونهم، ويسومونهم العذاب. تلك هي حالنا. وإن نفرًا منا لمفارقون مهاجرون. وهم مترحلون رجوعًا عما قطع من الطريق في ضلال. هؤلاء هم محبو الحقيقة. الحاجون إلى المناسك، المتطهرون، المتطيبون، المتولهون بالحب، المشغوفون بالقراءة».

وإذا كنت قد قلت هذا للرجل، فإنني أدركت مسلكًا إلى حقيقته، وفي ذلك أخطأت صدق نفسه، فإن من الناس ناسًا تفزعهم حقائق ذواتهم فزع الشيطان من أذان الفجر. الرجل اسود وجهه، واكفهر جبينه، وتدورت عيناه، وارتعشت شفتاه، وصرخ بي: «لقد أتلفت الكتب دماغك». بقيت أمام غضبته صبورًا، وديعًا، وحدثته رفيقًا: «نحن أمة خرجت من بين دفتي كتاب، وتاريخها كله أحبت الكتب وكرمتها». وإذ سمع هذا ثار الرجل، وفار، ومار. رفع كتاب «رجوع الشيخ» في يده، وخبط به مكتبه مطرقعًا، وهو يقول: «أتسمي هذا كتابًا؟». قلت: «إنه واحد، لا محالة». صرخ: «كتاب رديء». سألته:

«هل قرأته؟». أجابني: «قرأت عنوانه في قائمة الكتب الممنوعة». نصحته رفيقًا به: «إنك تخطئ إذا حكمت على كتاب قبل أن تحسن قراءته». قال متعاليا: «إن ذلك يفتح مجتمعنا لأفكار خطرة على نظامنا منافية لمثلنا العليا». تنهدت وأنا أقول: «كم نحن محتاجون لذلك!». خبط على مكتبه بقبضته: «أتقر، إذن، بمخالفتك؟!». قلت: «نعم!». أصدر الرجل حكمه النهائي: «سنصادر الكتاب، ونضعك تحت المراقبة». أخذني الأتباع بعيدًا.

ألقوا بي أمام الباب ذليلًا، مهانًا، وإلى جواري حقيبتي مفتوحة على اضطراب محتوياتها. وزبيدة أقبلت عليّ ساقطة النصيف، مشعثة الشعر، سائلة الدمع، متقرحة العينين، ملتهبة الخدود، وفي يديها طفلانا. وإذ رأيتها، بكيت، فنشجت، وولولت. قلت: «سرقوا كتابي». ألقت زبيدة نفسها عليّ تضمني إليها، وتضع سخونة خدها على سخونة خدي، وبلولة دمعها على بلولة دمعي، والطفلان ينظران، وهي تقول: «لا ضير يا كمال! إن شوقك للقراءة بقى عزيز المنال». قلت لها: «لكنني كنت أريد أن أرتل لك من الكتاب ترتيلًا إذا ما جمعنا فراشنا». قالت: «هناك أضمك، فأجد كتبك التي قرأت، وتلك التي لم تقرأها بعد». صحت بها غاضبًا، ساخطًا، قائلًا: «تنزهت الكتب عن أن تختلط بحقيقتي». تنهدت زبيدة، وقالت: «آه يا حبيبي، ما أقواك في ذلك وهزيمتك!». قلت: «كنت أريد أن أقرأ من الكتاب لك في الليل». قالت هامسة، مواسية مغرية: «إنه ـ بعد ـ هناك، رجوع الشيخ، وشوقك للقراءة وشوقك إلي، وما زال في العمر بقية». سألتها ملهوفًا، قائلًا: «هل تصدقين بي؟». قالت مؤكدة: «أصدق كما صدقت الجدة الكبرى بجدنا الكبير، وهكذا بقينا». في ذلك، كنت أرى في عيني الطفلين الرثاء لي.



تجلى السرّ[1]

(١) فصل من رواية «كفر سيدي سليم» التي خطط لها الكاتب أن تتألف من خمسة عشر فصلا، ومات قبل أن يتمها.

«ومن كراماته أن الحق إذا تجلى له يذوب، حتى يصير بقعة ماء، ثم تدركه الرحمة فيجمد شيئًا فشيئًا، حتى يُرَد إلى بدنه المعتاد».

«من كتابة على كساء ضريح الشيخ»

دور الكفر تتداخل وتتضام، قلقة متململة، ساعية متساندة، حتى لتكاد أعتاب الأبواب تلامس حواف الباحة المحيطة بمقام سيدي سليم. الشيخ رابض في الوسط، عليه قبة مدهوكة بالطين، مغطاة بزرق الحمام، مظللة بجريد نخلات من السماني وبنت عيش تُحِطن بالمقام رشيقات، مائلات الرءوس مع هبات الهواء. ثم يحتدم الظهر، وتستحكم الزمتة، وتكف الريح، فيسكن الجريد، والشيخ ناعس. مغمض كأب هرم ممتلئ حكمة، أو ثور عجوز مستسلم للذبابات المجتمعات على عينيه.

يسرب الناس دائرين بالمقام. تكون الأقدام حافية أو في مداسات خلقة، لكنها أبدًا معروقة، سوداء بالوساخة. والأحشاء وجْلانة، منصتة لتردد أنفاس ذلك الذي يسكن الضريح. ألفت القلوب ذلك الوجل، ما يدرى أحد أولدت به أم ولد بها. ما يدري أحد أهو ورع تحطّه في الأرواح جسامة القبة منسوبة إلى قماءة الدور، في نظام عمارة من الشموخ والتصاغر، من الفراغ والكتلة، من الأمل وحبوط الأمل، من

المسرة والقهر. نظام عمارة أريد به أن يكون تبتلاً أبديًّا، وصلاة حافظة للكيانات الهشة أن يجرفها الزمن فتضيع.

لا أحد يدري، ولم يجتهد أحد ليتحقق. الحاصل أن الواحد من أهل الكفر إن فتح شباكه امتلأ فراغ الشباك بجرم القبة، وإن فتح الواحد منهم بابه انتصب قدامه كيان المقام الراسخ الجسيم، وإن أراد أحدهم جاره، فالسكة تمر على الشيخ في الرواح وفي الأوْبة. هو في كل مرة هناك، يلتفت إليه الواحد والظهرية صاهدة على دماغه، تكون تحية خرساء يموت جنينها في رحم الخاطر قبل أن تولد على اللسان.

يمشون إلى نخلة المصيلحي التي تتوسط مثلثا في الباحة، رأسه تشير إلى باب المقام، وقاعدته ممتدة من دكان محمد أفندي حتى باب دار المصيلحي، تحت هذه النخلة يكون مجلس أهل الكفر في الأوقات، وفي الأوقات التي بين الأوقات، حلقة للرجال مستندة على جذع النخلة، ثم مترحرحة منفرطة في انبعاج ناحية باب المقام. وكثيرًا ما يكون لهذه الحلقة هامش من العيال هجس في أجسادهم السمراء الناشفة هاجس الحيرة، فملأ قلوبهم بتساؤلات غامضة، فتسللوا في صمت، قعدوا منصتين، لعل في خزائن معارف الآباء شفاءً لحيرة قلوب الأبناء.

على مرمى حصوة من مجلس الرجال تجتمع النساء. اختلاط لا ينتظم في دائرة ولا يلم شتاته رصين الكلام. زعيق وضحك ولهوجة، وانشغال بأمر أو بآخر من أمور المعاش، مثل طحين الملح أو الحب على الرصاص، أو تقليم قرون البامية، أو قطف أوراق الملوخية من عيدانها. لا تطيق الواحدة منهن أن تعكف على شأنها في قعر دارها وحيدة، تأتي بشغلها معها، وتنضم إلى مجلس النساء. تساعد من تساعد بيدها أو

برأيها. يخف ثقل الهم إذا حملته من كل الأطراف الأيدي. بذلك يكون العمل سلوى ولا يكون غرامًا.

كذلك يأتي الرجل بشغله إلى مجلس الرجال. قد يكون ذلك حبلاً يفتله، أو برذعة يصلح من شأنها، أو جزة صوف يغزلها، أو «تقية» رأس يتمها بإبرته شغلاً. وقد يظن أن كلًّا من مجلس الرجال ومجلس النساء عاكف على نفسه مشغول بذاته. لكن الحاصل أن خيوط وصال تربط المجلسين. مجرى نهر الكلام ماش من هذا إلى ذاك، ومن ذاك إلى هذا. وهو مستريح في كل ناحية على إنصات مرهف، أو مصطدم برفض زاعق. ثم يكون أن تحمى الكلمات إن غضبًا وإن مزاحًا، يكون زعيق غاضب، أو ضحك مكركر مسرور.

لكن ليس بما يقولون، ولا بما يهزلون أو يجدون، وليس بهيئاتهم. إنما كل واحد منهم بما قيد قبالة اسمه من دين في دفتر ذاكرة محمد أفندي الذي لا يضل ولا ينسى. يرمقونه جالسًا على مصطبة مفروشة بالحصير قدام باب دكانه. عظيم الرأس، غليظ الملامح، ضيق الكتفين، وثيق الذراعين. في يده كتاب لا يغيره أبدًا، ولا يقلب صفحاته ولا يمل من التحديق فيه. يطل على مجلس الناس يعرفون أنه لا تفوته كلمة مما يقولون. يرقب مبتسمًا، ولا يعلق على ما يدور إلا نادرًا، وبجمل قصيرة.

يذهبون إليه كل آن. يجلس الواحد منهم مؤدبًا على طرف الحصير، ثم يطلب ما زنته قرش مثقوب من دخان المضغ، وفي ذلك يبقى ناكسًا منصتا إلى محمد أفندي ينبهه إلى دينه القديم ويحذره من المماطلة في الدفع. في النهاية يقوم يحضر المطلوب، والزبون يشكر، ويدعو، ويعد

بسرعة السداد. وتذهب أيضًا كل آن واحدة منهن تريد عيار ملح، أو ثمنة من الحلبة، أو مكيال زيت. وفي كل مرة تكون العظة بالتحذير من الإسراف، وذكر جسامة الدين، والإشارة إلى ضرورة الوفاء. وفي كل مرة يقوم محمد أفندي من على الحصير ليقضي الطلب، والمرأة تتأمل الكعبين اللامعتين في المداس النظيف.

ينشغل أهل الكفر بالسؤال المحير: أهو سر أصحاب الدكاكين يحرس بضاعتهم؟ أم البضاعة تملأ خزنتها جسارة وحذقًا، ورصانة ومكرًا؟ ذلك أن محمد أفندي ليس كالناس. لا يدري الواحد منهم أين ولا كيف! لكن حجم المقام لا يلقى على عيني الشاب ظلًّا. ولم ير أحد عينيه تمتلئان وَرَعًا. جسور تبقى المسافة بينه وبين الشيخ خاوية يبابًا. ثم يلتفت ملولاً يسلم نفسه لطلاسم الحروف في كتابه. يمضي عنه الزبون بحاجته، يحس بعينيه في ظهره! الطمأنينة القريرة بعد الصفقة ـ ربما ـ يخالط مادتها القلق من إرجاء السداد. قلق يغير القلب والروح. يضحك الزبون في نفسه. صاحب الدكان رجل ينبغي أن تكون جبلته الصبر، ومغالبة القلق حتى يكون سداد يفضي إلى دين في دورة مملة.

مجلس الرجال في الجهة الغربية القبلية من المقام هو قلب الحياة في هذا الكفر. فإذا ما خلَّى الواحد جمع الناس خلفه مارًّا بدار «صبر» في اتجاه حارة الزعايرة، فإنه سيجد أن الحياة تخبو مع كل خطوة، ويخبو من القلب الائتناس بالناس، وتكبر فيه الوحشة. عندئذ يكون بإزاء صينية الحلوى. إليها يجلس الأزعر تحت نخلته السمانية قدام باب داره، وعن يمينه وشماله امرأته فضة وابنته حياة.

جماعة صامتون لا يطرفون. على الصينية الكبيرة من الصاج الصدئ

تحتضر ألوان الحلوى رويدًا رويدًا من غزو التراب. ورغم أن الذبابات تتعارك وتطن بقوة، وهي تنهش في القطع الكابية اللون، وتمسح أفواهها وعيونها بأيديها نهمًا وشراهة، ورغم أن نحلات وزنانير حمراء وصفراء تشارك ملحمة النهش مستمتعة ـ إلا أن كل ذلك لا يصل إلى بعث الحياة في موات مشهد الصينية الصدئة المرصوصة عليها قطع الحلوى المتربة. والأزعر هو صاحب هذا المأتم الصموت. ينظر أمامه دون أن تقع عيناه على شيء. متورم الوجه، غليظ الشفتين، مربوط الرأس بعصابة وسخة.

فهو رجل يعذبه الصداع، لكنه لا يسأل في وجيعته أحدًا، فقط يستشير علمه القليل، وعليه فهو لا يتداوى بشيء إلا بشدّ هذه العصابة الوسخة على رأسه. فإذا اشتد عليه الوجع نشد ورق الخروع، أو قشور الليمون ألصقها على صدغيه تحت العصابة. وامرأته تبدو محتارة، وإن لم تعرض لها مشكلة، مرتبكة، وإن لم يسألها أحد، عاجزة عن أي اختيار إلا أن تكون مثل زوجها. وإذن فهي مصدوعة متورمة الوجه والشفتين، مربوطة الرأس بعصابة وسخة، تحتها على الصدغين ما يبقيه الزوج من أوراق الخروع أو قشور الليمون.

والواحد يسأل نفسه عن الذي يجمع الابنة حياة بهذين الوالدين النكدين، وفي ذلك يقترب منها ليجد في وجهها حسنًا، وفي عينيها دَعَجًا، وعلى خديها نعومة مخملية، وليجدها ناحلة ينهد ثدياها تحت قماش ثوبها الرقيق الخلق. ما الذي يجمعها بهذين الوالدين هذه الصغيرة النضرة؟ لا شيء، ربما لأن صمتها يسع صمتهما، فيكون عليها سلام مرسوم بخطوط يديها الصغيرتين النائمتين في حجرها.

لا تخطئ العين شذوذ مشهد الصينية بالنظر إلى مجلس محمد أفندي أمام الدكان، ولا ذلك التوتر في الخط الموهوم الواصل بين مجلس الناس تحت نخلة المصيلحي، ومجلس جماعة الأزعر، رغم موات واحد وانغلاقه على ذاته، وصخب الآخر وانفتاحه على ما حوله بيقظة متحفزة. التوتر باق هناك. فجأة يُسمع صراخ امرأة. يشتعل الخطّ المتوتر هذا. تتوجه عيون الرجال والنساء ناحية صينية الأزعر باحثة مفتشة، متوجسة مرتابة، متسائلة متهمة.

ابن أبي مدرة يقذف في فمه بقطعة حلوى، وأمه وراءه تلاحقه وتصرخ، تشتمه، وتشتم الأزعر وصينيته، وتنهي إلى الناس كوزًا من الذرة سرقه ابنها في غفلة منها، واشترى به حلاوة. الولد يفر بشفتين حمراوين، وفم يمضغ متلذذًا بالعسل، والعيال يجرون وراءه فرحين بفعلته. أما الأم امرأة أبي مدرة، فإنها أتت بشكايتها وولولتها إلى الرجال والنساء الذين التأم الآن مجلساهما زائطين بحديث زاعق متداخل، غاضب وساخر وضاحك. أما مشهد الصينية فهو دائم الصمت إلا من حركتين موجزتين: الأزعر ناول الولد الحلوى، وألقى بالكوز في القفة تحت صينيته، ثم عاد إلى ركوده المعتاد.

«صبر» تركن جبينها على حديد شباك غرفتها العلوية، مكحولة العينين، مشغولة المنديل، تكركع ضحكًا له جرس رنان. وشباكها فيه القلة القناوية عليها غطاء من النحاس الأصفر، وعلى جسمها بلولة ندية تنجذب إليها نسمة طراوة آتية عبر حارة أبي حسين من الجهة البحرية. وتنجذب إليها أنظار الجالسين على المصطبة قدام باب الدكان، والمتحلقين حول الصينية، والمجتمعين في مجلس الرجال

والنساء. تضحك صبر على الذعر والزياط. وفي ذلك تقول كلمات محيرة عجيبة شاهدها أنه مبارك الكوز الذي تشترى به حلوى، وأن البطن لتعفن إن عاش الواحد فقط على الخبز والإدام. وأن النفس تزكو ـ وحياة سيدي سليم ـ بقطعة من الحلاوة.

يفرح الناس أن صبر في شباكها، وأنها رائقة المزاج تقول. يبقى الناس زائطين، لكن كلمات صبر محيرة عجيبة، كأنها صفق أجنحة حمامة برية طائرة مفارقة، لا يجدي أن تنادي عليها تسترجعها، أو ترسل في إثرها ردًّا. لماذا يكون الأمر مع صبر أنها محلقة بعيدة؟ ولماذا يخيَّل للناظر أن شباكها أعلى من القبة، وأنها إذا نظرت من الشباك لم تر الكفر وناسه، بل ولا أهل القرى، وأنها إذا ابتسمت فما رأته وحدها لم تشر لأحد عليه؟! كذلك كانت صبر دائمًا حتى أيام شيخ الكفر الكبير الذي كان عديم المثيل. نوّارة الكفر هي، لكنها وردة يحيط بها الشوك يذود عنها الاقتراب. فما أحزن الكفر!

يبقى الناس زائطين مدة طويلة قبل أن يعودوا إلى هدوء. ليس لأنهم انتهوا في أمر الصينية إلى قرار، بل لأنهم يئسوا من إمكان اتخاذ مثل هذا القرار. يلتفتون ناحية محمد أفندي، يحدق فيهم هذا، لا يفتح الله عليه بشيء. ومصيلحي يعجن الكلمات عجنًا بلسان منفلت من حجز السنّتين الساقطتين. تخرج الكلمات من بين النابين على جانبي الفم، مرتطمة بالشفتين، مضيعة من الكلام المبنى والمعنى. وعبد الحافظ زائغ النظرات مثل طفل ضاع منه شيء. بذلك تبقى الصينية مشكلة عويصة واقعة في الضمائر موقعًا ثقيلاً. والواحد إن مدح قطع الحلوى أو سبّها، إن قال ذلك أو لم يقل، إنه على أي حال لا يسعه أن يماري في أن هذه القطع شهية ملذة. وهي هناك مطروحة تراها العيون في المرواح

والأوبة. لكن الطريق إليها اختلاس الأرغفة، أو كيزان الذرة، أو حفان القمح، لكي تسقط هذه كلها في قفة الأزعر بلا رجاء. ثم يكون زعيق الأب أو صراخ الأم أو الزوجة.

لماذا تبقى الصينية راسخة في الكفر، وحولها كل هذا الاختلاف والسخط؟ أيرجع هذا إلى تلك الهيبة الغامضة التي لـ«الأزعر» في قلوب الناس؟ والتي حاصلها أن الرجل ربما نسي الأسماء كلها إلا الأرغفة والكيزان وقطع الحلوى، وفقد الاهتمام بالوقائع كلها إلا تعريف البضاعة وامتلاء القفة، وزهد الناس جميعًا إلا من جاءه متحلب الريق وفي يده الثمن، وعليه فلا أحد في الكفر يمكنه أن يمد إلى الأزعر جسرًا أو ينشد منه قربًا، ثمة صمت في قاع الجب، تغور فيه الأصوات بلا صدى. أم ترى يرجع رسوخ الصينية في الكفر إلى وسامة حياة؟ إن البنت وسيمة. والناس هنا وإن لم يعرفوا للجمال اسمًا إلا أنهم يحسون به، ثم يمنعهم عجز غامض عن أن يتداولوا هذا الإحساس فيما بينهم، أو فيما بينهم وبين أنفسهم. ليكن الأمر ما يكون. إن الصينية تبقى في الكفر على أي حال شاهدة بحكمة بالغة، عبارتها أن السكة إلى المتعة الملذة هي الفعل القبيح.

على الزياط تأتي امرأة المصيلحي قادمة من «يمّ» الفرن الكائن في الخلاء عند نهاية الزقاق الذي يسرب بين دارهم ودار صبر. تطل على الناس بوجه مقطب لائم معاتب، لكنه وسيم بالعتاب والملامة. على رأسها مكتلها، وفي يدها «قَدومها»، وعلى جلبابها وطرحتها ووجهها ويديها نثار دقيق. إن إليها أمر فرن الكفر، تجرف ترابه، وتكنس حوله، وترمّه بالطين إن سقطت دهاكته. ولها في مقابل تعبها تراب الفرن تجفف

به تحت بهيمتها. وعليه فإن امرأة مصيلحي منشغلة بالفرن وقتها كله، فإن لم يكن ثمة ما ينبغي عمله جلست إلى الخابزات حول الطبلية، تساعد متحمسة محبورة، يصفقن الأرغفة بالأكف على المطارح، معلقة فوق رءوسهن سحابة من ذرات الدقيق البيضاء، وفي جوف الفرن تئز نيران الحطب، بطانة سحرية بهمة لثرثرة النساء الضاحكة الزاعقة. الخبيز مبروك، والفرح يزغرد في القلوب بألسنة حمراء، والقاعدة تغبط جارتها الخابزة. هذه ينتظرها زوجها، ويسألها مشتاقا للقمة ساخنة. وامرأة المصيلحي، صاحبة هذا الفرح اليومي، تطل على الناس بوجه لائم معاتب: يا أهل الكفر! ما جلوسكم للثرثرة سحابة النهار؟ أتفتلون من أخلاط الكلام الحبال؟ تلك أوْهى الحبال! قوموا امشوا في فجاج الرزق يا خلق!

كلمات امرأة مصيلحي تخاطب المناطق الطفلة في القلوب الصبية وفي القلوب الهرمة. يضحكون! كلامها حلو. لكن لماذا يبقى منه في القلب وفي الروح طعم؟ إنه مرارة قلب المتكلمة وروحها، مرارة مستورة أبدًا محجوبة أبدًا، لكنه كلما ازّينت الكلمات كانت واشية بالحزن أكثر. الكلمات! يظن كل واحد أنه يعرفها، ويستدلّ منها على مدلولاتها بَدَاهة. فإذا ما تريث ونظر، وتأمل، اتسعت المسافة بين الدليل والمدلول حتى يصبح الإنصات عبثا، والفهم انخداعًا.

يضحكون! كلامها حلو امرأة المصيلحي. لكن حسن زوج فاطمة ينزق وينازق، يجادل ويسفه ويعاند: من الذي صنع سعده بيده؟ إنما ضربت الحظوظ في الأزل، وكل واحد وما يسرّه له سيدي سليم! يقول حسن هذه الكلمات وغيرها في معناها. يقول وكأنه ثعبان ينفخ سُمًّا.

يسكت الناس في حلقة الرجال، وتنكس رءوسهم. ينشغلون بنكش الأرض بعيدان القش، أو بالتماس أحقاق المضغ، أو بتفلية الثياب من البراغيث. والنساء في حلقتهن يسكتن، وتكف أيديهن، ويرهفن السمع مشفقات. نعم، إن ما في بطن حسن أشد فتكا من سم الثعبان يغلي في مراجل أحشائه، ويخرج في نفخات غضب لا يزعها وازع يا سيدي سليم؟ يشفق الناس على المرأة الطيبة التي تقف في مكانها مشدوهة مبهوتة لا تريم. ويشفقون على حسن. أما تلحقه رحمة سيدي سليم؟ كيف يحترق الرجل هكذا بنار تضطرم في داخله العمر كله لا ترحمه؟!

من حلقة النساء تنادي فاطمة امرأة حسن على امرأة المصيلحي أن تتخذ لنفسها مطرحًا جنبها. في النداء زراية بغضبة حسن، وتحديًا يأتي كالزيت على ناره. هنا يكون الهلع أن تنشب بين الزوجين تلك المشاحنة الحقود المغلولة كما لم يعرف قلبان الغل والحقد. يصفرّ وجه عبد الحافظ وتجمُد يداه معلقتين قدام صدره، ويتدلى كماه عن معصمين نحيلين.

يهب مصطفى أبو محمد من مكانه واقفًا شارعًا خيزرانته مشيرًا بها ناحية المقام زاعقا: «وحياة سيدي سليم يا رجال، وحق صاحب المقام، إن ما مضى من الأوقات أحسنها! فإن جحدتم قولي اسألوا أنفسكم والأشياء حولكم!» ويبقى مصطفى واقفا مكانه مستندًا على خيزرانته، وعلى وجهه انفعاله بكلماته التي كلفته مشقة وجهدًا. والرجال انفجروا في ضحك كأنه الجنون، وكأنهم نجوا، أو رأوا العلامة، أو أفاقوا من الكابوس، ضحكوا وخلعوا «التقايا» عن رءوسهم ألقوا بها في الأرض، أو استلقوا على ظهورهم ورفعوا أرجلهم عاليا، أو قاموا

واقفين ملوّحين مصفقين. لكنهم في كل حال ضحكوا، وأغرقوا، وزعقوا بـ«مصطفى»، يشتمون فيه أنه عديم المثال، أي رجل مثله في الدنيا يملك من الكلمات أكثرها فراغًا وقلة معنى، ومع ذلك فهو لا يتكلم إلا ويصيب؟ آه يا مصطفى أيها القصير العجيب. ضحك الرجال له بطانة من ضحك النساء. وملامح وجه حسن زوج فاطمة بدأت تلين، حتى إن عبد الحافظ استقرت يداه في حجره، وبدأ اللون يمشي في صفرة وجهه.

يتنادى الناس رجالا ونساءً من الحلقتين بالملاحظات والتعليقات وثمالات الضحكات. لكنه لم يكن هناك من الرجال أو النساء من ألهاه الضحك عن صمت المصيلحي وسكونه العجيب. هذا رجل زعّاق ما تراه إلا وهو ينافح عن نفسه بلسانه، لا يتلعثم ولا يتبكم عليه القول، ولا يعلو على صوته صوت، وهو رجل معارك يرمي بنفسه على خصمه لا يخاف عاقبة، إن ضرب لم تنكسر شوكته، وإن وقع قام لا يتراجع ولا يفرّ. هو هكذا المصيلحي، فلماذا يكون إزاء حسن الصبور الصموت؟! يسأل الناس أنفسهم، ولا يجد أحد لسؤاله جوابا. عندئذ يقولون: ما لنا ولهما؟ إن مصيلحي اصطفى حسن بعد مرضه، وأشركه في خدمة المقام، اقتسم معهْ السر، وأعطاه المفتاح، وقد كان لـ«المصيلحي» وحده، أبا عن جد، هكذا أصبحت ولاية الضريح وحمل الأمانة قسمة بين الاثنين. ومن يومها يصابره حسن، ويغض الطرف عن بدواته، ويصلح بينه وبين أسرته صلحا يفضى دائمًا إلى شجار في زواجِ البغضاءُ لحمته وسداه. الأمر كذلك من يوم أن مرض حسن مرضه الكبير. سيدي سليم أولى بعياله. لا اعتراض يا سيدي.

ولا يزال مصطفى أبو محمد واقفًا مستندًا على خيزرانته. ينادي عليه عبد الحافظ أن يجلس. هذان صديقان صدوقان، والكفر اعتاد اجتماعهما، حتى ليسأل الواحد الصاحب عن صاحبه لو صادفه وحده. لكن ذلك لا يكون إلا نادرًا، والغالب أنهما معًا دائمًا، مقبلان ومدبران، في سراح ورواح. أحدهما طويل نحيل منحن يمشي صموتا متريثا متحسبًا حذرًا، والثاني قصير مكين يمشي يرفس الحصى بقدمه، ويضرب الهواء بخيزرانته، ويقول بحرد ولهوجة. ناس الكفر يرقبون عبد الحافظ مثلما يرقبون كافورة خُزّ حول جذعها وهي واقفة تجف رويدًا رويدًا. ذلك بما غضب سيدي سليم على الأب. وبما في عروق الابن من دم الأب. يزِر الولد وِزْر أبيه.

يجلس مصطفى من وقوفه، ويعود المجلس إلى مألوف عادته في الحديث والزياط. أيا ما كان الأمر فإن الناس فرحون بأنهم معًا، وبأن هذه الناحية الغربية القبلية من المقام هي ازدهار الحياة في كفرهم. لكنه فرح قليل ورضًا عن النفس مغشوش، من تحته دبيب القلق. يعرفون أنه على مصطبته قدام داره، في الناحية الغربية البحرية من الكفر، يجلس أحمد الديب على فروة الخروف البيضاء، ممتلئًا، أكرش، مكينا، يرقب شاحنته محروسة، وقد رفع شناوي غطاء دولابها على عددها يستوثق من نظامها وحسن سيرها. أينزل السعد على رأس أحمد الديب من الغيب صدفة؟! لا، إنما هو رجل فيه حول وحصافة، حتى ليخيف وإن بَشّ في وجوه الناس كرضيع. وهو رجل يقوم من نومه عارفًا ماذا يفعل بيومه، لا يهوي إلى نخلة المصيلحي حيرة وزهقا وزهادة، ونشدانا للسلوى عن قدر العجز والإحباط، بل يملك كبرياء القدرة

على البقاء وحده. لا ينتظر المواسم وما تقسمه على الناس من رزق، بل يصنع من أيامه مواسم، فلا يطلع عليه نهار إلا وهو فرحان يحتفل.

أما في الناحية البحرية، فثمة مجلس الكفر على مصطبته قُدّام باب داره رجل في جبينه حفرة تشبه تلك التي بين عيني الأفعى. وعند أقدامه يجلس شوربجي الأعور الخفير وعلى حجره بندقيته. والرجل من أهل الكفر إذا مر بهذا المجلس أقرأ السلام، وعجل الخطو قبل أن يأتيه رد السلام. فإن الناس لا يعرفون أيحبون أحمد أبو حسين أم يكرهونه. إنه اسم الكفر وعنوانه، روحه وكبرياؤه. إنه سيدي سليم على ظهر دنيا الناس، يفكر ويدبّر، يأمر وينهى، يجلس للقضاء بين أهل الكفر، يعصف بالظالم، ويرمي للمظلوم بحقّه كما يرمي باللقمة للكلب. إنه سيدي سليم يضرب في فجاج الدنيا بين الناس، لكن بلا عمامة ولا لحية ولا نبالة في الجبين، ولا رحمة في العينين، ولا كلمة طيبة في الشفتين، بل «تقية» صوفية سوداء، وجبين أصفر، وعينان ضيقتان فيهما الكراهية، والتأفف، والاشمئزاز، والأنفة. لا يعرف أهل الكفر أيحبون شيخهم أم يكرهونه؟ لا أحد يدري! والحاصل أنه الخوف المكوّن من فلقتي الحب والكراهية. وهي الضرورة التي قوامها العجز يعتاده الإنسان، ويعتاد الحيرة إزاءه، حتى تصبح من عناصر مزاجه وطبعه.

لكن اسأل من العقول العقل الأوعى، ومن القلوب القلب الأحفظ، ومن الأفئدة الفؤاد الأزكى، ومن الضمائر الذي صنعته آيات الكلمات، وجلائل الحدثان، ولم تؤرقه الصغائر الفائتات، إنك إن سألت وجدت الحب لشيخ الكفر والخوف من الديب. نعم، إن هذا هاشّ باش، ودُود قريب. لكن انظر! هل رأى أحد في عينيه نظرة

وَجَل إذا هو مرّ بالمقام؟ لا، بل إنه يرمقه كشيء من الأشياء! وانظر! هل رأى أحد على وجهه سحابة خوف أو تردد، إذا هو ركب حمارته البيضاء الشامخة، واستقبل السكة إلى القرى؟ لا، بل إنه يقبل على السفر مشرقًا محبورًا! نعم، إنه يثوب إلى الكفر فرحان بالأوبة، لكن ثمة الشكّ في أن جوهر روحه انغش بشوائب غريبة. ولا يؤمن أن يكون قد ألحد عن عقيدة الناس، وألحد بها. لكن قل عن أحمد أبو حسين ما تشاء، واشتمه الليل والنهار، إنك عارف متيقن أن الرجل نقيّ الصفة، لا يختلط سواد قلبه بالغش.

ذانك هما رجلا الكفر الكبيران، لكل منهما نبوَّته وآيته. وآية شيخ الكفر شوربجي الأعور الخفير. الغرُّ من انشغل عن الرجل ببندقيته. لكن من الذي لا يفعل؟ إنها في الكفر شيء أحدّ، تتحول الأوقات، والناس، والأرض، والدور، وهي لا تتغير. من أيام الشوربجي الأعور الكبير وهي في داره وولده، يحملها الابن بعد أبيه. لم يمسكها في يده غيرهم من أهل الكفر أحد أو يلمسها أو يقترب منها. إنما يشاهدها المشاهد من بعد لا يؤمن أن تعمره الأوهام. لكنه لا شك في أنه في صناعتها إتقان «غريب» عن هذه الدنيا، يجعلها آلة لطيفة صقيلة، يود الواحد أن يأخذها إليه، يحتضنها، وينعِّم خده في صقالها. وفي ذلك يكون السؤال عن سرها الفاتك. والمظنون أن هذا السر كامن في عيني ماسورتيها اللتين لا تغمضان أبدًا. أو أنه في انحناء الماسورتين المتحفز على ركيزة الخشب ثم ضغطة زناد، وطلقة لا يردها عن هدفها شيء.

لم يسمع أحد من أهل الكفر طلقة من بندقية شوربجي، ولم يرها أحد إلا وهي مصموتة الماسورتين بقطعتين من قوالح الذرة. لكن

السلاح في يد شوربجي نيّة معقودة على القتل يحملها الرجل قائمًا وقاعدا، نية لم يساور أحد الشك فيها أبدًا، تحرس كبرياء شيخ الكفر أن يهون أو يهن.

أما الشناوي سائق أحمد الديب فقد جاء إلى الكفر أول ما جاء مع المحروسة. قدمت هذه من على المصرف الكبير، يسبقها نفيرها وأزيز دولابها، ثم دخلت الكفر صخّابة مُقَعْقِعَة، أدهشت الناس حتى خافوها. ثم فتح بابها، وقفز منه شناوي نازلا عليه سيماء أهل طنطا في ملامحه، وقامته، وإيمائه، وحركته. استغربه الكفراوية الذين تكأكئوا حول العربة، وتساءلوا عن المنطقة في روح الديب التي تصهر هذا الرجل إليه. وشناوي ينقل بين الديب والعربة بصرًا مفزوعًا، ويتحرك بخفة الفتاح نحيلا قصيًا كعود. يخرج بالشاحنة مع أوائل النهار، ومع الغروب يعود. يعرف الناس خروجه وعودته، ويتساءلون، لكن السائق يرد أسئلتهم بصمت غامض مكتئب.

ذانك هما رجلا الكفر الكبيران، لكل منهما نبوته وآيته. لكن تلك مجالس أخرى وأولاد ناس آخرون. الناس هنا تحت نخلة المصيلحي يهزلون حتى يستخفهم الطيش أو يغرقون في التأمل حتى الصمت. لكنهم في الحالين مثقلو الوعي بمقام الشيخ، حتى لتكون للكلمات ظلال، وللضحكات ذيول، وللمعاني رجع مشتبه. والناس في الحالين واعون بأن محمد أفندي من فوقهم على مصطبته يرقب في حذر وتشكك، وينصت في سكون وتأمل، وبأن صبر في غرفتها العلوية عاكفة على هدم تخيطها، وبأن الأزعر لا يريم في جلسته إلى صينية الحلوى وعن يمينه وشماله امرأته وابنته. تدور العيون، تقع على الأشياء دون أن تراها.

هدأة بعد كل حكاية. جوهر الموعظة الخوف، وليس أكثر هشاشة من كيان الحقيقة، ولا أخزى من وأد الاحتمال. الشيخ الكائن في كل شيء. وكل الأشياء اشتقت من جوهره الفرد الأول، مدهوكة بالطين كالحة كئيبة تدور في فلك المقام يحكم رسوخه وتجهمه الأزلي إيقاع حركتها. الناس والبهائم والنخلات والدور. الكل ينتمي إليه في نعيم صاهد مترب خانق. يسكن الواحد إلى الأب قريرًا بالبنوّة حتى كف كل الهواجس والمنى والطموحات، طفولة عذبة رائقة أبيدة كاليأس.

على مرمى حصْوة من مجلس الرجال، قدام باب دار المصيلحي مربوطة بقرته وحمارته. بقرة مهزولة، وحمارة تثقلها هامة عظيمة. حيوانان جاحظان من المسغبة، ناطقة عيونهما بالذل والمهانة والمعاتبة. ما أشد نكاية البهائم بالخلق على ما سخروهم في أشغالهم، وحملوهم همومهم. تمرض البهيمة، تخزم تحت البطن، تكوى على عصعص الذيل، ويبقى الموت في جلدها وفي عينيها وعلى خشمها. إنها إذن لا بد أن تذبح إن لم يموَّه مرضها على زبون يشتريها.

يفصل الرأس عن الجسد ويلقى بعيدًا دامي الرقبة زجاجي العينين مكبوس الخشم بالتراب، ثم تدس عيدان الحديد ما بين جلدها ولحمها، وينفخ ما بين الجلد واللحم، ويضرب الكيان المنفوخ بالعصي، ثم تسلخ البهيمة. تقطع القادمتان والخلفيتان ويلقى بهما جنب الرأس. تجتمع أسراب الذباب والزنابير الصفراء والحمراء على هياكل الأمعاء المنتفخة المبلولة الدامية اللزجة المكدسة في طست كبير. يعلق اللحم المريض في خشبة تركن على حائط المقام. يدور ناس الكفر بالذبيحة، أسنانهم كلابية جائعة. يقبلون. يهمسون بما يريدون. حتى يأخذ كل

منهم ما يعود به إلى داره. وبعد طعام دسم يعودون إلى نخلة المصيلحي. ينظرون إلى البهائم المهزولة بشماتة وانتصار.

في الباحة، حول المقام، بعد الناس، خلق من المعيز والخراف والكلاب. مخلوقات جربانة مهزولة ضائعة، دائرة في بحث عمّا لا تعرف، وعما لا تجد. وعليه يكون تقافز قليل، أو تناطح كسلان، أو نباح ازدراء لما تنشغل به النساء، ولما ينشغل به الرجال، ولما تنشغل به أسراب الحمام والدواجن من لقط البلح الأخضر، ونبش في التراب لا ينقطع. يعقب ذلك أن يبحث الحيوان لنفسه عن جدار قصي يحك فيه رأسه، توجعًا من قراد أذنيه. ينظر للناس، عيناه معتمتان بيأس من إيجاد الإجابة المجهولة، عن السؤال المجهول.

هموم صغيرة لمخلوقات شقية من الناس والحيوان تغرق في حياة الباحة حول المقام. حياة مصنوعة من الضحك والزعيق، من الصمت والتأمل، من الثُّغاء والنباح، من «القراق» والهديل، من شقشقة العصافير، وطنين النحل والزنابير. أصوات تتراكب وتشتد حتى تكون ضجة، أو تخفت حتى تكون شجنا، أو تنقطع حتى تحل الوحشة. لكنها في كل الأحوال مألوفة، حتى إن الواحد ليسعه أن يرد منها كل صوت إلى مأتاه، حتى ولو كان الرجل مندهشا بالحديث في مجلس الرجال، أو كانت المرأة يستغرقها شغلها وحكايات جاراتها في مجلس النساء، أو كان الولد يلهيه اللعب مع أقرانه. يظل الرُّبع من كل قلب رهينا بهذه الأصوات. ودون التفات. يعرف الرجل معاناة بهيمته، وتعرف المرأة غياب عنزتها أو بطتها أو دجاجتها، ويعرف الولد ما حل بكلبه. وقبل أن تكون استغاثة مستنجدة، وقبل أن يكون زعيق

ملهوف، أو تراشق بالكلمات، أو تماسك بالأيدي، يكون قد وضع أجنة الانزعاج في أرحام الضمائر. اختلال أدركه السمع في المعزوفة النازفة بلا نهاية في صهد الباحة وعفارها ووسخها. ولا يهدأ الناس حتى يرفع الخلل، وتنتظم الأصوات آتية من مآتيها تترى في سلام هامد عرقان تحت نخلة المصيلحي.

نخلة ما زالت بعد صبية صغيرة. كبير رأسها على قوامها القصير المليء. وهي زغلولة بين نخلات في الباحة حول المقام، وفي الكفر كثيرات من السماني وبنت عيش. يرى الواحد ذلك على جريدها وهيئتها وامتلاء أفنانها التي تتدلى، توشك أن يدركها الواقف بيديه. وهي فسلة من زغلولة أم كان قد أتى بها المرحوم محمد عبد الحافظ ـ والد عبد الحافظ الحالي ـ من البلاد البعيدة. غرسها مصيلحي قدام باب داره في حفرة عميقة، ردمها بالتراب يسقيه كل يوم، لا يدعه يجف أبدًا. نمت الزغلولة، ثرية الجريد قصيرة. وإنها في المواسم لتحمل بالبلح أخضر ثم يصير ذهبًا خالصًا.

مباركة نخلة المصيلحي. مبارك النخيل. إنه أشرف الشجر. وقد اختص به الكفر من دون القرى، عرفه وألفه وعُرف به. في كل باحة وأمام كل باب نخلات من السماني وبنت عيش، ناس مثل الناس معروفون بالأسماء والصفات. تعمِّر النخلة الدهر، فإذا ما بقيت، وطالت، وأسلمت للريح جريدها تميل حيث مال، خيف سقوطها، ووجب قطعها. عندئذ يحزن عليها صاحبها، ويحزن معه الناس، ويعوض سيدي سليم المضرور بفسلة يغرسها تثمر في خمس سنين.

فإذا كان شهر «توت» خرج الطلع من بين الجريد، انشق عن قلب

أبيض ناصع، وملأ أريج غباره الجو. عندئذ يأتي الناس البُرُنُسية من الشمال، يُعهد إليهم بالتأبير، وقصْب الجريد، يباع لهم يصنعون منه أقفاصا. تلك أيام رزق، وأمل، وبهجة غريبة تشمل الكفر، يتذكر الرجال في مجالسهم الموسم الفائت، وما حدث فيه من العجائب. يحكون، وتنصت النساء، ويكون تلميح خبيث، وضحك متواطئ.

لا يزال البلح أخضر. لكن العيال لا يطيقون الانتظار، يسبقون المعيز والفراخ إلى لقْط ما على أرض الباحة، كل بلحة رمحت ولانت. بل إن الأشقياء يحصبون الأقناء حتى تساقط عليهم الواحدات الروامخ اللذيذات، ثم يفرون هاربين. لكن الوقت الآن أواخر «بشنس» الأخيرة. فلم يبق سوى «بئونة» و«أبيب» و«مسري». وفي «توت» يكون الموسم. يحلم الناس هنا الآن بمحصول وافر هذا العام. يحلمون وينشغلون بحديث النخل طويلا.

يقولون إن كل نخلة تحمل من روح صاحبها شيئًا، حتى إنك لتشير إليها، وكأنك تشير إليه. انظر إلى نخلة المرحوم محسوب الأخضر قدام دار صبر، وإلى سمانية الأزعر، وإلى سمانية محمود، أو إلى التوءمتين من بنت عيش تحت شبابيك دار أبي حسين، أو إلى نخلة أحمد الديب السمانية الشاهقة. انظر إلى كل النخل حول المقام، تراه وكأنك ترى هؤلاء الناس حول القبّة عاكفين. عندئذ تسأل عن الذي في الزغلولة من المصيلحي الناشف المصوِّح، ولن تجد جوابًا سوى ضحك مكركع.

تُدَوِّم الريح البحرية في جريد نخيل الباحة. تميل نخلة المحسوب تخلِّي بين الريح وبين شباك غرفة صبر العلوية. شباك يبدى حسن القلة، وبهاء زينة السرير، شباك حسن في دار حسنة المصطبة، تخيرت

صبر لدهاكتها خير عروق الطين وأصفاها جوهرًا. خلطت التراب بناعم التبن، ثم روَّتها بالماء طويلا حتى تحللت كسر العيدان الذهبية في مادة الحمأ. عندئذ رقَّعت صبر الجدران بيدها شبرًا شبرًا. فإذا ما جفت الدهاكة كان لها صفاء، وكان للدار بهاء عروس مجلوة.

قبالة شباك صبر شباك غرفة محمد أفندي العلوية التي بناها له أبوه فوق الدكان، فكان بعد ذلك أن أصبح في واجهة الدار ما في ملامح وجه الشاب من غلظة، وعناء وغباء، وكتمان محتار صبور. لكن على الواجهة ما على جماع وجه الأفندي من حلاوة ووسامة. اقرن هذه الدار إلى دار صبر، تجد في هذه ما في وجه النوّارة من حلاوة وبهرج، وشوق إلى الحياة، استفْت في هذه المقارنة الناس تحت نخلة المصيلحي ينظرون إليك لا يعرفون عن الذي تحكي عنه شيئًا. وربما ضحك بعضهم لأمر كانوا يعرفونه دائمًا ولا يسعهم قوله أبدًا.

أيا ما كان الأمر فإنهما في الباحة حول المقام غرفتان علويتان لا ثالثة لهما. بينهما تقبع دار المصيلحي واطئة مهيضة الواجهة عليها جلافة تصنع عناصرها الحفر والدهاكة بأخسّ عروق الطين، وأكثرها تباينًا. يزيدها هذا في النفس غرابة موقع. يمضي الواحد عنها وفي قلبه حيْرة. فما يكاد يفوت دار صبر حتى يجد دار الأزعر قدامه. دار لا تحمل على هامتها حطبًا، ولا تلقى على الأرض ظلًّا، ولا تردّ السلام إن أقرأها المار بها السلام. تأتي بعدها دار أولاد الشيخ محمود مشبهة خنّ أرانب مظلم ضيق الفوّهة، تفوح منه ريح رديئة. إلى جوارها دار حسن وفاطمة.

هذه دار قميئة ضيقة الأكتاف، غائرة الباب، محملة بصنوف من أقراص الجلة الناشفة، وحزم حطب الذرة، وحطب القطن. وهي

بكيانها القليل هذا ملاصقة لدار عبد الحافظ العالية الهامة. على أن هذا الجدار لا ينطق أبدًا بالتناقض الكامن فيه، ولا يحس الواحد أبدًا بتصاغر إحدى الدارين اتضاعًا وشموخ الأخرى أنفة. بل يوحي تجاور الدارين بما يشبه الألفة التي ترى في تسنّد عجوز متهدم على طفل أكرش معلول، الاثنان يتلفتان في وجل.

وإن الواحد ليتساءل: في أي ملمح من ملامح دار عبد الحافظ يتعرّف الناظر على خواء داخلها، وفي أي ملمح من ملامح دار عبد المعطي يتعرّف الواحد على ما بداخلها من حول وعزم يدور به دولاب معاش رائج مبروك من رجال ونساء وعيال وبهائم وأغنام ودواجن؟ لا أحد يدري. لكن الواحد لا يملك إلا أن يفرح بالكثرة والوفرة والخير، ويغبط أصحاب الدار على بركة تنفخ في الأشياء فتنمو وتزيد وتنضر، وتغدق بسرّ سيدي سليم. والواحد لا يملك إلا أن يمقت الخواء والنضوب والعقم، وينفر منه ويخافه. لكن هذا لا يغير من حال داري العمّ وابن الأخ المتجاورتين شيئًا.

فإذا ما خلّى الواحد هذه المفارقة خلف ظهره، فإنه سيبقى منها في شعوره رهافة. يتطلع فإذا به قدام شبابيك دار شيخ الكفر الشاهقة. دون المصاريع تقف عمدان الحديد الغلاظ صدئة خشنة جلفة، قادرة على أن تذود عنها المتطفل عليها قبل أن يقربها. يحسّ الناس الخطر إذا قطعوا هذا الجزء من الباحة دائرين بالمقام، يسارقون النظر جدرانًا من الطوب الأحمر، مكحولة مشقوقة بالملاط الأبيض، تحت عفرة تُنْطِقُ الحيطان بجهامة لا تقبل صلحا. هذه دار لا يبنيها إلا شيخ كفر، وللمشيخة بين الناس ترفع جدران مثل هذه المباني الكئيبة وترسى أركانها.

فإذا كان ثمة رجل مثل أحمد الديب وسعه أن يبني دارًا مثل داره إلى جوار دار شيخ الكفر، فيا راحة القلب. ما أحلى البياض، والصحون من الصاج المطليّ بالقيشاني الملون ألصقتها زهرة البيت البنت عسل في الواجهة. عسل في الشباك يجيب ابتسامها العذب وضحكها الرنان على تحية الرائح والغادي. ويسأله ويعزم عليه ويدعو له. يسرع الواحد إلى مجلس الناس تحت نخلة المصيلحي ملء القلب بالمودّة حتى ليلوّح لـ«محمد» أفندي بالتحية مرحًا، ويجد له في الظل مع الجالسين مطرحًا.

ولكن ما الدور؟ إنها الناس! الناس إن كثروا وعزّوا، أو قلوا وهانوا. وإن رقت طبائعهم، وسمحت فطرتهم، وصفت معادنهم، وفرحوا بالعيش ونعموا به، أو أخذوا الدنيا مأخذ الجهامة والترفع. إن قعدت بهم العزائم عن الدأب والتكثير والتثمير فرضوا بالدون وقنعوا بالقليل، أو سمت بهم الهمم إلى أوفر الأرزاق وأجزل النعم. تلك هي الدور. وتلك هي دور الكفر شواهد على سِيَر، أو هي تواريخ قائمة الأركان. التفت إليها! تأملها واعتبر أحوال أهلها! أليست دار شيخ الكفر المنيعة الجدران هي منزل جنس من أهل الكفر، له السلطة، والقوة، والسطوة، بلا غريم منذ الأزل الأول، وربما إلى أبد الآبدين؟ انظر إلى كآبة دار أبي حسين تنبئك نبأ هذه الأسرة ولو كنت بسيرة هذا الكفر غير عليم.

فإذا كان ذلك كذلك فإن دور الديب هي الزراية على السلطة والسطوة والنعْي على ذلك جميعًا. جنس من الناس جزّارون متاجرون ابنًا عن أب. أبو حسين والديب هما الرجلان والداران والفريقان

الكبيران في كفر سيدي سليم وبعدهما فكل هوية تعرف بالنسبة لهما. لا فكاك. وعليه فإنك إن سألت عن أولاد عبد الحافظ جاءك الرد سريعًا بأنهم أحلاف أبي حسين وعُصبته. وأن عبد الحافظ الكبير لما بنى لولديه الوحيدين محمد وعبد المعطي داريْن على باحة المقام بنى وروحه وعينه على دار أبي حسين، يريد من الجدران في الجدران سمة ومشابهة تكون علامة على الولاء والخدمة، وعليه فالداران خلاسيّتا العمارة، عليهما كآبة مصطنعة ومناعة كاذبة. أليست تلك طبيعة أولاد عبد الحافظ في الكفر، عليهم وقار الرئاسة بلا رئاسة، وفي جبينهم نبالة المنصب بلا منصب، وفيهم ترفع ربما يثير الرثاء أكثر مما يلقى في القلب المهابة.

أما ولاء الشوربجي لـ«أبي حسين» فشيء قديم حقيقي صلب لا ينشد بنفسه تعريفا ولا عن حقيقته إعلانًا. وعليه فالدار تحمل منذ الزمن الأول حقيقة ناسها لا حقيقة ولائهم، ليست على الباحة حول المقام، فإن كان ذلك وجاهة ومنزلة فإن العزوف عنه ترفع مصنوع من معدن نفيس آخر. وعليه فهي دار متماسكة راسخة صلدة نظيفة تقع العين عليها فكأنما رأى الواحد شوربجيا جالسًا وعلى حجره البندقية، من الشوربجي الأعور الكبير حتى الشوربجي الأعور الحالي.

لكن ما حاجة دار الديب إلى الأحلاف والصنائع. هؤلاء رجال ممتلئون بأنفسهم حتى ليغفل الواحد منهم عن الآخرين والكفر كله مجتمع حوله. فإذا كان أولاد حسن قد اتخذوا الديب مثلا فذلك أمر لم يسألوا فيه، ولو أنهم سألوا ما تكلف عناء الإجابة أحد. وعليه يبقى أولاد حسن، على دأبهم المألوف، يتاجرون، فتكون تجارتهم دكانًا صغيرًا

لا يزيد ولا ينقص ولا يروج ولا يفلس. ويجمّلون دارهم فتبقى على ملامحها غلظة وعناد وغباء، وكتمان مختار صبور. أليست هذه خلقة أولاد حسنٍ وخليقتهم منذ الأزل وإلى الأبد.

خلِّ هذه الدار إلى دار صبر كتبها المحسوب لها فآلت إليها بعد أن مات. ترى ملامحه بعد على الواجهة وترى شيئًا من روحه باقيا يعيش في إطار ذلك الحسن الذي أضفته على الحيطان يد صبر وذوقها. فانظر إلى واجهة دار هي أحسن العزاء في رجل مات ومات معه بلا رجعة جنسه كله. واعلم أن ذلك صنيع صبر نوارة الكفر وقلادة جيده، فإذا أردت في منزل لك بهاء فافعل كما فعل المحسوب، وأصهر إلى دار الديب. نساؤهم، يا سيدي سليم أحلى النساء.

لكن كيف وتحت المصيلحي امرأة من دار الديب، ولا تزال أتعس الدور داره؟ ربما هو قدر الموت والعقم والبوار قسمه المصيلحي الكبير على ولديه مصيلحي ومحمود، ولم يقو على طلسمه سرّ النساء من دار الديب. وعليه فقد عقمت امرأة المصيلحي، وأشبهت داره قبرًا متروكًا تسفي عليه الرياح. ومن قبل مات محمود دون أن يعقب ذكرًا، وبناته الثلاث قعيدات داره في الجهة الشرقية القبلية من المقام، وعليهن عطية الدش زوج البنت الكبرى.

ولم يغن عن حسن زوج فاطمة شيئًا أنه تزوج من دار الديب، امرأة شهية في وجهها حسن، وفي خصرها لين. ما زال حسن رجلاً صاحب مرض قضى على امرأته أن تعيش بلا خلف في دار غائرة قميئة، وأن تذبل كل يوم بمقدار حتى يقضي سيدي سليم في أمرها قضاه. أيموت حسن؟ إنه بعلّته أقرب للموت منه للحياة. وإذن فلما يموت

الزعيري، عن نفسه وبنفسه، لا تنقص بموته أسرة ولا يختفي جنس. هكذا الزعايرة: أبو مدرة، والأزعر، وعطيه الدش ومصطفى أبو محمد، ومحمود بن طراوة. ناس لا يصنع الواحد منهم فرعًا في شجرة، بل عودًا في غيط، يضرب جذوره، ويمد فروعه، ويخرج نواره وثمره وحده، عن نفسه وبنفسه.

ناس ودور. والشيخ هو ملاك هذا النظام المصنوع من الدور والناس. حوله مجال مشحون بسر طقوسي له هرير. وأربعة جدران المقام قد اخشوشنت دهاكتها ونفرت من طينها الأسمر عيدان التبن صفراء لامعة، والشبابيك مصوّحة المصاريع صدئة العمدان معتادة على الغمض. وعلى القبة تنزل أسراب الحمام وترحل، حاملة على ظهورها شمس الظهر، لا تصل إلى الباحة إلا بقع متجاورة متراكبة، نافذة من عريش رث مترب، متوثب بحياة العصافير المرفرفة المزقزقة، مصنوع من حجم القبة وجريد النخل المحيط بها، وفضول أحمال الحطب على رءوس الدور الدائرة بالمقام مائلة بجباهها ناحيته.

الباحة كالحصن، فيه الحماية والأمان، وفيه أيضًا ملالة القرار. عندئذ تكون ثقوب الحارات في إحكام دورة الدور حول المقام كأنها الذنوب المقدورة على الحياة الصالحة، أو أضغاث الأحلام في الليل الشتوي الطويل. ويكون ولوج المارة دائمًا مباغتًا وملذا. هي جميعها طويلة ضيقة ملتوية، ماضية بين صفين من واجهات كئيبة فيها أبواب غائرة الأعتاب. جدران جهمة صموتة تحصر بينها شمسا متقدة، وظلالاً قليلة، تنبش فيها الدواجن، ويطنّ الذباب واقعًا على المساقي وأكوام الوساخة وعيون العيال والدواب. تمشي الحارة صابرة، والعواتق

مثقلة، والأقدام لا تحدث في الأرض صوتًا، هكذا حتى تصحو العيون والقلوب على الخلاء.

وأيسر الخروج من حارة المصيلحي إلى فرن الكفر. وهو خروج احتفالي يولد الشوق إليه في أجواف أحرقها العيش على الخبز الجاف. يذهب الرجل بحرقته إلى مجلس الناس تحت زغلولة المصيلحي تهب عليه من ناحية الفرن عبر الحارة رائحة الخبيز. يضري جوعه. يزعق على امرأته من مجلسه، يشتم شحها، ولؤم طبعها، وتعنيفها عليه، ويحلف عليها إلا ما قامت من فورها وخبزت، والمرأة ترد على زوجها من مجلسها تشتم شراهته، وخسّة جبلته، وتحلف ما هي خابزة في يومها. تدور الشتائم بين القرينين زمانا في زحام من زعيق الرجال، ما بين محبذ ومثبط، حتى تقوم المرأة إلى دارها لتعجن. وبعد أن ترى وعلى رأسها عجينها ماشية ناحية الفرن تلاحقها الصيحات والنداءات حتى تغيب في الحارة، ويرقبها زوجها حتى تئوب وعلى رأسها الخبز الساخن.

أيهما أكثر فرحًا بالإياب الزوج الجائع أم الزوجة التي خبزت لزوجها؟ الرجل أيا كان، أبا أو أخًا أو ابنًا أو بعلاً، يتصور أن غاية سعادة المرأة، بنتًا كانت أو أختًا أو أمًا أو زوجة، أن تكون بقربه وفي خدمته. ثم تكون هذه الساعة من ساعات النهار، حين تجتمع النساء يتأهبن إلى الموردة على ترعة الباشا لجلب الماء. حينئذ فرحتهن بتلاقيهن واعتزامهن الخروج، فرحة أخرى جوهرها أصفى، ويكنّ تاركات مغادرات نائيات.

وإلى عسل ميقات الخروج في الميعاد، تخرج من باب دارهم وجرتها في يدها. في الجرة حفان ماء حتى لا تكون شؤما على من تقابلهم إذا

بقيت فارغة. تركتها البنت ريثما تحوِّى حواتها وتضعُها على رأسها وسادة تحت صلابة الفخار. ترنو إلى مقام الشيخ. تحبه، وتصدق به. سرّه يبارك جسمها الشامخ. تقف مزدهية متوثبة تلقى التحية على محمد أفندي وعلى مجلس الرجال، تضحك ضحكا عفويًا طلقًا يجلجل فيه ذلك الفرح الكامن في بناء كيانها الوثيق ثم ترنو إلى الشيخ مرة أخرى. كأنه أبوها، وهي عروس مبارحة دار الأب إلى مسرات العرس في دارها الجديدة.

وما تلبث النساء حتى يأتين. امرأة أبي مدرة، فاطمة امرأة حسن، حياة ابنة الأزعر، امرأة محمد بن مصطفى، وربما امرأة مصيلحي، وكثيرات غيرهن أيضًا. تحيط النساء بـ«عسل» كل تحمل جرتها، وكل تضحك، وكل تثرثر بحاجات قبلها، وكل منهن تجذب الأخرى من كمها، تريد أن تستأثر باستماعها. فرحات كأنهن يجدن أنفسهن بعد غيبة. ينفرش للغطهن وزياطهن في مجلس الرجال الصمت والالتفات. تبتعد النساء مبارحات، يستحوذ على قلوب الرجال إحساس بالثكل واليتم والترمل. تمضي النساء ناجيات بفرحتهن دالفات من الباحة إلى حارة عبد الحافظ، وما يكدن ينفلتن من الحارة حتى ينبسط أمامهن الأفق شاسعًا. يصعدن إلى جسر ترعة الباشا. في منطقة في وجدان الإنسان طفلة فرحانة توجد قناة الماء. والشوق إليها كرغبات الرضيع، يتألق في العيون ويتورد في الخدود ولا يجد الكلمة يقولها عن نفسه. تزاحمت جالبات الماء على المَوْردة مشمرات الجلابيب. كلهن امرأة وكلهن مشتاقة لأن تعري ساقها، وتدع الماء ينسربُ بين فخذيها. تدعه على مهلها يخر جاريا من الحلق يملأ الجرة وهي في ذلك تثرثر مع جاراتها، تتفرج على العيال والجدعان والرجال على البعد يستحمون.

توَدّ الواحدة لو تستحم لكنها لا بد لذلك أن تختلس ساعة ينقطع فيها الرجال عن جسر الترعة إذ ذاك تقعد على الشط متلفتة. فإذا أمنت خلعت ثوبها، ودلفت إلى الماء ناعمة بروعة المفاجأة، وانسراق الروح ثم بشهقة الارتياح العميقة ثم تظل تبلبط حتى تشبع. تحرك رجليها وتخبط بيديها الآن في الماء حالمة بأنها عريانة. حتى إذا امتلأت الجرة حملتها إلى رأسها، وعادت النساء بجرار ملأى ونفوس قد شفّت وقلوب خفّت أحمالها.

لكن ذلك يكون عصرًا والعصر بعيد والظهرية قابضة على حلقوم الدنيا حتى لترى العيون البقع السوداء على وهج الضوء. تنكس الرءوس وتكافح الرئات في الصدور من أجل نسمة هواء. موات ظُهرى وذبول. يخفت كل صوت إلا طنين الذباب والزنابير. تشبه الباحة آنئذ جبّانة مُوحشة، قائمة شواهد قبورها حول المقام.

حارة الزعايرة تقود الخيال من الباحة حتى جرن الكفر الذي يمتد حتى حافة الحقول. وكما يعرف أهل الكفر بعضهم بعضًا، يعرفون ما يخص كلًّا منهم من أرض هذا الجرن، الحدود بين الأملاك ليست على الأرض، لكنها مرسومة في كل عين، وفي كل قلب، وساخطة عليها كل عينٍ وكل قلب، ومهموم بها كل عقل ساعات الوقت جميعًا. يظل يزيح كلُّ جار حد ملكه على ملك جاره في الصحو وفي الحلم، ويظل في الصحو وفي الحلم يخاف كل جار أن يزيح جاره الحدّ عليه. يتساقى الجاران سمّ الكراهية الزعاف. يسوط كل واحد منهما الآخر بالزعيق. يتماسكان ويتضاربان حتى ليوشك أن يفتك القوي بالضعيف في الصحو وفي الحلم. والحدود بين أملاك أهل الكفر في هذا الجرن لا تزال،

موهومة ومعلومة، ماضية في مسارها بين مُكوّم ترابه أو دارس قمحه، أو مهيئ جرنه لهذا أو ذاك، فاصلة بين قطع أرض تحمل كل ميسم صاحبها وصورته. حدود بين ناس متنازعين أشدّ المنازعة، متخاصمين أشد الخصام. حدود بين شرّهم وشرّهم، بين حقدهم وحقدهم، بين خوفهم وخوفهم، بين هزيمتهم وهزيمتهم. فإذا ما تسللت من حارة الزعايرة إلى الجرن حمارةٌ نبذت لأنها هزيلة مريضة بلا رجاء، فإنها تدب يملأ جلدها الأجرب كبرياء حتى ما تفزع وتضطرب، ولا تتلهوج ولا تتلهف، بل تتهاوى وتترنح في خطوات مرتجفة متخاذلة فيها معنى الترك، وفيها أنفة من يغادر وتأبّيه. إذا خطرت مثل هذه الحمارة في الجرن فإنه يكون في كيانها المنهار وهامتها الساقطة معنى آخر يتضاءل إزاءه معنى الاحتياز والكَلَب، ويتعفر في التراب الذي تثيره نقرات الحوافر على الأملاك وعلى الحدود بين الأملاك بازدراء تستطيعه فقط حمارة مهزولة تموت. عندئذ يصير الجرن جرنًا تلعب فيه تحت قيظ الظهر نسائم أتت مستعجلة من الناحية البحرية الغربية. ويصير الجرن جرنًا حين يلعب فيه العيال، يجرون، ويزعقون، ويتبارون، ويتصارعون، ويطارد بعضهم بعضًا. وسواء أسمع الكبار في مجلسهم قبالة المقام أم لم يسمعوا، فإن أصوات لعب العيال واصلة.

الأب يحب طفله كما يحب نفسه أيام كان طفلاً، والأب يكره طفله مثلما يكره عجزه عن أن يظل طفلاً، والأب يريد لابنه أن يكبر ويعرف الدنيا، يعرف الألم والخوف حتى يختفي ذلك الكبرياء الطلق العذب من عينيه. عندئذ فقط يمكن للابن أن يعرف أباه، عندئذ فقط يكون للأب في قلب ابنه مكان، صورة تبقى حتى لا يموت من ولد هباء لم يحن على معاناته أحد.

العيال يطيرون في الجرن على سيقان نحيلة سوداء، يطيرون غير مبالين بهموم الآباء. وهؤلاء هنا قبالة المقام. كل قلب رهين بما يملكه في الجرن وفي الزريبة. وفي الحقل تتحول الأوقات والحيوات ولا تتحول الأملاك.

يأوي الناس آخر المساء إلى قيعان الدور. لا بأس بالظلمة، ففي كل قلب بعض من نور الفانوس مؤنسه ويهدهده للنوم. وما يكاد الواحد ينعس حتى يستعيده من غيابة الحلم واجب الصحو، يسرحون إلى الحقول حين تكون الباحة مختومة بالندى وجريد النخل ساكن صامت والقبة جاثمة مكينة. تنطبع العلامات على التراب الندي أقدامًا وأظلافا وحوافر، عريانة بردانة مصممة مولية ظهرها للمقام، العيون عكرة حرْدانة، والكلمات موجزة مبتورة. أهي رداة المزاج الصبحية، أم نوء القلب بواجب العمل الثقيل؟ أم هو ذلك القهر الذي يبيت به الإنسان، فإذا قام إلى النهار كان القهر الذي بات به قد تحول في الصبح إلى عزم قاطع حزين؟

فإذا ما خرج الناس ببهائمهم من حارة عبد الحافظ فإنهم صاعدون إلى ترعة الباشا. تمشي زرافات الخلق والبهائم تحت الجميزات والصفصافات. كل آن يميل واحد على حقله، لكن منهم ناس فرادى بلا بهجة ولا حقل، أولئك يمشون لا يلوون على شيء حتى السراي، مباني إدارة الزراعة في دائرة الباشا. هناك يجلسون تحت أشجار الطلح حتى يأتي الكاتب يسجل الأسماء وحتى يأتي الناظر يوزع الرجال والنساء على الخُول. يأخذ كل خولي جماعة منهم، ويمضي بهم إلى

مقطوع عليه من العمل. يسلمون أنفسهم للكد حتى تستهلك العافية ويخبو الحرد، ويكون الحنين إلى كنّ الباحة حول المقام.

والواحد من أهل الكفر إذ يثوب من عمله في دائرة الباشا، يأتي معه في عظامه وعضله في روحه ونفسه وعقله: التعب، وسؤال عن الباشا، ما هو؟ أهو نبحات قلب وابور الماء التي ترددها الآفاق؟ أهو ذلك الامتداد من أرض الجفالك الشاسع في الجهات الأربع، أهو تلك القسوة في قلوب الناظر والكاتب والخُول؟ أم هو سوقهم الناس بالعسْف والإهانة؟ أهو الكبرياء في ملامح شيخ الكفر وتلك الصفرة في جبينه؟ أم هو ذلك الفارس الذي يبدو فجأة في الأفق طائرًا على حصانه الأبيض في شمس باهرة؟ أم أنه ذلك كله في تداخل عويص لا يعرف كيف يكرهه وقد لقن أن يحبه ويهابه ويخشى بدواته.

الباشا سرّ، وأحمد أبو حسين شيخ الكفر خادم هذا السر، بهذا تشيَّخ، وبهذا تشيخ آباؤه، وبهذا أذْعن له الناس فإن الخوف نقص بني الإنسان. أن ينظر في نفسه ويعرف مقدار نقصه، ويتعلم أن يعيش به، وأن يعيش معه، وعلى الإنسان أن ينظر حوله ليعرف موقعه من نظام مبني من الخوف والجسارة، ثم يضع نفسه في هذا النظام حيث يليق به. فإذا ما أذِّن لتلك اللحظة العجيبة في الأوقات، وارتدى شيخ الكفر جلبابه الكبير، فليعلم الناس أنه مسافر، وليحذروا الفضول والجسّ ويكفُّوا التساؤل والتلفت، ويلبثوا ويقرُّوا حتى يثوب المسافر فإذا آب فلا سؤال، وليحمدوا أنهم رُفع عنهم إصر الانتظار.

على أن الواحد لو لم يعمل في دائرة الباشا فإن له حقلاً يحمله بالهموم ويستذله في المواسم، ويربط عقله وقلبه وروحه بدوْرة الأفلاك وتغير

الأوقات واختلاف الريح وتعاقب الحر والبرد والشتاء والصيف. تلك حكمة أبيدة حاصلها تجاوب السماء والأرض، تجاوب القول والفهم. والناس مقدور عليهم أن يكدحوا حتى يدركوا الدلالات الغامضة والإشارات المبهمة. تضع الحب في بطن الثرى، لا تدري إن كنت بكّرت أم تأخرت، تسقي لا تدري إن كنت أغرقت أم عطّشت، بل ترقب، تتضرع للسر، ترهف السمع للنجوى، تعتبر الرموز والكنايات خائفًا أن يعَمَّى عليك فيحبط سعيك، ويفشل قصدك ويبور زرعك.

يأخذ الرجل بهيمته من قعودها وقيودها ويمضي بها إلى حقله، يسخرها في شغله، ويحملها نصف همه وليس لديه ما يكفي لعلفها، ولا ما يعزيها إن كبست على فؤادها لوعة الوحشة. يمضي بها تتبعه خائرة مهزولة ساقطة الهامة، تحيطه بصمت عميق يشبه جبا مسكونة بلا قرار. تجعل البهيمة عينها على ظهر صاحبها في السُّروح وفي الرواح، فإذا التفت لها فجأة ثبتت له العينان الزجاجيتان ولم تهربا. تحدقان بالملامة، ملامة موجعة.

تعتل البهيمتان بالنير على كتفيهما وتكدحان في الأرض الطرية بخطوات شاقة عسيرة. الرجل يقبض بكلتا يديه على قائم المحراث، يجاهد وسعه لا يدع القائم يميل فينحرف السلاح وينعوج الخط. المرأة خلف زوجها تأخذ حبات بذور مبلولة من زنبيل على رأسها وتلقي بها واحدة وراء الأخرى في الشقّ، ينضم عليها الشفران في احتضان ناعم دفيء على الأرض المحروثة. تسقط طيور مالك الحزين المتعالية الحنائية الظهور، وكذلك الهداهد المرقشة المتباهية بريشات تاجها وطيور الفتاح الخفيفة المرحة المتقافزة، وعلى البعد توجد الغربان غير

مرغوبة وغير متجانسة. مائدة حافلة من ديدان الأرض والجراد الذي فزع من مراقده على بقايا سيقان المحصول، قراق ونبضات وصيء متناغم وغير متناغم.

قدما المرأة الخشنتان السوداوان بالوساخة ينعمان بوثارة الثرى يقعان عليه في رفق وشوق. قدما الرجل تسقطان على الأرض بعنف تحملان ثقل جسمه المتصلب في كدحه لدعم قائم المحراث حتى ينتصب معتدلا. أخلاف البهيمين ما تعلو حتى تنغرس في الأرض تجر جسمها وحملها. الإيقاع ساخن عرقان منتظم رصين. داخله ضربات نافرة متقاطعة عصبية مجهدة تختفي لتظهر على حين فجأة، لتعانق أو لترطم سحبات طويلة من خشب المحراث أو تنهدات التعب. لكن الإيقاع يبقى طقوسيا ومتقدما ببطء.

تنظر المرأة إلى ظهر زوجها والرجل يُنَقّل بصره بين سلاح المحراث وعيني البهيمة اللتين تحدقان فيه متسائلتين، يبادلها النظرة معاتبا وينادي عليهما بأصوات طويلة عميقة مستحثة، يتقدم المحراث تحت شمس مشرقة. الجزء المحروث مثل بساط أسمر يمتد رويدًا رويدًا على اصفرار الأرض المروية.

في بؤونة يزرع الذرة، وفي برمهات يُزرع القطن، وفي هاتور يزرع القمح والشعير والفول والبرسيم والحلبة. فإذا ما حبلت الأرض بسرّ البذرة، فإن الناس موكولون بخدمة السرّ في خلوص وورع وتقوى. يعملون بالفأس، يُديرون الطنبور للسقيا، يرعون العيدان، وينقون عنها الخائب، والطفيلي. هكذا في دأب مُرهق إلى محصول لا يسدّ عوزًا ولا يشبع حاجة. دورة العام وتعاقب الفصول والمواسم. يسلمون

أنفسهم للكد حتى تُستهلك العافية ويخبو الحرد، ويكون الحنين إلى كنٍّ الباحة حول المقام.

والواحد من أهل الكفر إذ يئوب من عمل اليوم يأتي معه في عظامه وعضله، في روحه ونفسه وعقله: التعب، وسؤال عن الدنيا، ما هي؟ إنها ابتعاد الأمل المنشود خطوه، كلما قطعت في الطريق الصعب نحوه خطوة! يظل الواحد يأمل ويخيب، يطمح ويحبط، يشتاق وينتكس، يتمنى ويخاف، في دوْرة شقية من الولادة وحتى الموت. والكفر مقدور أن تؤخذ عليه الآفاق من الشرق بدائرة الباشا ومن الغرب بأهل القرى، فما الجدوى؟ إنها وعد بهم مخفي في طيات الغيب، إذا أذن له كان درك وصول وتحقق. بهذا يحيا الناس، وفي الشقوة يعرفون الفرح. يضحكون في مجلسهم. الشيخ هو الأمان في شدّة الخوف. هو الأفق الذي بلا غيمة. هو الجوهر الذي لا يعدو عليه التغير.

فإذا كان المساء هبطت على الباحة عتامة الظلال من حجم القبة الفخيم، ومن الدور وأهداب الحطب، ومن هامات النخيل تعشعش فيها الظلمة. عندئذ يوقد الفانوس في جوف الضريح، فيخرج النور من أربعة الشبابيك على الجهات الأربع. تكون الباحة كل مساء حلمًا من الظل والنور تمحو وثارته ما كان من كلاحة النهار وقشفه، وتكسو الأشياء نعومة مخملية. كيف يكون المساء دون شيخ ينير ضريحه من داخله الفانوس؟ ولِمَ السؤال؟ أهو خوف؟ نابع من الظل، أم من الضوء؟ أم من منطقة حلمية سحيقة يتساوى فيها الحالان؟

يخرج الناس من الدور إلى الباحة في المساء. البطون ملأى بعشاء من الطبيخ بعد يوم عمل شاق. والطبيخ في هذا الوقت من السنة يكون

دائمًا دميسًا أو بصارًا أو نابتًا أو مفصّصية أو ما شاء الله مما تبتدعه النساء وترزأ به كروش الرجال. نعم، إنه برمودة اللعين. ما إن يدرس الفول ويخزن إلا وتنسى النساء ماعداه من بقل وخضار، ويعكفن على نافخ البطون هذا يملأن به قدور الطبيخ كل يوم بلا ملال. فإن ضجر الزوج والعيال استبدل بصار بدميس، والصنف واحد في عبئه على البطن والعقل والروح. فإن كان زعيق وعراك أضافت المرأة للطبخة سَفّة من الفلفل الأحمر فتكون نكهة ولونًا يسوغ الطعام للآكلين، ويجعل مغبته عليهم أليمة موجعة. يخرج الناس من الدور إلى الباحة، كلٌّ في مجلس الرجال شبعان ممتلئ، منتفخ متجشئ، ساخط على امرأته، وعلى زيجته المشئومة التعسة. وكل في مجلس النساء ساخطة على أيامها، وعلى رجل رُزئت به خائب فاشل أينما توجه لا يأتي بخير، لكنه في المساء متأفّف نبِّق، يزعق ويشتم، ولا يعجبه شيء. لكن امتلاء المعدات يضغط لا محالة على الأمعاء بالوجع، ولا بد من نشدان الخلاء.

ينسربون من حارة الزعايرة إلى الجرن. شيء من نور الفانوس في كل قلب ينوره حتى ليجد الهدى في الظلمة. يتفرقون في الفجاج الليلية، جماعات من الرجال وجماعات من النساء، كومات سمراء مطموسة الملامح. يتحلقون متعرين كل جماعة في حلقة. يتخلص الواحد من ثقل كرشه، ووجع بطنه، في ساعة كابوسية ملذة تحلّق فيها الأحاديث، وتتجاوز التخوم إلى تجريب السعادة، لألاء النجوم وألق السماء يتقبّبان فوق ظلال الأرض الكهفية، ويلتقيان ـ المضيء والمعتم ـ عند حدود الشوف.

أول الحقول عند آخر الجرن. فرن الكفر في الناحية الأخرى. كل

ظل، وكل خفاء، مسكون بتهامس غامض. أهو تخيل الليل الذي بلا نهاية، وأسرار القلب التي بلا حدود؟ أم أن كل حنْية وراءها خبر، وكل ظل يستر سرًّا؟ لا أحد يسأل. وحتى إذا صمت الخلاء، ونفذ السمع، وشفّت الكتل، وكُشِف البصر، لا يسأل أحد من هي، ولا من هو، ولا أين الزوج أو الأخ أو الأب؟ ضوء الفانوس يعمر القلوب المتفرقة في العتامة كأنه ابتسام مترقرق يحول دون أن يتكور القلق أو أن تجتمع النفس على غضبة أو العضل على فزْعة. الحدود ذائبة منداحة في سرور مترجرج، والخلاء كأنه حضن الشيخ، والناس فيه كجراء الكلبة، يتمرغون سمانا ناعمين، ويرضعون عميانا غائبين، تاركين الكائن إلى ما ينبغي أن يكون، مغمضين عن الحقيقة نشدانا للحقيقة، هي من النهار المساء، ومن حبس الباحة رحابة الجرن، ومن الانصياع المخالفة، ومن ملالة الاستقامة لذاذة الحرد والمعصية. يتهامسون في حلقة الرجال. فاطمة تعشق محمود بن طراوة. يا ولاد سيدي سليم! إنها امرأة عبْلة ناعمة، والولد ناشف كفرع السنط. يتقافز في الليل على حطب العريش خفيفا كقط لا يُسمع له حسّ، حتى يهبط وسط الدار، يثب على المرأة، يكبش في كنز من لحم محروم مشتاق يا سيدي سليم! ويقولون إن حسن زوج فاطمة يسمع شخير امرأته ولهاث الزاني بها في الليل، يسمع حسن ولا يقوم؛ تعجزه العلة وخوف الفضيحة! فضيحة؟ فضيحة ماذا؟ أن تقول له امرأته حقيقته في وجهه، وأنه رخو عنّين؟ ربما! لكن أتعرف من أمر محمد بن عبد المعطي وحياة؟ يمرّ الجدع بجماعة الأزعر لا يلتفت ناحيتهم، لكنه يرى حياة وهي تراه؛ فإذا ما انحرف في حارة الزعايرة لحقت به البنت إن رأته يلج دارهم، وهناك تُنيله من نفسها ما يشاء! أتراه يتزوّجها؟ لا! إنه فقط

يقضي منها وطرًا! فهو مقتول في حبّ عسل! عسل! يا سيدي سليم! تلك هي الموّال الفريد الذي جُمع من النفس وأشواق العمر والآهات الحرى في لحن! تلك ليست لابن عبد المعطي، بل لـ«محمد» أفندي، لو كان في رأس هذه الدنيا عقل! تكون له كما كانت صبْر لشيخ الكفر القديم! لكن ذلك لمْ يكن زواجًا يا سيدي، بل كان عشرة وعشقًا. ومحمد أفندي مولع بامرأة في طنطا يقولون إنها مغنية أو غزية، وإنها امرأة لم يخطر على بال الدهر مثيلها! ثم إن قلب عسل أبعد من نجمة السّها، يمر بها الجدعان تبادلهم التحية من ثغر بسّام وملامح وسيمة صافية، لم تطف بها في عمرها سحابة عشق.

يذهب ابن عبد المعطي بذلة إلى حياة، تخدمه وهو المتعالي، تتيح له نفسها وهو المتأفف الزاهد. يقوم من عليها يذهب بوجيعته إلى امرأة مصيلحي تسمع له كأم!! أمّ؟! إن المرأة ليست عجوزا إلى هذا الحد. ولعل لحمها يحن إلى ريّ في ساعدي الشاب وصدره لا يجدهما عند المصيلحي الخشن الأعجف الذي لا تليق به إلا عمياء المقابر التي شغفت به وشغف بها. لا أحد يعلم، الشيطان شاطر على كل حال. يقولون تخفت الأصوات حتى تغدو مجرد أنفاس دافئة، تنفخ الروح في تصاوير غامضة، وأفعال ملهوجة، ومخاوف لاهثة عرقانة تتصوّر رغبًا ورهبًا. من الذي أثم؟ الذي كان هناك؟ أم الذي كان بشوْقه فقط هناك؟ الفاعل؟ أم ناقل الخبر؟ أم الذي استمع له؟ لينظر كل واحد في يده، سيجدها مبلولة إن بالفعل أو بالمنى، وسيجد النعمة في قلبه، نعمة هي من المساء رحلة الجرن، ومن الليل الحلم، ومن الحقيقة الحقيقة، ومن الكائن ما ينبغي أن يكون.

ويتهامسن في حلقة النساء. فاطمة تعشق محمود بن طراوة. المرأة قلب محروم توّاق، والولد في عينيه اليُتم، وفي روحه العذاب، وحسن مؤذ سليط، يسقى امرأته السمّ بجريرتها. آه لو عرف أنه لا فكاك من المكتُوب، وأن فاطمة لا تملك إلا أن تدور خلف الولد ملتاعة. لكنّ الرجال لا يعرفون، وهم مولعون بالإيذاء. انظرن إلى محمد بن عبد المعطي، وكيف يُسيم حياة بنت الأزعر المذلة، وهي لا تستطيع إلا أن تتبعه ككلبة. آه يا سيدي سليم، لماذا قدرت على النساء العشق والألم؟ وبعد فلن يتزوج الولد البنت، إنه فقط يقضي منها وطرًا، فهو مقتول في حب عسل! عسل! تلك هي الصورة، فرحة القلب وبلسم الجروح! يا سيدي سليم! من أجل عسل تستطيب النساء الوجع والحبل والولادة! تلك ليست لابن عبد المعطي، بل لـ«محمد» أفندي لو كان في رأس هذه الدنيا عقل! تكون له كما كانت صبْر لشيخ الكفر القديم! زواجًا أو عشرة وعشقًا، لا يهم! في كل حال يكون فرح تفنى فيه النساء بهجة القلوب. لكنهن سمعن أن محمد أفندي مولع بامرأة في طنطا مغنية أو غزية! يتساءلن: كيف أمالت قلبه ورأسه؟ لا بد أنها سحرت له، وكادت، وكتبت! المسكين! يحكين أن الواحدة إذا مالت عليه، جلست إليه على الحصير قُدّام دكانه تسأله عيار زيت، أو نصف ثمنة حلبة، تقول وترجو وعيناها لا تفارقان قدميه، نظيفتان على الحصير كقدمي رضيع. تتمنى الواحدة لو تحسستها أو أخذتها على خدها. يدفن بينهن ضحكات جزلى. هل تليق بـ«محمد» أفندي إلا عسل؟ لكن هذه قلبها أبعد من نجمة السُّها، يمرّ بها الجدعان تبادلهم التحية من ثغر بسام، وملامح وسيمة صافية، لم تطف بها في عمرها سحابة عشق.

يذهب ابن عبد المعطي بذلة إلى حياة، وما لم يسعه أن ينزله بـ«عسل» ينزله بـ«حياة»، وما لم تمكنه منه هذه تتيحه له تلك، يذهب عنها وفي قلبه هزيمة عسل إلى امرأة المصيلحي، تسمع له كأم!! أم؟ إنها بعد مليحة فتية. وهل الشوق إلى ري في سواعد الشباب وصدورهم عيب؟ وهل يشيخ الشوق إن ابيض الشعر؟ وهل تجد كلبة متاعا لدى المصيلحي الخشن الأعجف الذي لا تليق به إلا عمياء المقابر..؟ يقلن، تخفت الأصوات حتى تغدُو مجرد أنفاس دافئة تنفخ الروح في تصاوير عذبة كالمنى، ومخاوف متربصة منقضة. من الذي أثم؟ التي رماها المكتوب؟ أم التي حسدتها؟ أم التي غبطتها؟ أم التي بكت عليها؟ لتنظر كل واحدة في جبينها! مكتوب مكتوب وإن غمضت سطور الكتابة! وفي كل قلب العشق أو الشوق إلى العشق. نعمة هي من المساء رحلة الجرن، ومن الليل الحلم، ومن الحقيقة الحقيقة، ومن الكائن ما ينبغي أن يكون.

ثم يئوبون من الجرن إلى الباحة عبر حارة الزعايرة، تحت الهدوم بلولة مخفية، في القلوب والأجسام. لكل جسم رائحة الفعل الذي قارفه، ولكل قلب رائحة الشوق الذي أضناه. لكن الكل مرتاح بالخلاص. فراغ في العقول والقلوب والكلمات. فراغ يجذب إليه المخاوف كما تجذب الماء الأرض العطشانة، فيكون ذلك التوجّس الذي يملأ النفوس في هذه القيلولة. ينظرون. الجالس تحت زغلولة المصيلحي يرى حارة أبي حسين، لا يحجب مدخلها عنه حجم المقام.

هي حارة نظيفة لا يطرقها الخلق ببهائمهم ذاهبين إلى حقولهم أو آيبين منها، ولا تُطلق الفراخ، ولا يلعب العيال، ولا تُبنى المصاطب! إنما

يمشي المارة من باحة المقام حتى الخلاء جنب شبابيك دار شيخ الكفر ذات العمدان الحديدية، واحدًا بعد واحد، متتابعة صلدة عليها غبرة، لا يملك السائر إلا أن يرامقها حذرًا، لا يجد عزاء إلا في ألوان حيطان دار أحمد الديب البهية على اليسار. عزاء موجز، يقسر السائر بعده بسر الكآبة على أن يظل يقيس مسافة بعده عن حيطان دار الشيخ.

والناس من أهل الكفر لا يجوزون حارة أبي حسين إلا إذا كانوا مثقلي القلوب بعزم على رحلة بعيدة. يقرئ الواحد السلام شيخ الكفر الجالس على المصطبة البحرية قدام داره قبالة ترعة الباشا، وعند قدميه شوربجي الأعور الخفير على حجره بندقيته. ثم إن الراحل يغمض عيني قلبه، ويترك نفسه للعزم المقدور، للخلاء والمسافة، للبعد والاغتراب، ليس للمفارق من هدْى ولا عون إلا سرّ سيدي سليم.

حارة أبي حسين هي السكّة لمن يبغى المستشفى في القرية الكبيرة، ولمن ينشد العارفين والكاتبين والحكماء في القرى الأخرى. نعم، يخرج المريض في طلب الطب إذا قصُر علم المصيلحي عن دواء الداء، وغلاب العلة. عندئذ يسند المريض ذووه من يمين وشمال، سائرًا كان أو على مطيّة يمشي قطارهُم الرثّ، معقود الصُّرر على زاد الطريق، والمناديل على القروش القليلة، وفي الأيدي القناني الوسخة مسدودة بقوالح الذرة. وإذا ما احمر الشفق رأيتهم راجعين. يعودون وفي الجيوب والأيدي أحجبة ووصفات، وفي القناني سوائل مختلفة الألوان رديئة الطعوم، وفي القلوب رجاء، ربما!

ما المرض؟ صه! لا تسأل! ذلك لا ينبغي، ولا أن تشير للأمر من قريب أو من بعيد، ولا أن تتفكر فيه. العلة قدر متربص، ريح

سوداء متعلقة في حبات الهواء بمخالب لا ترى، أو مختبئة في شقوق من الأرض لا يخترق ظلمتها بصر. لكنها على كل حال لها مسالك إلى القلب والدماغ والحشا، فإذا ما اخترقت سكنت هناك كامنة مستوفزة متحفزة. وربما هي كلمة أو لفتة أو إيماءة، أكلة أو شربة، فعلة أو امتناعة ثم يندلق المرض على الواحد كأنما من حلق جرّه. فلا تسأل، ولا تخلط إذا تكلمت، ولا ينتفخ حلقك من الزعيق، وسمِّ الشيخ إذا أكلت أو شربت، دخلت أو خرجت، أقْدمت أو أحجمت. وامش في الأرض متحسبًا متحذرًا.

إنك لا تدري إن كان الشيخ وراءك أو قُدامك، أو أنك تدوس على طرف ثوبه أو تأخذ عليه طريقه. إنه إذن ضائق بك، ودافعك، وضاربك بالوجع لا تقوم لك منه قائمة. فاجهرْ باسم سيدي سليم إذا صمتت حولك الدنيا يعرف مطرحك ويجتبيك. وافرح بالصبح إذا قمت من نومك معافى. وإذا آويت إلى مضجعك فلا تأمن هدأة الليل إن النائم فريسة سهلة للرياح السود. فيكون الصداع والكآبة. وسوداوية المزاج، وانحطاط الهمة، وتدهور الجسم. ويكون وجع الجنب واحتباس البول، ويكون وجع البطن وانتفاخ الكرش وفساد الريق، ويكون السعال والهزال، ويكون تورم الأطراف، وتكون الحمى. عندئذ يسخن الدماغ، ويرتعد الجسم من البرد، ويزيغ البصر، ويفسد الريق، وتغثى النفس، وتسيخ الروح، وتختلط الرؤى وتضطرب. ما يكاد المريض يبل حتى يقع. وهكذا تتداول عليه النوبات حتى يضنى ويذوي، وتصغر الدنيا في عينيه، وينتفخ كرشه، وتكون كل خطوة يمشيها مقربة له من القبر. ماذا يسع المصيلحي أن يفعل؟ يحبس نفسه في الضريح متبتلاً متضرعًا سائلا مسترحمًا، ثم يخرج إلى المريض،

يطبخ الوصفات، ويكتب الأحجبة ويقرأ على الماء يرشه على الأعتاب، ويكوي ويحْزم، لكن علمه قليل والخروج إلى المستشفى الكبير في القرية أو إلى العارفين والكاتبين والحكماء في القرى الأخرى أمر محتوم.

فإذا قدر على الواحد المرض فقد قدرت عليه الرحلة في طلب الطب. وهكذا تكون وجيعة الاغتراب من تباريح العلة وعناها، وتكون «عزازة» البرء عقابا ـ ربما ـ على إسلام النفس للغرباء. هكذا يشفق الناس على صبْر وهي تخطو خارجة من دارها جسدًا متداعيًا يتسنّد، يحمل بين الكتفين رأسًا مصدوعًا حار في علته الحكماء، وصبر بعْدُ تنافح عن نفسها، ما تثوب حتى ترحل من جديد. والناس من مجلسهم تحت نخلة المصيلحي يعرفون رحيلها وإيابها، يكون صمت لُبّه وقشرته اليأس. ويعرفون خروج حسن زوج فاطمة الذي ابتلي بما لم يُبتل به أحد في الأولين ولا في الآخرين. يخرجُ ويعود في إلحاح مرعوب كطائر مرعوب في فخّ يُنافح ليفلفص رقبته من مخنقة القتل. لكن الدنيا فيها المرض وفيها الموت. آفتان أعتى من العقاقير وحروف الكتابة، من الكي والحُزام. لكن ما الموت؟

ذلك سر يملكه الذين قالوا. وهم به ما عدموا، لكنهم تبدّلوا يضربون في الأرض بين ظهرانينا، يتجاوزُون المكنات، ويتعالون على العجز، ويضيقون بالقصور، ويريدون الأمثل، ولا يغفرون الزلّة، ويسرعون بالإيذاء. ذلك عالم الموتى، عالم آخر، مزدحم مكتظ، قادر باطش، لا يهن ولا يعتل، ولا يدنو ولا يسفُل، ولا يتدنس ولا يتسخ. عالم مخيف، يأخذ على حيواتنا المنافذ والمسالك، يحيطها ويقسرها على صراطه المستقيم، يريد أن يلتحم بجرثومة الموت في قلبها ليعدم الهوان،

والاعتدال، والدنو، والتسفل، والدنس والوساخة، ليعدم الحياة. كلما مات واحد اقترب الواحد من الموت خطوة. فانظر إلى اخضرار العود نضرا في شجرة حيواتنا، وافتكر في آفة تضري من داخله حتى تذويه وتأخذه روحًا طائفة إلى عالم الموتى، نخافه بنضرة الحياة فينا، وننجذب إليه بسرّ الموت في داخلنا.

فالمأتم عرس زواج المجهول فينا بالمجهول خارجنا، احتفال بتجربة الاقتراب من المجهولين حتى مشارفة طلْسمها الأبدي. وإلى مصيلحي طقوس الغسل والكفن، وإلى امرأته التعديد والندبة. ولولا الحظر لدفن الناس من أهل الكفر موتاهم في عرصات دورهم. لكنهم مجبرون على حملهم حتى مقبرة ملحقة بمدافن القرية الكبيرة. حينئذ يسير موكب الجنازة حتى الكوبري على المصرف الكبير. وبعد ذلك يترك النعش لحملة يُسرعون به إلى مثواه الأخير، ثم يثوبون. يعلمون أن قبر الميت في الحق إنما هو قلوب من يبكونه من بعده. وليس أبكى من ثاكلات الكفر تسربن ملفوفات في الهدم السود. يدعوهن ظهر الخميس إلى دار المصيلحي. على رأس كل واحدة صرة فيها كعكات الرحمة. يخرج المصيلحي من باب داره، وخلفه الموكب الهزيل. عمامة الرجل الحمراء على رأسه في أشد حالاتها حزنًا، كابية زرية، ووجهه أشدّ ما يكون عبوسًا وكمدا، وفي يده عصاه. يقف هنيهة قبالة المقام. صاحب الضريح هو الوصلة بين عالم الأحياء وعالم الموتى، وهو نظام العالمين وملاكهما. يحيي المصيلحي، ويطلب الإذن.

فإذا ما كان فالرحلة تبدأ بضرب الأرض بسن العصا في عصبية، ثم يكون ريْث متوتر مشحون، ثم تتحرك الأقدام في لهوجة من مجلس

الرجال تحت الزغلولة يرقبون ظهرًا ناحلاً محدودبا وأقداما تكدح الأرض. من هنا وهناك تسمع من يدعو، يوصي بسُقيا الصبار، أو سدّ حفرة، أو إقامة شاهد سقط. الرجال يحوشون أنفسهم عن زيارة قبور موتاهم، ومصيلحي يأخذ على عاتقه أن يؤنس وحشة هؤلاء في القبر والمنفى بعيدًا عن الكفر. يمشي الرجل على رأس الثاكلات كل خميس حتى هناك. وفي المساء يئوب. يقرأ الناس على ملامح وجهه وقائع رحلته ولا يسألونه. المقبرة بعيدة، والسكة إليها غير أنيسة، وإليه سرها، فعن أي شيء يسأل؟ تغيّبهُ حارة أبي حسين، ومنها يخرج إذا رجع عليه غبار الطريق، ووعثاء الرحلة. وإذ يغرق الواحد في الفكر، يكون في روحه ابتسام مرتجف أو مشفق. لكن الواحد ينفض عن نفسه الكآبة ـ مثلما ينفض الكلب عن فروته ماء المطر ـ وينطلق. فإنه لا فرار عن الموت، ولا من الحياة. ومن يولد يموت. وفيما بينهما مقدور عليه ـ ومن حارة أبي حسين أيضًا ـ أن يذهب إلى السوق، بما في ذلك من فرح ومن حزن. فلا تسلْ عن الكفر، ولا عن ناس الكفر صباح السبت إذا عقدت القرية الكبيرة سوقها الكبير.

عصر الجمعة يقترب مجلسا الرجال والنساء تحت الزغْلولة حتى يوشكا أن يلتحما. الهمّ شركة، والرأي شركة، يستوي إن كان الواحد عازمًا على البيع، أو كان عازمًا على الشراء، يستوي إن كان رجلاً أو امرأة. الكلمات مبهورة ملهوجة، وهي محتدمة زاعقة، تظل تدور حول معنى مثير ومبهج، حتى ليوشك أن يكون داعرًا، معنى خاص جدًّا، وكامن في المتاجرة والبيع والشراء.

عصر الجمعة ينظر الناس من مجلسهم إلى الأزعر قدام صينية

الحلوى، وعن يمينه وشماله ابنته وزوجته. لا تنخدع عين بالهدوء الشامل. يعرفون أن تحته عزمًا أكيدا. صباح السبت سيمشي الأزعر ووراءه ابنته حياة حاملة الصينية على رأسها، وخلفها أمها تحمل القفة الكبيرة فارغة مستعدة للامتلاء بالكيزان والأرغفة. يذهبون بموكبهم هذا كل سبت إلى السوق. يبيعون ويشترون، ثم يعودون وقد امتلأت القفة، وازدادت الصينية حفولا، وألوان الحلوى ازدهاء. وفي ذلك لا يترك السوق على روح الأزعر بصمة، ولا على ملامحه سحابة.

أما محمد أفندي فهو رجل استألف السوق كما استألف الحافظ سطور الكتابة، يضع الخرج فارغًا صباح كل سبت على ظهر حمارتهم البيضاء الشاهقة، ثم يجلس عليه متربعًا نظيف الكعبين، وفي يده كتابه مفتوحا على ذات الصفحة. وفي العصر يعود الشاب وقد امتلأ الخرج وصاحبه ما زال رصين الحركة هادئ الملامح، نظيف الكعبين. يرمُق الناس تحت النخلة الرجلين. ويفتكرون «صبر» في غرفتها العلوية. كيف يكون صباح السبت دون طلعة النوارة مكحولة ريانة فواحة عليها حرير الثوب والطرحة، وفي تحيتها ومشيتها العزم على السوق. هناك تشتري كحلها وحناءها وعطرها، وتشتري إبرها وخيوطها، والزينة من كلّ لون لما تخيطه من جلابيب البنات. لعله لا تحوش صبر العلة عن سوق غد. إذن لكان على مصيلحي أن يقطع السكة إلى محلة البيع والشراء دون رفقة النوارة. إنه يتقلق على تراب الطريق متفزعا عديم الصبر كالفتاح، توشك قدماه ألا تعلم على الأرض علامة. لكن حكايات الرفيقة تظل إيقاعًا منظمًا لانفعالاته المهتاجة، وسياقا لاضطراد فكره ونسقًا لتصوراته ورؤاه. في السوق يعرف مصيلحي ما يلزمه لمرضاه من الخلق والبهائم من عقاقير، ويعرف من يقصدهم من العطارين.

لكن صبر تصحبه، تسأل وتساوم له، تشمّ الجواهر، وتمتحنها بعينيها، ولسانها، وأصابعها، فإن قالت نعم فإن البيعة رابحة.

يعود كل واحد إلى داره مساء الجمعة وقد حمل معه في قلبه من المجلس ما قسم له. ثم يكون الواحد في مقر داره وحيدًا. اسم الشيخ طب رجفة القلب وارتعاشه اليد. الباب مغلق على السر لكن لا تصدق! الأسرار كالهواء، فهل ثمة من حبس الهواء؟ هل ثمة من لا يعرف أن أهل الكفر يضعون في قلب كرات الزبد المعدة للبيع في السوق كرات صغيرة من العجين، ويملئون حوْصلات الدجاجات بالماء والحب لتبدو لمشتريها كبيرة سمينة، ويغيرون هيئات الطيور المسروقة بنتف بعض ريشها، ويصبغون الحمير فتضلل الصبغة الرجل عن حمارته التي كانت في داره سنينًا، ويخلطون الحبّ بالتراب، ويتركون البهائم تبيت بحلابها لتبدو صبح السبت حلوبًا مُدرّة؟! فإذا ما تمت المؤامرة وحبكت المكيدة فإن القلب ليتناوبه الخوف والفرح في لحظات عجيبة طبها سيدي سليم، وأن يأتي الرجل امرأته. النساء ليلة السوق لينات مطاوعات حنانات، والرجال مشغوفون ملهوفون. ويليل الليل والمصباح ساهر في قبر الشيخ، مفروش نوره من أربعة الشبابيك على أرض الباحة حول المقام.

وفي صباح السبت المبكر يخرجون. يجوزون حارة أبي حسين جسورين حتى الخلاء. يمشون على جسر ترعة الباشا، لا يشرِّقون في اتجاه الحقول والدائرة، بل يغرِّبون في اتجاه الكوبري على المصرف الكبير. ثم يميل منهم يمينًا ويواصل طريقه من يريد محلة السوق، وأكثرهم يقعد للمتسوِّقين من أهل القرى جنب السكة يعرضون عليهم ما معهم،

يبيعون ويشترون ويبادلون. المتسوقون من قرى الناحية ينظرون إلى أهل الكفر مرتابين، ويقلبون في بضاعتهم متفحصين، ويمسكون عنهم ما معهم متخوفين. ومن المشترين من يعرف الغش، ومن البائعين من يكشف الخديعة، ومن أصحاب المال من يتعرف على ماله المسروق. حينئذ يكون زعيق وعراك يعلم سيدي سليم كيف ينتهي. لكن من الصفقات ما يعقد تحت الشمس وسطوع التراب.

ما ينتصف النهار حتى يكون الأمر في اليوم قد انحسم، من باع باع، ومن بارت بضاعته أو ضبط بسرقته يعود. الخاسر والكسبان يجمعهما المجلس تحت زغلولة المصيلحي، وحديث زاعق، غاضب وضاحك. يضحك الذي كسب، والذي خسر أو انفضح بسرقته، والذي تعارك، والذي خفّ لنجدة أخيه، يضحك الذي ضُرب، والذي انضرب أيضًا، وبأعلى صوته. إنه على أي حال وسع الكثيرون أن يدبروا لعيالهم طبخة ربما تعوم على وجه قدْرها عُيون الدسم. يخرج الدخان من أبواب الدور المفتوحة، يُمزج الهواء برائحة الطبيخ. يُسيطر القلق على جوعانين يريدون أن يُدعوا للدار للعشاء.

ذلك يوم السّوق. أما يومنا هذا فهو شديد الحر. وهذه ساعة ظهرية زامتة خانقة. ومن جوف الهمود تبدو جسامة المقام. تتعلق العيون بالكتلة المقبلة المنقضّة حتى ليحسُّ الواحد بملمس طين الجدار على جبينه وكفيه الممدودتين. ما يوم السوق جنب سفرة إلى طنطا؟ سؤال لا يبحث عن إجابة بقدر ما يريد أن ينهي حديثا عن السوق طال حتى باخ، ويريد أن يخلق في المجلس صمتا، وفي القلوب لحديث آخر

إنصاتا. يسمع الناس السؤال ويكون صمت، ثم يكون لـ«طنطا» في القلوب شوق.

الكفر كائن في وهدة من وهاد هذه الدنيا سحيقة. لكن أهل الكفر في نهاية الأمر يرون نجوم السماء. وفي أماسي الخروج إلى الجرن تتملّى أنظار المتحلقين المتعرّين في الآفاق. والعيال الذين لعبوا حتى هدهم التعب، وآمادٌ شسعت حتى ما يَسَعُ الأفهام الغضّة أن تحيط بها. كل أولئك يرون أنوار المدائن على البعد ويهتفون: هذه ميت غمر! وتلك هي المحلة الكبرى! أما هذه فـ«طنطا» المدينة الجليلة!

تكون حكاية رحلة المصيلحي وصبر إلى طنطا قد حُكيت وحُكيت، ثم يلتئم المجلس تحت الزغلولة لتصبح الحكاية ذاتها مطلوبة مرغوبة. يحكي الرجل لا يُسمح له بنسيان تفصيلة مهما صغرت. وإن نسي ذكروه بما نسي. يسألون عن الأشياء وعما وراء الأشياء، ويفرحون بالجواب الذي سمعوه، وبالجواب الذي افترضوه لأنهم لم يجدوه. وبذلك تصبح الحكاية علمًا بـ«طنطا». علمًا يفجأ الذي رأى، ويسر الذي لم ير. تُطل صبْر من شباكها على المجلس ضاحكة، يزيط لظهورها الرجال والنساء والعيال؛ إلا محمد أفندي الذي لا يصرفه عن كتابه شيء، يرمقه الناس من مجلسهم، لا تكسف رصانته فرحتهم، وإن كانوا يعجبون.

كان الأفندي صبيا نحيلاً قشفًا كباقي العيال. ثم كان عصر يوم حدَّث فيه حسن أبو محمد الناس في مجلسهم عن عزمه على إرسال ابنه ليقرأ في طنطا. سمع الناس واجمين. وقبل أن ينصرم الأسبوع وضع الرجل الحِرام الصوف على برذعة الحمارة البيضاء العالية، وركب مُردفًا ابنه خلفه، واضعًا أمامه سلة الأزواد، ومشى في غبشة الصبح مسافرًا.

وفي المساء عاد دون ابنه، تركه للقراءة في المدينة، وترك له السلة وحرام الصوف. وفي الصيف عاد الولد أكثر شحوبا، وأقل وساخة. وهو من يومها يعود كل صيف، لكن ليس إلى الناس ولا إلى المقام. مفروشة المسافة بينه وبينهم بالوحشة وقلة الألفة.

وعليه فإنه لا محيص عن التسليم بأن طنطا التي يختلف إليها محمد أفندي مغايرة لتلك التي زارها مصيلحي وبرفقته صبر. هذه مليئة بالأعاجيب البهيجة، أما الأولى فملفوفة كسرٍّ كئيب يرى الواحد علامته في رصانة محمد أفندي الغامضة. لا تسلْ عن حلّ المسألة المعضلة، سيبقى الأمر في كل مدينة أنها هي وغيرها في آن، فاسأل الآيب الذي تُحب عن المدينة التي تحب، يأتيك هذا بذلك الخبر الذي يفرح به قلبك. كل يحمل في قلبه المدينة التي يختلف إليها إن سفرًا وإن حلمًا، والتي تتجلّى له مشاهدها، إن مُعاينة أو من فرط التشوّق. يختلف الناس ولا تتغير المدائن.

فإذا كان شيخ الكفر كثير الأسفار، فأي المدائن يزور؟ لا أحد يسأل! الشيخ على جبينه شحوب رمادي يكفّ الناس عن سؤاله. وطنطا التي ينزل بها لاتهم أحدًا. إنما تبقى المدينة في نهاية الأمر مزارًا يشاهده الواحد من أهل الكفر ويسأل عنه، يتملّاه أو يسمع به، ثم ينقلب من زيارته، أو من مجلس الناس إلى داره وفي قلبه وفي روحه نعمة، ورؤى بهية مضوّأة بضوْء الفانوس في قبر الشيخ، مفروش من أربعة شبابيك الضريح على أرض الباحة.

وطنطا التي يرحل إليها أهل القرى لا تهم من أهل الكفر أحدًا. بل إنه في مواسم تشتد غربة المدينة عليهم كأنها خرابة مهجورة، ويكرهونها

كراهية المحبّ محبوبته الخائنة. تحسّ قلوب الناس في الكفر بناس القرى وقد شدوا الرحال وحملوا الأزواد، وهووا نحو المدينة مقبلين من فجاج الأرض جميعها، منشدين مغنين، قاصدين الاحتفال بمولد السيد البدوي. تلك مواسم تحيط فيها الوحدة والوحشة بالكفر حتى الاختناق. فهو لا يجد في ذلك الفرح فرصته، وشيخه لا يمت إلى شيخ أهل القرى. غصب هذا جسم المدينة الجليلة وروحها، وملأها بزفارة أهل القرى ونتنهم. يحزن أهل الكفر ويكمدون حتى المذلة. لكنهم لا يسلمون مدينتهم، ولا يُقلعون عن حبها. إنها هناك رغم الدنس، وعلى الكفراوي أن يرى حقيقتها تحت الزيف، وأن يحب نورها الذي يراه على البعد يشع من جوهر قديم لا يُطمس صفاؤه أبدًا.

جوهر قوي ذكي حاذق متاجر. بسرّه يحشد الناس والأموال والأعراض إلى المدينة كل يوم اثنين من أركان المعمورة الأربعة، في سوق لا مثيل له في الدنيا، لا يسع حاسب ولا كاتب مهما بلغ من سعة العلم وحصافة الفن أن يحيط بالأموال التي يتداولها شهود السّوق بيعا وشراء، حسابًا وعدًّا. إن من شهد سوق طنطا مرة فقد عرف من الدنيا وعنها ما لا يتاح لغيره ولو عاش فوق عمره سبعة أعمار أخر. فأي رجل في الناس هو أحمد الديب، ذلك الذي له إلى طنطا سكة ميسّرة مسلوكة؟

كان ذلك مذ كانت له محروسة، ومن يوم قدمت من على المصرف الكبير يسبقها أزيز دولابها، ونعيب نفيرها. فلما دخلت الكفر صخّابة مقرقعة سيطرت على الناس الدهشة، وربما قليل من الخوف. انشغلت جماعة العيال بالأمر انشغالاً عميقًا. رابطوا في بطن ترعة الباشا قبالة

الشاحنة. تلك آلة جسيمة، وهي غريبة عجيبة، لامعة باهرة، واقفة قدام دار أحمد الديب، الخلق لا تتحول عن مراقبتها عيونهم.

ثم رويدًا رويدًا قربت المسافة بين العيال والشاحنة حتى تجاسروا على لمسها. ولما ولّد ملمس الحديد في جلودهم النفور، وفي قلوبهم العداء، طفقوا يخدشون الهيكل الجسيم بما وصل إلى أيديهم من حديدة أو حجر. فرّ محمود بن طراوة ووراءه العيال عندما رأوا شنّاوي السائق وقد جاء على صوت الخبط مذعورًا. لحق العيال بـ«محمود» ضاحكين. وضحك هذا لما تذكر علامته التي تركها على الخشب المطليّ. تفكّر أنه ربما يصادفها حسن صندوق العروسة في طنطا. ثم تساءل في نفسه، أترى يعرف حسن العلامة؟ إن الشاحنة إذن لتكون مرسالاً أمينًا منه إلى ذلك الصاحب القديم في غربته البعيدة!

ثم إن الشاحنة قدم العهد بها حتى أصبحت تشبه الكفر، متربة صدئة كالحة كإحدى الدور المحيطة بالمقام. والناس ألفوها وعرفوا عنها. إن سرها إلى صاحبها أو إلى من يعرف دولابها، يعيدها إلى الحياة بفعلة. وإذن يكون لها صخب عال، إذا أدمن الواحد الإنصات إليه أدرك أنه ليس جُزافًا، بل هو دال على مُضيها إلى عمل اليوم أو رجوعها منه، وصوت دولابها دالّ على اختلال قواديسها، أو على استتبابها وتفجر العزم في القلب الحديدي نارًا ودخانًا.

تقوم كل يوم في البكور تدور بالقرى تنقل منها البهائم التي اشتراها الديب إلى طنطا، ثم تعود إلى الكفر. يقف العيال على الكوبري ينتظرون أوبة العربة المسائية. يتعلقون بها حتى تصل إلى مستقرها. وفي ذلك يجربون نشوة رائعة حين تنطلق بهم وتتراجع الأشياء على الجانبين بسرعة

هائلة. حتى إذا ما استقرت وبطل دولابها انكشف الصخب عن كيانها الذي هدّته الرحلة. ينزل منها سائقها شناوي وعليه وعثاء السفر. هو وهي كيانان طيبان يمتان إلى طنطا وإلى الكفر بلا تناقض، بل في دأب وكدح يزيل وحشة السكّة، ويوشك أن يشير إلى قرابة وشيجة تربط الكفر المقعي بالمدينة الجليلة.

فعل هذا فعله في القلوب والعقول. حسْبك أن تعلم أن الواحد من أهل الكفر إن اشتاق قلبه لـ«طنطا» التفت فإذا الشاحنة على إطاراتها السوداء شيء من أوحال المدينة ووسخ شوارعها. وخط الأفق ماش على المصرف الكبير معلّم بالعجلات حتى يغيب متجهًا صوب المزار الجليل لا يضل ولا ينسى، والنفير ينعب، والدولاب يكدح على سكة الذهاب والإياب. هكذا رتق الفتق الذي أشعل في القلوب طويلا الهيام. وقصرت المسافة بين طنطا والكفر حتى أصبح الشيء أدنى من الفكرة.

حكايات وحكايات. والأمر في الحكايات أنها سلوى عن المقبرة الظهرية. وآلام ناس الكفر أنهم فقراء بلا أمل، محصورون بلا فرج، يائسون بلا عزاء يكفون عما هم فيه. يصيخون لهجْس في قاع الصمت الظّهري. لو أن هدأة حتى ما تكون نأمة، صفاء حتى ما تكون شائبة، كشف حتى ما يكون عماء. لكن نقصًا في عقل الإنسان وقلبه وروحه يجعله عاجزًا عن استكناه الأصوات، عن استئناس الهمس العصيّ، عن تأويل الفائت والآتي. هو هناك صفحات بعد صفحات في كتاب منشور. لكن البصائر مطموسة بالعجز.

حارة المصيلحي تمضي بين داره ودار صبر إلى فرن الكفر، وإلى خلاء

بين الدور والمصرف الكبير شاسع، هو أرض نزّة تنتشر فيها برك النَّشْع، وتلتف فيها نباتات الحلفاء، والشوك والهيش حتى ليصعب سلوكها. لكن ناس الكفر يعرفون المسالك، يتقافزون فيها بخفة النعام على سيقان طويلة نحيلة سوداء. وتكون ساعة معلّمة بالشر في خمود الظهر، أو فجاءة المغرب أو هدأة المساء حين يخرجون رجالًا أو نساء أو عيالا. فرادى لا يرى الواحد غيره، لكنه يحسّ بغيره، ويعرف أن غيره يحسّ به. كل يعمّي وجهه ويده وقصده وخوفه، غير أنهم يكونون متواصلين، يحْذَرون أن تنفرط صلتهم فيضيعوا. مرعُوبون حتى الموت، وروحُهم مفعمة بقصد الإيذاء حتى القتل. متطيّرون، لو عرضت لأحدهم قطة برية سوداء، أو لو أنه سمع نعبة غراب، أو فحة ثعبان لكرّ من فوره راجعًا. فإذا ما وصلوا إلى المصرف اجتازوه من مخاضة ضحلة. ثم يتسلّلون في زمام القرى حتى الأجران، بل حتى باحات الدور.

المجلس تحت نخلة المصيلحي قد يستغرقه الحديث أو الجدل، الضحك أو الزعيق في كل آن من آناء النهار أو المساء، لكن المجلس دائمًا صامت الربع من قلبه، والربع من سمعه، يتنصت على هؤلاء الذين عبروا المصرف الكبير إلى الضفة الأخرى. فإذا ما أحيط بواحد من العابرين سمع أهل الكفر استغاثته وإن لم يصدر عنه صوت، وخرج جمعهم يخوض الماء، يجوز المخاضة ويلتحمون بأهل القرى في معارك بالهراوات والسكاكين والأحجار والفئوس والأيدي، وبغلّ وحقد مرير، حتى إنقاذ وخلاص المُحاط بهم، والعودة معهم.

ثم يكون المجلس تحت الزغلولة، وحديث وزعيق ونزاع وغضب، ويكون جَهْد ملحّ لبسط الواقعة واستعادة تفاصيلها من البدء حتى

الختام، المرة بعد المرة في محاولة يائسة للإجابة عن السؤال المستحيل، لماذا؟ ويكون أخذ ورد، ولجاجة ولدد حتى تنهد القوى، وتفتر العزائم، والسؤال قائم مثل حيطان هذا المقام، لماذا؟ لماذا؟

ويكون صمت يجالسه السؤال العصيّ، يتهامسان، تقطر الأنفاس كراهية، يتداولان الرغبة في الفتك، كل يتحفز لأن ينقض، مثل القنفذ والثعبان. مصيلحي أكثر الناس صمتا. ربما هو أكثر الجالسين انشغالا بالمسألة المستعصية. ليس بأنه الراعي الصالح لرعية ضالة، إنه يسرق لا يتردّد ولا يتلعثم. هو سارق، ثعبان. إلا أنه - ربما - يرى كرة شوك القنفذ، وأنها تريد أن تنقض، وأنه لا نجاة.

ومصيلحي - يعْلَم الناس - إذا قاد جماعة النساء من المقابر أو إليها كل خميس، فهو يطير أمامهن نحيلًا مفرود الجناحين، يتلفت حواليه طائر اللب مفزوع العينين. وهو إذن ينقض على جوانب الطريق في قفزات مفاجئة خاطفة، ليعود وفي مخالبه كل ما ينساه صاحب مطرح ويطمع فيه غريب. وهو ينهب من أطراف الحقول كل ما يمكن نزْعه وحمله. وهو يخفي كل ما خطفه في صُرّته، ويطير، وخلفه طيور النساء السود الخطافة. وككل كفراوي فإن مصيلحي إذا ما رجع إلى داره ألقى بما في يديه على أرض وسط داره. يتبادل هو وزوجته الواقفة قبالته نظرة شديدة الإيجاز، وشديدة الوطء. ثم يخرج إلى مجلس الناس. ويكون صمت تجالسه المسألة المعضلة. القنفذ والثعبان. لا محيص عن التسليم بأن السمّ في الثعبان بعض أحشائه، وعليه فاللدغ فطرته. فهل يقضي قاض بالموت على حيٍّ لأنه يحيا؟ إن فعل ذلك القنفذ فلأن الشوك

جلده، ولأن قدره أن يتقي به الصّلّ. فأعجب من حياة القتل نجاتها، والقتل حتفها.

يا سيدي سليم! ثم يكون في المجلس زفير وتنهد. ثم يكركع ضحكا كأنما من قلوب لم تعرف الكدر مرة. يتكلم الناس. المجلس يستغرقه الحديث أو الجدل، الضحك أو الزعيق في كل آن من آناء النهار أو المساء. لكن المجلس دائمًا صامت الربع من قلبه، والربع من سمعه يتنصت على هؤلاء الناس من أهل القرى على الضفة الأخرى من المصرف الكبير، يسمع أهل الكفر عيب أهل القرى عليهم. يسمعونه حتى وإن لم يتفوّه به متحدث، حتى وإن لم يهجس به خاطر.

هو حديث عن حفر المصرف الكبير في الأزل الأول. يقول أهل القرى إنه لهذا الحفر حُشِد خلق عظيم، أجناس سمراء نحيلة عجيبة، شذاذ من مجاهل الدنيا، قوم كلفون بالوشم يغطّون به أذرعهم وأصداغهم. أقام هؤلاء الناس لأنفسهم في مكان عملهم مآوي من العشش والخيام. يعملون طول النهار، وفي الليل يغيرون على ما حولهم من أرضين وحدائق وقرى. يأكلون الحرام، ويشربون عليه الشاي الأسود. لا يعرفون صلاة ولا قراءة ولا دعاء. لا يقرئون سلامًا، ولا يغضّون بصرًا، ولا يغتسلون ولا يتطهرون.

حلّ بالناس من أهل القرى بلاء عظيم. إنهم قوم فلاحون كانوا قد نسوا الخوف إلا من الله وإلا من السلطان. وعليه فإنهم كانوا قد نسوا حرفة العراك وأدمنوا حرفة الفلاحة، وأقاموا الصلاة، واعتادوا الدعاء والتأمل. فلما دهمهم البلاء وفاجأهم ذُعروا وتراجعوا. بارت

أطراف زمامهم وهم واجفون ينظرون. ينتظرون أن يؤذن الله بانتهاء الحفر، ورحيل البغاة المعتدين.

أما الباشا فإنه أرسل عُماله إلى هؤلاء الغرباء يختلطون بهم، يستطلعون ظاهرهم، ويتحسسون خبيئتهم. انتهى الحفر، ولم يرحل القوم. بقوا في بطن المصرف. العشش والخيام استقرت ثم تحولت إلى أكواخ ودور استأمن الباشا أهلها على زمامه، واستعملهم يحرسون ملكه، ويعملون فيه. أعطى الباشا لـ«الشوربجي» الأعور الكبير بندقية. تحزم الرجل بشملته الصوف العظيمة على جلبابه الأزرق القطني الوحيد. ملأ عبّه بالرصاص. ينطلق يجوسُ الزمام مفرقعًا طلقاته، ناشرًا دوائر من الرعب حتى آخر ما تصُك الفرقعة السمع.

خاف الناس وأمن الباشا واشتد بأسه وقوي سلطانه، واستولى على ما اقتطعه المصرف من أطراف زمام القرى، ترك بعضه لناس الكفر، وامتدت في الباقي جفالكه. وترعة الوسط التي هي الوريد من جسم أراضي أهل القرى أصبحت تُسمّى ترعة الباشا، الذي ركّب عليها دولابا بخاريا هائلًا إذا ما دار غار الماء لا تطوله سواقي الزرَّاع. بذلك تُحرم الزُّرُوع السقيا.

عم البلاء واستحكم في القلوب اليأس، وزاغت العيون تفتش في الآفاق عن أمل. لكن عَبَثٌ يا لألاء النجوم، ويأيها الألق في قبة السماء، الأرضُ سمراء معتمة، تتزاحم فيها الظلال الحالكة، وتنسرب فيها فجاج دامسة هامسة بالهمس المريب. من كفر المصرف يخرج شرّ عظيم في الليل وفي النهار. وفي ناس القرى نشأ ناس هم أشبه بناس الكفر، أعلم بالنبُّوت منهم بالفأس. هؤلاء قالوا لا محيص عن العراك،

والسكّة إلى ذلك شحنُ القلوب بالخوف والحقد. وقبل أن يدفعوا سطاة الكفر أنزل الرؤساء بأهلهم صنوف العذاب.

السكك والمدقات التي امتدت يومًا ما إلى حدود الشّوف بقراءة السلام، غدت الآن غير مأمونة. الأجران والباحات وأطراف الزمام أصبحت في خطر. امض في تلك الجهة من الدنيا الآن، وابحث عن الخير القديم والأمان القديم، راح كل ذلك مع الأوقات القديمة التي أصبحت أساطير عن واقع ربما لم يكُن، وعن تاريخ ربما لم يدر به زمن. لكنها فقط سنطة المشايخ. يرمقها من ناس القرى السائرون على جسر المصرف الكبير. يحسّون على أيديهم خشونة لحائها، ونعومة نُوّارها، وتمتلئ قلوبهم بعطره. السنْطة هي الشاهد الباقي على التاريخ القديم. حكاية الناس من دار المشايخ.

أولئك لم يخافوا تهديد الباشا، ولم تُرعبهم طلقات الرصاص من بندقية الأعور الكبير. رفضوا أن يوقّعُوا أوراق تنازل عن أرضهم. بقوا فيها، ولم يرضوا معها بأغلى ثمن. حينئذ أرسل الباشا من يجليهم عن حقلهم بالقوة. أحاط الأشرار بأصحاب الحق. احتضن هؤلاء شجرة السنط، حزمتها سواعدهم ككلابات الحديد. فما كان إلا أن انهالت العصي على الأيدي والرءوس. سالت الدماء وانهار المقاومون على جسْر ترعة الوسط. وأراد عمال الباشا أن يجتثوا السنطة أيضًا. وما إن أصاب حدّ الفأس ذات الجذْع حتى سقط الضارب مشلولًا. جفَل عمال الباشا خوفًا من الشجرة المرعبة وسرها المهول. وهكذا بقيت السنطة شاهدًا لا يرتشي ولا تشترى ذمته. شاهدا على تاريخ قديم.

لكن أشباح التاريخ القديم لا قبل لها بأشباح من الكفراوية سوداء

تُطيف بأطراف القرى في خمود الظهر، أو فجأة المغرب، أو هدأة المساء. يلقُون للدواجن بالحبّ المنقوع في ماء أعقاب السجائر. ما تلقطه الدجاجة حتى تدوخ وترتمي وتؤخذ غنيمة باردة تلقى في زكيبة اللص. والحمارة التي تسرق تُصبغ ويتغير لونها وشكلها فلا يسع صاحبها أن يتعرف عليها مرة أخرى أبدًا. وفي الصبح ينكشف النهار عن عيدان الذرة التي مُلِّصت كيزانها، أو عيدان القمح التي حُشَّت سنابلها.

والسكة إلى السوق يجلس عليها هؤلاء الكفراوية ببضاعة مغشوشة، أو مسروقة. وفي السوق تراهم ينسربون بين الناس، سود «التقايا»، حادّي الملامح، حادّي النظرات، سراعًا خاطفين، منقضين وطائرين في آن. منهم وبهم بئس البيع والشراء، واستشرى الغش، والسرقة، والخلس.

وبين قرى هي هنا من أول الزمان نشأ له شيخ وقُبة، وليس فيه جامع، ولا مئذنة. ناسه لا يقرءون قرآنا، ولا أورادًا، ولا تسابيح، ولا يتطهرون، ولا يصلون. إنما هم يرقصون ويزعقون حول مقام شيخهم في مواسم ما أنزل الله بها من سلطان. ويتكلمون لغة مصنوعة من الصمت الكظيم، ومن الزعيق الأهوج، ومن الهتاف باسم شيخهم. لغة تصك السمع، وتطرد من القلب الأمان.

أهل الكفر يعرفون الحكايات التي تُحكى عنهم. يعرفها حتى الوليد فيهم، وحتى الجنين قبل أن يولد، لكنهم لا يتبادلونها فيما بينهم، ولا يشيرون إليها أبدًا. يغرقون في الصمت ناكسة رءوسهم، متأملين من مجلسهم تحت الزغلولة جسامة المقام، يا سيدي سليم. الدنيا موحشة.. أهي زمّتة الظهر؟ أم هو مأزق أبيد لا خلاص منه؟ كامن في مجهول

متربص، دائر بمساحة قليلة من الزمن، هي كل تاريخ هذا الكفر، ومساحة قليلة من المكان هي كل ما يملكون وما يعرفون.

الباحة حول المقام هي الحقيقة وما عداها الحلم. على أنه، في أكثر الأحلام جمالا، تكمن استحالة كابوسية. بذلك يكون العمر نجاة، أما الرؤى فهي فقط متعة الموتى. وإذا ما غيَّبت فجاج المجهول واحدًا وُلدت مطرحه في الكفر وحشة، وخوف صامت مترقب، يرتقونه باسم سيدي سليم. يرامقون حارة أبي حسين من مجلسهم تحت الزغلولة، حتى يرون الغائب آيبًا.

لكن حسن صندوق العروسة لم يعد بعد، لا تسل ابن من، نسي الناس، والنساء تلد، وتكُون النسبة للكفر، لمعنى حميم أعْلى من كل القرابات والأنساب. حسن كان هنا، يلعب مع العيال أحيانًا، وأحيانًا يعمل في دائرة الباشا، أو عند من يحتاج في حقله أو في داره يدًا جنب يده. ثم إن حسن فجأة اختفى، مثل قرش سقط في التراب، تسمع له طبة مكتومة، ثم يضيع بلا رجاء. سأل ناس الكفر عن ابنهم حتى أقصى ما حملتهم إليه أقدامهم، وفي كل مرة سمعوا ما حاصله أن الصغير أسلم نفسه لجنون غريب، ركب القطار إلى حيث لا يدري أحد. فليغفر سيدي سليم للولد أنه جفا المقام. ذلك نَزَق العيال يُضلهم عن الصواب. فليغفر له ساكن الضريح، ولينوّر له سكة الإياب.

آب عطية الدش بعد عام من الغياب. حيّا الناس في مجلسهم تحت النخلة. وهؤلاء عرفوا أن العائد نجا، غفر له الشيخ جفْوته، وأضاء له طريق أوْبته. هتفوا باسم سيدي سليم، وأفسحوا للعائد بينهم مكانا. وهذا خلع نعله، وأخذ شطره المقسوم له في القعدة. والحاصل أنه ذات

صبح وقف الدشّ وقفة طويلة قدام المقام، وعلى وجهه غبرة، وعيناه مفعمتان بالغموض. ثم إنه مشى في سكته المعتادة في اتجاه الحقول. كان المنظور أن يلزم جسر ترعة الباشا مشرِّقا حتى السراي. لكنه اتجه غربًا ناحية الكوبري على المصرف الكبير. رأى الناس في ظهره وخطوته أنه مبارح. تقلصت القلوب، وعُقلت الألْسن. فإنه مهما ترحَّل الكفراويُّ في المكان حتى آخر ما استألفه الناس بالأسفار والمكابدة، ومهما ترحل في الزمان حتى آخر ما عُمِّر بالحكايات والسير والتواريخ ـ فالكفراوي في النهاية راسية مراكبه على شطّ المجهول، ترطمها صخور الأسئلة التي بلا جواب، وهي عاجزة القلع والمجداف كسيرة. لا ملاذ سوى الشيخ. عنده قضاء حاجات العقل، والقلب، والروح.

سيدي سليم كان هنا دائمًا في جوف هذه الأرض، منذ أن كانت هذه الأرض. وأهل الكفر كانوا هنا منذ الأزل الأول ضاربة جذورهم في الجثمان المبارك. هذا الكفر لم يحدثه حادث، إنما هو كائن قبل الحوادث. وإذا كان قد تأخر ظهور الشيخ وبقي الكفر زمانًا دون اسم، فإن ذلك إنما هو راجع إلى نجاسة كانت في هذه الدنيا، نجاسة كانت في قلوب الناس وأيديهم تمنع المعجزة. وعليه فقد لزم أم فانوس أن تسهر، ترعى النور زمانا حتى يبعث عبد الله يضرب الأرض بفأسه، ليفتح بابا في الزمن الحالي على الأزل القديم.

حديث حسن يوقظ الهرير في القلوب. قلوب ناس يحبون الشيخ حبًّا أخرس لا يقول. ناس لا يعرفون الصفحات ولا نبش الكتابة. حياتهم خالية من الشعر، وحزنهم يكسر الهامة. يئوبون كل مرة إلى

مجلسهم قبالة المقام، يتأملون جسامته. يسقط الطين يقيمونه بالأكف. تبلى الحكايات يجدّدون بهجتها بالترديد.

ليست هذه أحلامًا، بل هي رُؤى الفُؤاد تشارف الزمن الذي قبل الأزمان، وترى الشيخ سرًّا قديمًا مدفونًا في أرض هذه الباحة، لم يحجبه عن القلوب أنه كان مردومًا بأكوام السّباخ. بل وقبل أن تنشق الأرض عن السر كانت موكولة به العجوز أم فانوس.

إلّا أن خبر هذه العجوز لمن الأخبار المدهشة العجيبة. وإن القلب ليحزن، والعقل ليتفكر، والظن أن فانوس المقام من فانوسها، وأن ضوءه ضوءه، وأن هذا قبس من النجوم. وإذا قيل هذا خاف الرجال، وخافت النساء، حتى التأم الناس جميعًا تلمّهم رغبة جماعية في الاحتضان. القلب على القلب، اللحم على اللحم، سخونة الأنفاس على سخونة الأنفاس. تغمض العين ويسمع القلب.

أم فانوس عجوز ولدت قبل كل الأشياء. أو ربما هي لم تولد قط، بل انشق عنها جدار، أو انفلقت عن جذع نخلة قديمة. أيا ما كان الأمر في العجوز. فإنها كانت شرسة، نكدة، لئيمة، محوطة من حولها بسياج عال من الخوْف منها يذب الناس عنها. لم يكن لها حقل ولا بهيمة، ولا أسلاف، ولا أقارب، ولا هي أعقبت خلفًا معروفًا. امرأة جسيمة لحيمة، تأنف أن تنشط لمعاش، وتؤثر أن تعيش على فضول الصدقات، وخلس السرقات. تنامُ حيث تهوى وتصحو حين تشاء.

لا تسْعَ للتحقق من خبرها، فإن أحدًا من أحياء الكفر لم يرها أو سمع بمن رآها. لكن ناس الكفر كلهم يعرفونها. لها في كل قلب صورة مختلفة، وفي جعبة كل متكلم عنها حكايات، ونوادر، وطُرَف،

وحكم كثيرة التباين والتخالف، لا تكفي لحكاياتها الأماسي الطوال، ولا يَسَعُها بين دفتيه كتاب. على أنه لا خلاف على أنها كانت موكولة بالفانوس.

ينصت الناس للمرة المئة ألف في شجن متجدد حبيب. إنه في ذلك الزمن القديم، كل يوم، ما يكاد المساء يحل إلا والعجوز مُعَوِّلة على أعجازها، حاملة الفانوس، ساعية بين أكوام السباخ إلى نقطة معلومة لا تخطئها أبدا، مهما تغيرت تضاريس المكان وانبهمت بين الأكوام من تغيّر هيئاتها والمسالك. تقصد العجوز النقطة المعينة بلا خطأ، في القلب من وسط الباحة، تقيم عليها الفانوس لامع الزجاج، متألق المصباح، عامر الخزان بالكيروسين. على ذات النقطة بلا اختلال، مساء بعد مساء بعد مساء. تترك المرأة الفانوس ساهرًا وتعود إلى مضجعها.

ولا بد أن هذه العجوز لم تكن تسلم جنبها للرقاد، أو معاقد أجفانها للنوم. ولا بد أنه كان في جسمها سرّ عجيب يجعله بعيدًا عن أن يضنيه السّهر. كانت تقضي الليل يقظانة، قلبها وعيناها موصولة بالشعلة في الزجاجة في الفانوس. بذلك ضمن لهذه الشعلة بقاء مضيئًا. بذلك قضى أن تثبت مؤسسة الضوء، وترسخ الأشعة الصفراء الشاحبة واصلة إلى كل قلب. قلوب مليئة بتوقع غامض فرح باهر مخيف وتحت الأقدام الساعية أرض حُبلى بالسر. أحد لم يسأل العجوز قط عن عملها. لم يخطر هذا لأحد، أو لم يتجاسر عليه أحد حتى كانت ليلة عجيبة في الليالي، عجيبة النجمة، عجيبة النسمة. في تلك الليلة انشق الظلام عن صراخ عبد الله.

كان عبد الله طفلًا مهزولًا هائل الحجم، كبير الرأس واسع العينين،

تكفله أم سوداء كليلة البصر مات عنها الزوج والقريب، وبقي لها في صحبتها حزن أبيد وابن عجيب. الولد صموت عيوف لا يلعب ولا يهزل ولا يهرف، يكبر فيزداد هزالًا وتزداد رأسه جسامة وعيناه اتساعًا، وأطرافه انبساطا وضخامة. فإذا ما جاوز البلوغ أصبح عملاقًا هائل القوة عميق الصمت كثير الذهول تنتشر حوله دائرة من فراغ موحش كئيب لا يجرؤ على اقتحامها إليه أحد.

وإذا اشتد عمق صمت الشاب، وزادت كآبته سقط مريضًا. حال عليه الحول وهو في حبس غرفة مظلمة. ممدّد محموم غائب. ولما قام تفرس فيمن حوله بعينين تبرقان بريقًا مخيفًا. وللمفزوعين من حوله قال: إنه في نومته قرأ وعرف! أن الدنيا نجس وعرضها دنس، وأن الحكمة في الزهد، وأنه عازم على التجرد. نذر عبد الله نفسه للقيود والأغلال وسلاسل الحديد كسرا للميول والحرد والشهوة والطموح.

هكذا كان عبد الله، لكنه في الليلة المعلومة صرخ في وسط الباحة. انغرس الصراخ في القلوب المضغوطة تحت جثوم الظلام. تفجرت اليقظة مستوفزة في القيعان. تطاير الصراخ فوق أسطح الدور. هرْولت أشباح الناس في العتامة. هراوات وفئوس تتلاطم عشوائية. شعلات تذبُّها أكف الرياح. يتدفق الحشد على عبد الله.

انتصب هذا واقفا. عملاقا هائلا. يضع قدمه على ذات النقطة، ويرفع يده بالفانوس عاليا. تسقط على ظلال متراقصة تهول. بدا جبينًا عريضًا وعينين واسعتين، وأنفا دقيقًا، وشفتين رقيقتين. جلجَل صوته وهو يخطب في الجمع الزائط من حوله:

ـ دوسكم على هذه الأرض حرام. فيها مقام سيدي سليم!

تراجع الجمع الصاخب الصارخ المتشاحن مجفلًا مرعوبًا غير فاهم شيئًا على الإطلاق. حل سكون كسكون الجبانات. بقي صوت عبد الله وحده جاهرًا بالكلام.

حكى كيف أنه نام على الطوى مكبلًا، وأنه جاءه سيدي سليم في الليل، عمامته حمراء كالشمس الأولى، ووجهه كالقمر، عليه مرقعة سابغة. عاتب عبد الله بأكثر الكلمات وخزًا في القلب:

ـ تردمون مقامي بأكوام السباخ، وأنا قطب وقتكم. إليّ رقادكم في الليل وعلى عيني سعيكم بالنهار! لو شئت لضربت عليكم الخوف والجوع، أفلا تتفكرون..؟

ورفع عبد الله فأسه لأعلى. فأس لا يقدر على رفعها إلا كل جبار. وهوت الفأس على الأرض حفرت، والفئوس الأخرى نشبت، تزاحمت. يضربون الأرض على جسم العتامة يحفرون ويحفرون حتى تنبجس رائحة الطيب كأنما أزيح الغطاء عن صندوق العطار. صلصلت الفئوس تصطك بعظام الشيخ. ارتفع حريق الصراخ المجنون.

وبعد ذلك طهرت الباحة من السباخ والروث وصارت حرما لمقام الشيخ لم يسأل أحد أين عبد الله ولا أين أم فانوس. اعلم يا أخي أن كل مخلوق خُلق لأمانة يؤديها وبعثة يتمها هو موكول بها، وهي قرينة عليه، وعلى حسب قدرها يوهب له البصر والفؤاد والعضل، ولإنجازها يؤتى المعرفة وموهبة التكلم، فإذا ما انقضت الأمانة مات المخلوق. أدُسَّ في التراب أم تحلل وهو قائم إلى عناصره الأولى؟ هاهنا يكون الموت سيماءه لأن الدائرة تمت والمقدور كان. التعيس التعيس من لا أمانة

ولا بعثة له. يظل تنبو عنه المهام، ويتلعثم بالسفارات، يموت بعد كل خيبة، ثم يعود يموت، لا يخلص له أبدًا معنى الموت من معنى الحياة.

لم ير أحد من الأحياء أم فانوس، ولا عبد الله، لكنْ للأحداث في قلوب الناس هزيم كأنها تجري الآن. كان السرّ هنا في جوف هذه الأرض قبل أن يكون المقام، الأب الكبير سيدي سليم. جذورهم ضاربة في جثمانه المبارك منذ الأزل وقبل كل الأشياء، أم فانوس كانت إيماءة للسرّ أدركها قلب عبد الله. حمل الأمانة وأتم البعثة.

عند هذه اللحظة من الذكرى تكاد القلوب تنشق ارتياعًا. يتأكد يقين غريب بأن الدور لم يعد بناؤها في دائرة حول المقام، إنما هي تحركت من مجاثمها شوقًا وسعت نحو الشيخ زحفا، أو أنها تراجعت أدبًا حتى تثبت في أماكنها هذه محيطة بالضريح المبارك. هنا يكون الصوت رقيقًا عذبا، ويكون الكلام فيضًا حالمًا ويكون ترتيله نغما. هكذا في كل مرة تكون حكاية عمر البنّاء احتفالا تترقبه القلوب بعدما روعتها حكاية عبد الله وأم فانوس.

لم ير أحد من أحياء الكفر عمر البنّاء، ولا عرفت له أسلاف ولا دار باقية، ولا عقب ولا أقارب على قيد الحياة، لكن الكل مجمع على أنه كان رجلًا طيبًا. كان واسع العينين صغير الأنف والفم، في وجهه وسامة صورة سعد اليتيم المعلقة في دكان محمد أفندي. كان جسد البناء شائه التكوين محدودًا منكفئًا إلى الأمام، جذعه نصف دائرة مركوزة على استقامة ساقية كأنه علامة استفهام. ربما كان ذلك من انكبابه الذي لا ينقطع على رصّ قوالب الطوب في بناء الجدران.

فهو طول النهار يعمل بيديه، يكسر الطوبات بالقادوم، يتناول

الطين من القصعة بالمالج، يسوّي الطوبة مع جارتها بالمسطرة، ويضبط المداميك بعضها فوق بعض بميزان الخيط والثقل، يعمل بأناة والتذاذ، في يديه الخشنتين رقة لا يخطئها حتى البصر العجلان. في اليدين للطوبات فهم وحدب ومودة، تعملان والرجل صامت، أو متحدث بصوت هامس، يعمل بدأب حتى يكفّ المساعدون تعبًا وحتى ما يستطيع تبين الأشياء من الظلمة.

لم يعهد أحد إلى عمر البناء أمر بناية عظيمة لكن الرجل أو كل نفسه بالجدران، دار بتكوينه الاستفهامي هذا على قدميه بين الدّور، ما لمح حائطًا يميل إلا وتوجعت ملامح وجهه إشفاقًا، يروح يخطب صاحب الحائط يهوّن عليه مشقة العزم، وخوف التكليف، وعمر من غده مبكر إلى العمل، بليت عدته يحملها على ظهره في زكيبته الخلقة.

يقيم قائمة الحيطان، يُعلّي أعشاش الدواجن وأخنان الأرانب وخزائن اللبن والخبز على أسطح الدور، يُقَبّي حنيات الأفران باكتمال واستواء مرهف جميل دون أن يحول بصره عن المرأة صاحبة الشغل، يتطلع إليها بعينيه الواسعتين فهو مغرم بالنساء إلى درجة الجنون الصامت الساهم المحدق بعينين مليئتين بالقهر والانتظار. والنساء كلفات به إلى درجة الضحك المكركع الذي يدفع الدماء حارة إلى الخدود.

يحكي عمر لصاحبة الشغل بصوته الدافئ الحنون عن كل شيء، ويسمع منها عن كل شيء. ويسمع منها عن معاشها، عن جلافة زوجها، عن كيد جارتها، عن أوجاعها، عن أسرارها المطويّة. ويقول لها عن الدنيا فقد رأى كثيرًا، ويقول لها عن الناس فقد خبرهم، ويقول لها حتى عن الطبيخ والحلاب فهو عارف كبير.

وحينما تضحك صاحبة الشغل حتى يتورد خدّاها، ينظر إليها لا تتحرك شفتاه إنما تفضح عيناه مسرته الخرساء العميقة.

لكن المعلم عُمر البنّاء كان أروع ما كان عندما حكى عن بناء مقام سيدي سليم، عندما أكد الرجل بصوته الهامس تأكيدًا لم يردّه أحد عليه مهما بلغت به قساوة القلب أن باني المقام هو جدّ البناء الأكبر من ناحية أبيه. حكى عمر أن أهْل الكفر حينما استقر عزمهم نادوا جدّه ذاك، وأفضوا إليه بنيتهم على البناء، وقف البنّاء الكبير وسطهم وهم أحاطوا به صامتين وهو ينظر في الأرض متفكرًا تتساقط رقائق الطين الجاف من ثوب شغله، ميزان الخيط والثقل متكور في جيبه. حكى عمر أن جده الأكبر أشار:

ـ هنا سيكون المقام.. ومن هنا الباب.. وهنا الشبابيك..!

ثم تنهد البنّاء الكبير عميقًا، نظر إلى السماء طويلاً، وقال:

ـ إنه ستكون قبة عالية بإذن الله!

ويفصّل المعلم عمر البنّاء الكلام عن اجتماع الخلق شهودًا، وعن وضع الطوبات الشواهد في الأركان الأربعة. عن مد الحيطان. وكان على البعد معجنة هائلة للطين ومضرب شاسع للطوب. وكان قطار بنات حاسرات الجلابيب عن السيقان يحملن قصاع الطين، أما صفوف الطوب فقد حملها فتية من الجدعان. ويحكي عمر البنّاء عن رصّ المدماك الأول، ثم ارتفاع الجدران رويدًا رويدًا مخلية فتحة للباب، ثم كيف استوت الشبابيك إطلالًا من الجهات الثلاث على الضريح والخلق جميعًا يشهدون.

وحينما ينتهي الكلام بالمعلم عمر البناء إلى وصف تشييد القُبة، يخفُت صوته تمامًا حتى ليصير إلى نغمة مهموسة. إذ تنتهي الأركان الأربع بطوبات يملن زاحفات إلى الداخل، مائلات متساندات كاسرات حدّة الزوايا شيئًا فشيئًا، حتى تكون قد تخلقت على هامة الجدران الأربع دائرة سوية تستقر فوقها دورات المداميك. مدماك بعد مدماك، تتفرطح إلى الخارج رويدًا رويدًا صانعة صحنًا ثم تعود دورات المداميك تضيق وتضيق، تتقبّى، تتقارب تتضامّ حتى تلتقي عند حلمة القبة، عندئذ رشق جدّ المعلم عمر البنّاء في حلمة القبة قائم الهلال.

وعند هذه الكلمة من حكيه تسكن كل نأمة في بدن المعلم عمر البناء تمامًا، تجمد مقلتاه في محجريها. يجمد الناس من حوله رعبًا. يظنون أن هذه آخر كلمة تخرجُ من فمه. يساورهم هذا الظن كل مرة دون استثناء وفي كل مرة يعود الرجل رويدًا رويدًا إلى نفسه. لكن كان ثمة يقين سائد كامن بأنه في مرة من هذه المرات سوف يكون صمت إلى الأبد وقد كان. وانكفأ الناس على الرجل من حوله يتحسّسونه مذعورين، والرجل ساكن متثلج الأطراف شاخص البصر.

حملوه إلى داره على حمارة مشت بحملها تتدفع، تسند امرأة الجسد الذي يخضه سير الحمارة الوئيد، وخلفه ثلة نساء مطرقات، الرجال في مجلسهم يرمقون هذا الموكب. قبالة المقام نبضت في الجسد المحمول رجفة، وقفت الحمارة بحملها. تطلع عمر البناء إلى القبّة مليًّا، أغمض عينيه على صورتها، سقط رأسه على صدره، ومات.

لم يره أحد من أحياء الكفر ولا يعرفون له من بعده في الكفر أثرًا

باقيًا لكن الحكاية في كل قلب. وإذ يتطلع واحد من أهل الكفر إلى قبة الشيخ يتذكر الحنان في عيني عمر البنّاء وتمتلئ نفسه ذكاء وقلبه ورعًا.

يحكون في المجلس وينصتون، فهم يحبون سيدي سليم ويقولون إن الأقدمين من أهل الكفر اشتروا لضريحه كسوة جليلة واستقدموا لحياكتها من طنطا نجّادًا أريبًا، وإن هذا النجاد كان رجلاً طويلاً نحيلاً، وكان عليه ثوب أنيق رقيق، وإنه كانت على رأسه عمامة كبيرة، وعلى عينيه نظارات ذات إطار معدني أبيض. من ساعة ما رأى الناس النجاد هابوه. صحبوه إلى المقام.

الرجل النجاد وقف على عتبة المقام صامتًا مغمضًا، ذليلاً ساقط الهامة ثم إنه ألقى على الشيخ السلام:

ـ السلام عليك يا سيدي سليم!

والصمت نزل، استطال، تقبّب في جوف المقام الرطب، ثقل على القلوب وعلى الأعناق. يكاد الحاضرون يسقطون منكفئين على الوجوه ذهولًا، وصلت الأرواح إلى الحلاقيم، وكان كرب عظيم. غشيت العيون هونًا ما، فإذا ما انجلت الغشاوة كان المنظور الحائل قد سقط وانزاحت عن الرؤى الأستار، وعمرت القلوب نورانية. في قلب الرؤيا سيدي سليم. جليل لا تحد من قدره صفة، ولا تحيط به من عظمته الأفهام. النجّاد بين يدي الحضرة يهمهم بصوت باك:

ـ يا عمي أنا بعد الإذن جيت.. يا سيدي أنا ما تعدّيت..!

سقط الجد الأكبر لشيخ الكفر الحالي على ركبتيه انهيارًا، ومن حوله سقط فحول الرجال. ما كان في وسع الواحد استرداد نفسه. النجاد

يمايل رأسًا هائمًا مغمض العينين ويواصل توسلاً باكيًا حتى يكون جواب. الجواب نور. لسان لا تدركه الآذان ولا العقول، المعنى يحل ساطعًا في القلب وعلى الأعضاء أن تنشط في اتجاه الأمر. أهلّ العرق على النجاد، أغرق وجهه. إنه تلقى الإشارة وفهمها. إنه مأذون له أن يعمل ومبارك عمله. بكى مغنيًا من قلب فرحان:

ـ أنا خدّام يا سيدي.. أنا تحت الأمر يا عمي..؟

ثم جلس متضعضعًا أمام الضريح، ساكنًا بلا نأمة كأنه شيء من الأشياء. يعود إلى نفسه رويدًا رويدًا، والناس يرقبون، وإذ أصبح النجاد مالكًا لنفسه تناول كيس عدّته. يخرج الأشياء واحدًا بعد الآخر: المقصّ والطباشير والشمع والهندازة، ثم ضروب من قطع عظام بنية من القدم صقيلة من الاستعمال، ملفوف عليها خيوط مختلفة اللون والتخانة، ثم أخرج المقياس: عصا طولها ذراع، نحيلة لطيفة مقسمة بالحزوز إلى أجزاء الذراع، تنتهي من طرفيها بكرتين أنيقتين من الخشب.

الرجل يتحسس عدة شغله في فرح. رويدًا رويدًا تذهب عنه ذهلته الأولى وتنمو في عينيه جسارة وفي يديه صنعة. يقوم غير مثقل ولا هيّاب، بل خفيفًا مرنًا. يدور حول الضريح بلا تردد ولا خشية يقيس الجرم من أبعاده. يتناوله هكذا بالقياس والتقدير كأنه شيء من الأشياء. ناش قلوب الناس شيء من الخوف. لكنهم سكتوا مغلوبين يرقبون حتى انتهى الرجل. ركن ظهره على الضريح. ينقر الخشب بكعب رجله إيقاعًا بطيئًا. الآن وضح المفهوم واكتملت الخطة. جلس متربعًا. خبط بيده على صرّة القماش. طلب أن يأكل حمامًا، وأن يصنع له شاي، وأن يذاب في الشاي الأفيون، وأن تُعمر جوزة هندية، وأن تكون التعميرة

حشيشًا ودخانا معسلا نديا، كل شيء جاء، الطعام والمزاج، والناس مُحدقون، ينظرون خائفين حتى اتقدت عينا النجاد بلهب متألق. أحبّه الناس وهابوه. إنه رجل خارق، وعليه فثمة خيط كالوهم بينه وبين الجاثم في الضريح.

النجاد فرد الجوخ الأخضر أمامه. يفصّل القماش فهو صانع ماهر. وهو إلى ذلك راو لا يشق له غبار، يفصّل الكلام في الحكايات العجيبة. هكذا ويقد القماش أثلاثا وأرباعا، شرائح وقصاقيص. والناس غير فاهمين، متوجسين مشفقين، لكنهم يأملون ولا يسألون.

عبق حيّز المقام بدخان الجوزة. أنّ وابور الجاز حاملًا إناء الشاي. النجاد شخر ونخر، وقال أشد الكلمات فُحْشًا. حكى عن دعارته بالنساء. ما أبقى ولا خلى ولا رعى حرمة. حمّم أشواق جلده في نعيم البطون والأثداء والفروج. حكى عن طراوة الشفاه وجسامة الأرداف. النسوان حفاظ القلب أن يتلفه سمّ الحرد، أو غلّ الشهوة والطمع. وحكى النجاد عن لواطه بالعيال. صبيان كولدان الجنة المخلدين، منذورون للصالحين، ولمن في قلوبهم شوْق لا يُرجى له دواء. بكى النجاد من عين حرّى والناس تسمع وترى. داخوا ارتياعًا، سكتوا رعبًا. من يدري؟ إن من الرجال من هم أهل أحوال.

لكن الكسوة اكتمل لها في النهاية كيانها. صنع لهذا الضريح ثوب أخضر قشيب. تهلل الناس فرحًا. أسرعوا إلى الدور أحضروا كل ما يملكون من شيء غريب دقيق لامع لطيف ناولوه للنجاد، والرجل زين الكسوة. خاط التعاليق على الجوخ الأخضر، رسم بالقماش الأبيض تهاويل الأهلة والأوراق والزهور، وعجائب الكلمات:

«ومن كراماته أن الحق إذا تجلى له يذوب
حتى يصير بقعة ماء، ثم تدركه الرحمة فيجمد
شيئًا فشيئًا إلى أن يُرَدَّ إلى بدنه المعتاد».

ثم إنه جيء بجمل أقيم عليه هيكل خشبي نصبت عليه الكسوة. قام الجمل جليلا بما على ظهره من محمل الجوخ والحرير المرسوم عليه التهاويل العجيبة. أخذه النجاد ومشى به وخلفه طبلة الكفر. تجاوبت الآفاق بأصداء النقرات على الجلد المشدود، وبأصوات خلق عظيم هو الكفر عن بكرة أبيه يمشي زفّة خلف الكسوة.

دار النجاد بجمل المحمل دورة حول المقام. ثم ولج حارة تؤدي به إلى الجرن، ثم دخل حارة أخرى إلى المقام. هكذا والناس وراءه لا تفتر فرحتهم. يلقون في حجر النجاد بالنقط قروشا مثقوبة مكتوبة حسنة. لا يهدأ لهم زعيق ولا تهليل. من خلف ذلك النقرات على الطبلة جليلة عميقة نافذة.

وإذا كان الموكب قد خرج من حارة المصيلحي فإنه مال يمينًا دائرًا حول الكفر منخفض الهيشة، على اليمين بعده جسر المصرف الكبير. هناك وقف من كان سائرًا، وبدلا من أن يمضي في حال سبيله التفت يتفرج على الزفة خلق كثير: رجال ونسوان وعيال من أهل القرى اجتمعوا ينظرون. أصبحت نقرات الطبلة في مواجهة المطلين من على الجسر أكثر صرامة وتفاخرًا، وأصبح زعيق الناس أكثر علوًّا وتباهيًا. نعم، إن الكفر خرج من مكمنه في بطن المصرف وقال هأنذا، بيرقه

الشيخ وشعاره وزينة صدره وكحل عينيه. والناس من أهل القرى أمم ينظرون.

يتطلع أهل الكفر المحتفلون إلى أهل القرى المطلين المتفرجين، وبين الجمعين تلك الهيشة. لا يسَع متشوف بعينه ـ مهما حاول التحديق من موقعه في الزفّة ـ أن يرى ملامح وجه واحد واقف على جسر المصرف، ولا أن يتحقق من تعبير تلك الملامح. إذن فلم ير ذلك أحد، لكن يقينًا انتشر بين أهل الكفر المحتفلين، التهم قلوبهم كما تلتهم النار الحطب، أن أهل القرى في عيونهم الكراهية والازدراء والضحك. والناس إذا كانوا قد عملوا زفّة وطبلاً وفرحًا، وإذا كانوا يزفّون كسوة شيخ، فإنهم يخذلهم إلى الحزن المهلك أن تمتلئ عيون المتفرجين بالكراهية والازدراء والضحك. وعليه فإن الطبل والزعيق ـ وإن استمر عاليا ـ إلا أنه انفصل تدريجيًّا عن أعماق الناس المحتفلة التي زحفت عليها برودة الخوف.

عاد الجمل، دخل من حارة أبي حسين إلى الباحة حول المقام، كُسِي الضريح بالجوخ والحرير. وإذا كان النجاد قد وضع على شاهد القبر عمامة خضراء كبيرة، فإن ناس الكفر تراءى لهم تحت العمامة وجه الشيخ. تدافعوا يلثُمون سيدي سليم، يدخلونه في قلوبهم، يصخبون بإيمانهم، يزعقون بولائهم. لكن الضجة العارمة اضطرد في قلبها إيقاع خوف، ظل دقاقًا رتيبًا في قلب كل فرحة من يومها إلى اليوم، وربما قبل ذلك، في الأيام كلها رجوعًا إلى الذي وضعت فيه في رحم الأرض جرثومة الشيخ والكفر، حتى إن الواحد ليسلم بأن الخوف طبيعة الأشياء.

جوف الضريح معتم صامت رطب حار. القبر عليه كسوة من الجوخ الأخضر خلقة متربة وسخة تهلهلت زينتها وحروف كتابتها. وعلى رأس شاهد القبر عمامة حمراء رثت وتعفّر لونها. الأرض رطبة وأصول الجدران سقط طينها، وعمرت شقوقها بألوان الحشرات. الشبابيك صغيرة، وطيقان القبة تشعّ ضوءًا يضيع في سمرة شاملة غالبة. وفي قلب القبة يتدلى الفانوس صدئًا غبش الزجاج وفي أحد الأركان صفيحة فيها كيروسين. وفي ركن كومة من رايات حمراء على قماشتها التراب والوسخ. وكومة من قطع حديد دقت على هيئة سيوف ترى في ذباباتها العزيمة على القتل، مخفية تحت التراب والصدأ.

جوف الضريح هو القلب من دنيا الكفر، تحمل ملامحه ما في القلب من كآبة وشراسة متربصة منقضة، والقبة صاعدة في الشمس شائهة مائلة الهلال، تحيط بها نخلات مثقلات بالأقناء مزدحمة العثاكيل بالبسر. الدور دائرة حول المقام ترحرح في الجهات الأربع بين غابة من تيجان النخيل. الأسطح توشك أن تنيخ تحت ثقل الشمس ويتضوح حطبها، جرار الجبن القديم لمعت على أجسادها بلورات الملح، ومخازن القمح مفتوحة خاوية نفرت من طينها حبات التبن. خزانات اللبن ساكنة مهجورة والجفان وطواجن الفخار منكفئة جنب الحيطان متروكة متربة.

انصرم بشنس وتوشك بؤونة أن تهل، نضبت الضروع وعدم القمح. تلك مجاعة تخوِّر القوى وتهدّ الحيل وتضني العقل والروح وتقرح الجلد. يتطلع الناس إلى وقت الحصاد: سنابل القمح، ونوّارات القطن، وشماريخ البلح، واعدة بالمحصول وعدًا غامضًا ملتبسًا. لحظة

عجيبة في العام كله، تثقل على صدر الكفر بالكسل والكآبة وسقوط الهمة، وفتور العزيمة. لكنه في ذات الوقت من سنة موغلة في القدم زُفّت كسوة الشيخ على جمل المحمل. من يومها وأهل الكفر يحتفلون في ذات الوقت من السنة بمولد شيخهم، يهبُّون ينفقون آخر ما في القدور من دسم وآخر ما في شقوق الحيطان من قروش، ويعملون زفة ويرقصون ويغنون. بذلك بقوا. وإلا نَشَّفَ الصيف سوائلهم وصوَّحَ عيدانهم وذرتهم الرياح بددًا.

في زمنة الظهر جلس مصيلحي تحت نخلته أمام باب داره وحيدًا. الصمت طنّان والخلق من الخراف والمعيز والكلاب والدواجن مرمية جنب حيطان المقام لا تنشط حتى للقط البُسر الساقط من النخل. على مرمى حصوة منه تجلس فاطمة امرأة حسن صامتة شاردة تقطف عيدان الملوخية، عيدان صغيرة طرية لقطت من غيطان القطن ولا يكون أحسن منها. لكن نفس الرجل لا تنشط حتى للعزم على السّراح. يتفكر في صمت فاطمة، أهو همود الظهر، أم هو شجار مع زوجها كان أو يكون؟ يسمع ركْز حسن في جوف المقام يتنصت. يحسّ بعزلة موحشة كأنما يتسارّ اثنان من دونه. في المجلس جماعة الأزعر حول صينيتهم مطرقون. محمد أفندي قدام دكانه يحدّق في صفحات كتابه. ولا بد أن صبر الآن في غرفتها العلوية تئن من صداع رأسها.

صرَّ مصراع باب المقام ففزع المصيلحي، ورفعت فاطمة رأسها. خرج حسن وأغلقه خلفه، في عينيه من ظلمة جوف الضريح. حينما اقترب تكلم شبه غائب يتململ من وجيعة ملازمة. قال إنه منذ سنين لم يعمل للشيخ مولد ولا زفة، فهل جفا الناس صاحب المقام؟

كفت فاطمة عن التقطيف ونظرت إلى زوجها يتكلم ساهمة متوجسة. ومحمد أفندي خفض كتابه قليلا وتأمل المشهد تحت النخلة. والأزعر أطلّ من تحت عصابة رأسه الوسخة، وتبعته في ذلك زوجته. أما حياة فقد رنت شاردة ويداها في حجرها. قال المصيلحي أن نعم، لكن خوفًا أثقل قلبه. خوف يعرفه حسن ويحسه ولا يقربه، فلا يقربه الآخر، بل يقول أن نعم. إنه مكلم في ذلك عبد الحافظ، ومصطفى أبو محمد، ومحمد أفندي، ويستطلع رأيهم. فإن كان فإنهم جميعهم ذاهبون إلى الديب ومتكلمون في ذلك معه. فإن رأى الرأى، واستصوب القصْد، فإنهم مستأذنون شيخ الكفر. فإن أذن ضُرب للمولد موعد وأرسل عطيه الدش قبل الخميس الموعود يدور حول الكفر بالطبلة ينادي: مولد سيدي سليم نهار الخميس.

القاهرة: ١٩٨٥

الروايات القصيرة

في هذه الطبعة الجديدة تقدم دار الشروق روايات قصيرة للأديب عبد الحكيم قاسم لأول مرة، في كتاب واحد يضم روايتيه القصيرتين «المهدي» و«طرف من خبر الآخرة» ونصوصه القصيرة الثلاثة «الأخت لأب» و«سطور من دفتر الأحوال» و«رجوع الشيخ» والتي اعتبرها النقاد من الروايات القصيرة. وأيضًا فصل من رواية «كفر سيدي سليم» التي خطط لها الكاتب أن تتألف من خمسة عشر فصلا، ومات قبل أن يتمها.

وهي مجموعة من التجارب السردية شديدة التميز والاختلاف، كتبها على فترات مختلفة لكنها تحمل عبق مفرادته الإبداعية.



عبد الحكيم قاسم (١٩٣٥-١٩٩٠): كاتب وأديب مصري من أهم كُتّاب جيل الستينيات، ولد في محافظة الدقهلية ثم انتقل إلى القاهرة عام ١٩٥٤ ومنها إلى الإسكندرية حيث تطوع في الحرس الوطني بعد العدوان الثلاثي قبل أن يتم اعتقاله على خلفية نشاطه السياسي ليقضي خمس سنوات في سجن الواحات، خرج بعدها عام ١٩٦٤ ليكمل دراسته للحقوق. ونُشرت أعماله الروائية والقصصية في عدة مجلات ودوريات أدبية مرموقة خلال الستينات والسبعينات. انتقل للإقامة في برلين خلال الفترة من ١٩٧٤ وحتى ١٩٨٥ حيث شرع في إعداد رسالة علمية عن الأدب المصري المعاصر. له عشرات القصص القصيرة وعدة روايات قصيرة وطويلة من أشهرها روايته البديعة «أيام الإنسان السبعة» الصادرة عن دار الشروق ٢٠٠٥ وروايته القصيرة «المهدى».



دار الشروق
www.shorouk.com